د/ عبد الفتاح أحمد الفاوى
أستاذ الفلسفة بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

التصوف

الوجه والوجه الآخر

معه

تحقيق كتاب

أصول الملامتية وغلطات الصوفية

للإمام أبى عبد الرحمن السلمى ٤١٢ هـ

الطبعة الثالثة

دار الهانى للطباعة والنشر

ت / ٤٤٤٢٠٥٥

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه أجمعين.

وبعـــــد .

فهذا كتاب من كتب تراثنا يأتى شاهدا جديدا ينضم إلى الشواهد الكثيرة القائمة على قيمة هذا التراث ومكانته العلمية التى لم يزدها تقادم العهد إلا أهمية ونفاسة. فرغم مرور أكثر من عشرة قرون عليها مازالت أفكارها ومادتها العلمية تنبض بها حياتنا ويتطلبها عصرنا وترانا فى أمس الحاجة إليها لا من أجل أنها تراثنا فحسب وإنما لقيمة ما أودع فيها من معلومات ومعارف، كأنما هى من معطيات قرننا العشرين وستظل كذلك جديدة في كل عصر مطلوبة في كل جيل فهى حديثة مع قدمها طريفة تليدة معا.

ومهما شكك المشككون في قيمة هذا التراث ومدى أهمية نشره فان الحاجة ستظل قائمة فى بعثه ونشره ما بقى فى هذا التراث أثاره من علم يمكن أن ينتفع بها ويستفاد منها، ويقينى أن تلك الأثارة ذات نبع غزير.

وينبغى ألا يظن بنا هنا أننا نثير من جديد مسألة الأصالة والمعاصرة تلك المسألة التى لم يجف فيها مداد أقلام العلماء بعد والتى لم يترك العلماء فيها لمعتصر قطرة. وإنما كل ما نريد أن نشير إليه هو أن الاهتمام بما فى تراثنا من نفائس وذخائر لا يعنى أبدا بعدنا عن معطيات عصرنا الحديث من العلم والمعرفة، بل ربما كان فيه العون على ذلك.

وأن تراثنا ليس كله على درجة واحدة من القيمة والأهمية لأن فيه كثيرا من اللغو والتكرار الذى لا يستحق ضياع الوقت فيه، ومن الأهمية بمكان تمييز غث هذا التراث عن ثمينه بواسطة اللجان العلمية المتخصصة، أو بأية وسيلة علمية أخرى يراها المهتمون بأمر التراث.

وأن يكون دافعنا إلى نشر ما يستحق النشر من تراثنا هو الاستفادة منه وليس التغنى به وترديد كلمات الإعجاب الجوفاء حوله تلك الكلمات التى لا تصدر إلا عن غفلة وبلاهة ومثل هذه الكلمات - فى نظرى - إن لم تشفع بعمل يصل الحاضر بالماضى لا تدل إلا على بلادة عقل وفتور همة.

وليس فى اهتمامنا بتراثنا على هذا النحو ما يبعدنا عن أن نعيش عصرنا بكل علومه ومعارفه، وبكل حضارته وتقدمه لأن فى هذا التراث وخاصة فى الجوانب الدينية والإنسانية منه ما هو أشد معاصرة وأكثر حضارة وأنجح تحقيقا لسعادة الإنسان من بعض علوم عصرنا ومعارفه فدعوتنا إلى التراث ليست من أجل التراث نفسه وإنما لتحقيق معاصرة أصيلة وقويمة. تلحقنا بركب التقدم العلمى حتى لا نترك الهوة سحيقة والبون شاسعا بيننا وبينه، وإذا كان سلفنا فى عصرهم كانوا فى مقدمة هذا الركب فلا نظن أنهم أو أننا بعلومهم وحدها سنكون مع هذا الركب فى عصرنا، بل سنحقق ذلك إذا أخذنا بعلوم عصرنا وحده وسنحققه بصورة أتم إذا أضفنا إلى ذلك جيد تراثنا. فينبغى أن نتمسك بجيد هذا التراث - على الأقل - فى العلوم الدينية والأخلاقية فهذه العلوم قواعدها ثابتة لا تتغير من جيل إلى جيل أو من عصر إلى عصر. وقد بذلت فيها جهود

كبيرة علينا أن نستفيد منها فقد حققت للإنسانية سعادتها وللشعوب أمنها وسلامتها عندما أتيح لها أن تطبق وأن تكون دستور دولة وشريعة أمة. وما علينا إلا تحقيق ذلك مرة أخرى.

أما العلوم الأخرى : العلوم العلمية أو العلوم الدنيوية - إن صح التعبير - فلا أعتقد جدوى ما بتراثنا منه الآن اللهم إلا فى حالة التأريخ لتلك العلوم وبيان جهود السابقين. فمع أن تراثنا لا يخلو من نظرات قيمة فى هذه المجالات إلا أن ما جاء منها فى تراثنا لا يكفى لملاحقة التطور العلمى فى عصرنا ويجب فى هذا الشأن أن نضرب فى علوم القوم وأن نغزوها، وأن نحج إلى بلادهم رجالا وركبانا زرافات ووحدانا وأن نترجم كتبهم العلمية والأدبية ونستقدم معارفهم ومخترعاتهم متسلحين بالجدية والنية الصادقة فى الاستفادة. ومن قبل ساح علماء المسلمين وسافروا وضربوا فى الأرض يمينا وشمالا فى طلب العلم وفى جمع الحديث وتوثيقه وحققوا فيه المعجزات وأصبح جهودهم فى جمع الحديث وتوثيقه محل إعجاب وتقدير من المستشرقين الذين من شأنهم تصغير كل جهد للمسلمين. فلا أقل من أن نكون نحن بالنسبة لعلوم العصر فى هذه الأيام كأسلافنا بالنسبة لعلوم عصرهم فى أيامهم مع اختلاف الظروف والأحوال بما هو فى صالحنا.

يجب أن نأخذ عن الغرب أو عن غيره حضارته كل حضارته لا يحجبنا عن ذلك دين أو تراث كما أخذوها عنا قبل ونكيفها حسب ظروفنا وطبيعتنا ومقتضيات أحوالنا، لأن التقليد الأعمى لا ينتج تطورا ولا يتمخض إلا عن تخلف غبى وتشويه ومسخ.

وبعد : فإذا كان الحديث عن كتابنا «أصول الملامتية» هو الذى جرنا إلى الحديث عن الأصالة والمعاصرة دون قصد أو تدبير فإننا نرى أن هذا الكتاب من التراث الذى يستحق النشر لقيمة ما يحتويه من آداب وأفكار أحوج ما نكون إليها فى هذا العصر الذى طغت فيه المادة على كل شئ وانزوت فيه دائرة الفضيلة فى أقصر قطر وأضيق محيط.

وكتابنا فى التصوف. والتصوف هو الخلق، ولا يحسن الكتابة فى التصوف إلا الصوفية لأنهم يصفون ما هم فيه وما هم عليه وغيرهم يصف ما سمعه أو قرأه وليس الخبر كالعيان - كما يقولون - لذا آثرت عندما أردت الكتابة فى التصوف أن أحقق واحدا من كتبه التى ألفها أربابه ومشايخه حتى تكون أكثر نفعا وأصدق قيلا.

وترجع علاقتى بهذا الكتاب إلى بضع سنوات مضت عندما اطلعت عليه مخطوطا فى دار الكتب أثناء دراستى للدكتوراه ولم أقف عنده طويلا حتى عدت إليه مرة أخرى منذ أربع سنوات عندما أردت الكتابة فى التصوف واطلعت على مخطوطاته فى دار الكتب ومكتبة الجامعة، وعقدت العزم على تحقيقه. وها هو يرى النور أو يكاد يراه بعد قليل.

أما علاقتى بالتصوف فترجع إلى ربع قرن تقريبا عندما كنت طالبا فى المرحلة الثانوية وقمت بزيارة لبعض زملائى وكان من النجباء الأتقياء فوجدت عنده شخصا لم أره من قبل ووجدت به حفاوة ملحوظة غير معهودة خاصة فى مثل الأيام التى كانت تسبق الامتحان من كل عام.

وأخيرا عرفت أن هذا الشخص واحد من مشايخ الصوفية - رغم حداثة سنه آنذاك فقد كان فى العقد الرابع تقريبا - وأن زميلى هذا وآخرين قد أخذوا العهد عليه وأصبحوا من مريديه وأنه ينبغى ألا تفوتنى هذه الفرصة فلبيت وأخذت العهد ورددت وراءه كلمات لا أذكرها الآن وإن كنت أتذكر أنها كانت طيبة المضمون. وكنت أكره من نفسى خصلتين رجوت أن أقلع عنهما بعد هذا العهد هما جمع الصلاة جمع تأخير دون عذر، وسبق لسانى إلى الحلف دون حاجة.

وأقلعت عن ذلك فعلا وأصبحت فى حالة أفضل. ولكن ما لبثت أن لاحظت على شيخى هذا أنه واقع فيما أقلعت أنا عنه فيجمع الصلاة جمع تأخير بدون عذر لا يقوم إليها إلا متكاسلا - فلم أره يصلى الفجر إلا فى الضحى ولا الظهر إلا جمعا مع العصر ولا المغرب إلا مع العشاء، ويكثر من الحلف كما كنت أكثر، كما لا حظت ركونه إلى خدمة الزملاء الذين صاروا مريدين له وإيثارهم إياه على أنفسهم فى المطعم والمشرب والملبس والمسكن مع ما بهم من خصاصة ورقة حال، وما عليه من كفاية ويسار وهو يستمرئ ذلك ويتمادى فيه. فلم أملك قلبى من التغير عليه لأنه - فى نظرى - لا يفضلهم فى علم ولا عبادة. فانصرفت بقلبى عنه مكتفيا ومقتنعا أن يكون القرآن والسنة هما إمامى وشيخى ونقلت العهد منه إلى الله تعالى.

وكانت هذه أول معرفة عملية بالتصوف والصوفية فلم أكن قد قرأت آنذاك شيئا عنهم ولا اطلعت على كتاب من كتبهم، وأصبحت

بناء على هذا الموقف فى حيرة من أمرهم قلبى يريدهم ولكن عقلى يتساءل كثيرا حول الكثير من أحوالهم مما منعنى من الانخراط فى مسلكهم ومن يدرى ما الذى كان سيئول إليه أمرى لو أننى كنت قد أغضيت الطرف عن تصرفات شيخى السابق والتزمت بما لقننيه وبما وجدته من نفسى بعد أخذى الطريق عليه!! خاصة وقد عرفت بعد ذاك أن من شرط المريد ألا يعترض على شيخه فى قول أو حال، وأن يكون بين يديه كالميت بين يدى من يغسله، وأن من شرطه أيضا أن يصارحه بما فيه من عيوب نفسه، ولم أقم بهذين الشرطين!!

المهم أن معرفتى للتصوف عن طريق الطرق المنتشرة كانت معرفة قاصرة ومشوهة لأن فى هذه الطرق ما يسئ إلى التصوف أكثر مما يحسن إليه وفيها ما ينفر الناس عنه أكثر مما يحببهم فيه، إلى أن شرعت أقرأ فى التصـــوف وأطلع على كتب الصـــوفية فتغير(١)

---

(١) الفجوة بين القول والعمل أو بين النظرية والتطبيق موجودة فى كل المجالات وليست عند الصوفية وحدهم فأنت مثلا تجد الفقهاء يحررون المسائل الفقهية وبعضهم لا يتحراها فى معاملاته والنحاة يضعون القواعد النحوية وبعضهم لا يلتزمها فى كلامه وتجد مثل ذلك فى السياسة والطب والاجتماع وغيرها، يضع أربابها أدق النظريات فيها وكثير منهم لا يلتزم بها غير أننا نأخذ على الصوفية ذلك أكثر مما نأخذه على غيرهم لما نعتقده فيهم من خيرية تبعدهم عن الشر ومثالية تبعدهم عن كثير من سوء الواقع وصلاح يصونهم عن الفساد من هنا كان لوم الناس لهم أكثر ومطالبتهم بمطابقة القول للعمل أشد .

ومع أننى أنكرت أشياء على شيخى السابق إلا أننى أحسست بخيره وبركته على ويكفى أنه حملنى على ترك ما كنت أكرهه فى نفسى .

الحال وتبدل الرأى لأن التصوف كما جاء فى كتب الصوفية يختلف كثيرا عن التصوف كما هو موجود فى تلك الطرق الحالية، فهو حسب ما جاء فى كلام بعض شيوخ الصوفية «الإسلام» بل هو جوهر الإسلام ولبه. خاصة فيما يتعلق بالجانب الأخلاقى النفسى الذى التزم فيه الصوفية بمنهج الإسلام وطريقته على أفضل وجه وأسمى صورة وأدق سلوك وأحسن تطبيق. فوقفوا على النفس الإنسانية وأبعادها وما فيها من شر وخير، وعملوا على تسويتها وتزكيتها بعد أن اقتلعوا بذور الشر والمكر والسوء منها عن طريق محاربتها وإذلالها وبخعها وبخسها حتى أصبحوا فى هذا الجانب أساتذة على مستوى المعرفة النظرية، وقدوة وشيوخا على مستوى التطبيق العملى.

وواحد من مؤلفاتهم - تلك - التى تعالج أمر النفس والأخلاق والتى أودعوا فيها من خلاصة تجاربهم مع النفس وفى الأخلاق ما نحن فى أمس الحاجة إليه فى عصرنا بل ربما كانت حاجتنا إليه أكثر من حاجتهم هم إليه فى عصرهم لتدهور القيم بيننا وغياب الفضيلة فى كثير من مجتمعاتنا - هو كتاب أصول الملامتية الذى بين أيدينا والذى قمنا بتحقيقه للأسباب الآنفة ففيه يلتقى التراث بالمعاصرة والقديم بالجديد، لأن قواعد الأخلاق وفضائلها معيارية وليست نسبية، وما توصل إليه الصوفية المسلمون فى شأن النفس هو ما نراه قد أتت به كثير من نظريات مدارس علم النفس الحديثة والمعاصرة. ولا غرو فى ذلك فصوفية المسلمين استقوا دراساتهم للنفس والأخلاق من القرآن والسنة وهما خير مصدر وأصدق محدث عن ذلك.

وكتاب الملامتية لأبى عبد الرحمن السلمى يتكون من عدة فصول الفصل الأول والأكبر فيه عن أصول الملامتية والفصل الثانى عن غلطات الصوفية، والثالث عن الشطح. وقد قام الدكتور أبو العلا عفيفى بتحقيق ونشر(١)الفصل الأول منه فقط سنة ١٩٤٥م فى كتابه عن الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ولم يقم أحد بعد ذلك - على حد علمى - على نشر الكتاب أو تحقيقه الأمر الذى رأيت معه وجوب إعادة تحقيق الكتاب ونشره كاملا.

وقد عزمت على ذلك ولكن صرفتنى عنه صروف ذكرت طرفا منها فى مقدمة كتابى «عقيدة المعاد بين الدين والفلسفة» وكانت هذه الصروف التى صرفتنى عن هذا الكتاب وأخرت ظهوره بعض الشئ -رغم قسوتها- رحمة ومنحة أوجبت على شكرا لمن تسبب فيها، ولمن ساعد فى الخلاص منها. بل ربما قدمت شكر أولهما على ثانيهما(٢). ولله الحمد والشكر أولا وأخيرا.

والحديث عن التصوف دقيق وخطير معا ومصدر دقته أن التصوف يتصل بالقلوب. وأسرار القلوب وخلجاتها أدق من أن تظهر لكل كاتب أو باحث. ومصدر خطورته أن التصوف عمل وسلوك ومجاهدة ومكابدة، وليس كتبا تقرأ، وكلاما يحفظ. وهو يختلف من طائفة إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر بل ربما اختلف فى الشخص نفسه من وقت لآخر حسب الواردات عليه.

ومن ثم فالكتابة فيه يجب أن تتسم بالحذر وخاصة من غير سالكى طريقه حتى لا يظلموا القوم أو يظلموا أنفسهم وإذا كان سالكو الطريق أنفسهم يخشون ذلك فما بال غيرهم!!.

---

(١) دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

(٢) انظر خاتمة كتاب « عقيدة المعاد » للمؤلف .

وقد جاء هذا الكتاب فى ثلاثة أقسام. خصص القسم الأول فيه لدراسة التصوف أو بعبارة أدق لدراسة موضوعات متعلقة بالتصوف وتعتبر مداخل ضرورية له. مثل الحديث عن أصل كلمة التصوف وسبب تسمية الصوفية بذلك، وهل هى مشتقة وإذا كانت مشتقة فهل هى من الصوف أو من الصفاء أو من الصف أو من غير ذلك وإن لم تكن مشتقة فهل هى منقولة عن الكلمة اليونانية (صوفيا) أو عن اسم شخص كان يدعى صوفة أو عن اسم بقلة كانت تنبت فى الصحراء.

ومثل الحديث عن تعريف التصوف، وكثرة التعريفات التى وضعها الصوفية له وسبب تعددها، وهل هى متعارضة أم متكاملة ونشأة التصوف ومتى ظهر. وهل كانت نشأته إسلامية أم أنه ينتمى إلى أصول ومصادر أجنبية. ثم موقف المسلمين بين القبول والرفض. إذ لم نر إختلافا حول علم من العلوم أشد ولا أدق من الاختلاف حول التصوف والصوفية. يرفعهم أقوام إلى أعلى درجات الولاية وينزل بهم آخرون إلى الزندقة والهرطقة وينظر قوم إلى التصوف على أنه لب الإسلام وجوهره ويراه آخرون انحرافا وضلالا. وسبب ذلك - فى نظرى - أمران : **أحدهما** : وجود بعض الأدعياء ممن ينتسبون إلى التصوف، وليسوا منه فى شئ. **وثانيهما** : أن التصوف ذوق ووجدان لا يعرفه على حقيقته إلا من خاض تجربته.

أما **القسم الثانى** من الكتاب. فهو دراسة وتحليل للملامتية وأصولهم ومذهبهم ورجالهم، ولأبى عبد الرحمن السلمى وكتابه الذى بين أيدينا.

وقد ظهرت الملامتية أول ما ظهرت بنيسابور بناحية خراسان على يد حمدون القصار وأبى حفص النيسابورى ويقوم مذهبهم على

محاربة النفس وإذلالها وعدم رؤية أعمالها حتى لا يغتر صاحبها بعبادة أو عمل ويرى التقصير فى كل ما يأتى وما يذر.

وقد قام السلمى بجمع أصول هذه الطائفة وتوضيح مذهبهم وموقفهم من النفس وكان أول من قام بذلك فلم يعرف من كتب فى الملامتية قبله ومن هنا جاءت أهمية كتابه. والسلمى كما نعرف من رجال الصوفية الذين كان لهم فى الطريق أثر بعيد. ولكنه لم يكن ملامتيا.

والقسم الثالث من الكتاب يختص بتحقيق كتاب أبى عبد الرحمن السلمى والتعليق عليه، وتخريج الآيات القرآنية وبعض الأحاديث التى وردت فيه والترجمة لبعض رجال الصوفية الذين ورد ذكر اسمهم فى الكتاب.

وليس من نافلة القول بعد ذلك أن نذكر أن الكتابة عن التصوف ليست هى التصوف. وإنما دراسة له وتعريف به. أما التصوف نفسه فلا يتأتى عن طريق الكتابة أو القراءة وإنما عن طريق التجربة والذوق. ومن ثم فإنه لا يجيد الكتابة عن التصوف إلا الصوفية لأنهم يصفون ما يجدون.

ولعلى أكون بتقديم كتاب أصول الملامتية لأبى عبد الرحمن السلمى قد أسهمت بعمل جيد وجاد فى مجال الدراسات الإنسانية وخاصة مجال الأخلاق بعد أن فتر الاهتمام بتلك الدراسات من الأمم ومن الأفراد. فانصرف اهتمامهم إلى ماديات تلك الحياة[١] وطغت على

---

(١) انظر : البيهقى : البعث والنشور ١٧ المقدمة .تحقيق المؤلف.

مكتباتهم نوعيات من الكتب والمؤلفات، أقرب ما تكون إلى الضريع الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع، واكتظت هذه المكتبات بكثير من الكتب الرخيصة التى لا تدعو إلى فضيلة أو دين بل التى تأخذ على عاتقها محاربة الأديان عامة والإسلام خاصة بشكل سافر مرة ومن وراء حجاب مرة أخرى بعد أن دست السم فى العسل فظهرت للناس على أنها كتب إسلامية والله يعلم أن الإسلام منها براء.

وبعد

فلعلنى أكون قد وفقت فيما قصدت، وأن يكون كلمى وعملى فى كتابى هذا مما أشارت إليه الآية الكريمة «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه(١)» .

وعلى الله قصد السبيل.

عبد الفتاح أحمد الفاوى

القاهرة مدينة نصر

١٢ من صفر ١٤٠٥هـ

٦ من نوفمبر ١٩٨٤م

---

(١) فاطر ١٠

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه أجمعين... وبعد

فللتصوف حرمه وحرمته . حرمه الذى يقتضى شروطا معينة فيمن يرتاد ميدانه، وحرمته التى تقضى الشئ نفسه فيمن يتصدى للكتابة فيه. يعرف ذلك من يهتم به قراءة أو يكابده تأليفا، ويعرفه أكثر من يتخذه منهجا ويسلكه طريقا.

ولست صوفيا ولا متخصصا فى دراسة التصوف ولكن واحد من المشتغلين به والباحثين فيه، عرفت أثناء اشتغالى به قراءة وتأليفا ذلك الذى قدمت وهو أن التصوف ليس ميدانا لكل وارد ولا موردا لكل شارب وأنه لايسلس قياده ولا تتسنى الكتابة المنصفة فيه إلا للواحد بعد الواحد، ومن رام الكتابة فيه قبل أن يحس بالمعانى تجيش فى نفسه وتملأ عليه جنبات قلبه ودون أن تعطى له من داخله الإشارة ويأس فى نفسه القدرة على حسن العبارة فإن كتابته تأتى باردة جامدة بعيدة عن الحق غير منصفة.

هذا... وقد لاقى كتاب الملامتية فى طبعته الأولى ١٩٨٥ قبولا وإقبالا حتى نفدت طبعته من عامها، وشغلتنى عن إعادة طبعه - رغم مطالبة الكثيرين - أفراد ودور نشر - لى بذلك مسائل وشواغل ما إن انتهت - أو كادت - حتى سارعت بإعادة تحقيقه وطبعه على النحو الذى بين يديك . والذى أرجو أن يكون كلمى فيه إلى الله صاعدا وعملى فيه مرفوعا كما قال «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

هذا وبالله التوفيق.

القاهرة - مدينة نصر

رجب ١٤١٥هـ/ يناير ١٩٩٥م

المـؤلف

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه أجمعين.

وبعد،،،

فالتصوف طريق فرض نفسه وفرض وجوده على حياة كثير من المسلمين: الأميين منهم والمتعلمين. وفرض نفسه ووجوده على الساحة العلمية فكتب فيه وكتب عنه الكثيرون منذ عصور الإسلام الأولى حتى يومنا هذا مما جعل ميدانه من أخصب الميادين العلمية في الدراسات الإسلامية كتابة –تحقيقا وتأليفا– وأصبح طريقه من أشهر الطرق الدينية – إن صح التعبير– التي يعبرها بعض المسلمين ويعمرونها. فما التصوف؟

هل التصوف عقيدة أم شريعة؟ حال أم مقام؟ عادة أم عبادة؟ هل هو دين أم خروج عن الدين؟ اتباع أم ابتداع؟ هل هو جوهر أم عرض؟ أصيل في الإسلام أم دخيل؟ هل كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أم ظهر بعده؟ وهل كان في عصر الصحابة أم ظهر بعدهم في عهد التابعين وتابعي التابعين؟ وإذا قلنا إنه كان في عهد الصحابة فهل نستطيع أن نسمي بعضهم أو واحدا منهم؟ وإذا قلنا إنه كان في عهد التابعين فهل نستطيع أن نذكر من كانوا عليه منهم؟ أم نقول: إن الكل كانوا صوفية –كل الصحابة– فالتصوف يعني الزهد وكلهم رضي الله عنهم كانوا زهادًا.

قالوا: إن التصوف ابن للزهد والصحابة كانوا زهادًا والرسول صلى الله عليه وسلم كان من أزهد الناس فالتصوف ابن شرعي للزهد فهو دين أو من الدين.

ولكن كم من ابن شرعي عق أباه وعق أمه، فهل التصوف ظل ابنـــا بـــار للزهد؟ أم جنح وجمح وعق وخرج. لا مشاحة في الزهـــد، ولا مشـــاحة في أن جانب الزهد في التصوف مقبول، ولكن ليس هذا هو الجانب الذي نتحدث عنه ولا هو الجانب الذي نعنيه بالتصوف عندما نطلق كلمة أو مصطلح "التصوف".

أحاول أن يكون قلمي محايدا ومنصفا. فالتصوف غير الزهد والتصـــوف الذي نتحدث عنه ونعرفه ويعرفه الجميع، ويكتب فيهُ العلماء، وينتهج طريقـــه المنتهجون ويملأ الساحة الآن بحق أو بغير حق ليس هو الزهد، فدعونا نـــاقش المسألة بحيدة ووضوح من خلال كتابنا: التصوف الوجه والوجه الآخر في طبعته الثالثة. هذا وبالله التوفيق.

د/ عبد الفتاح أحمد الفاوي.

القاهرة: مدينة نصر

رجب ١٤٢٦هـ

أغسطس ٢٠٠٥م

تمهيد

لماذا التصوف؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه أجمعين.

وبعد،،،

فثمة سؤال أو تساؤل يطرح نفسه وهو: لماذا التصوف؟

قالوا: التصوف لبس الخرقة، وقالوا عنه: إنه الجوع وقالوا عنه: إنه الإلهام، وإنه الكرامات، قالوا عنه الكثير والكثير، إنه هذه الأشياء أو إن هذه الأشياء من علاماته، وجعلوه الإسلام وجعلوه منه درجة الإحسان فهل هو كذلك؟

قضايا بليت وقتلت بحثا ولا نريد أن نطيل لأنه لن نقول فيها أكثر مما قيل:!! ولكن الذي دعانا إلى الكتابة الآن هو أن يعود الاهتمام بالتصوف من جديد. فتكتب فيه البحوث وتعقد فيه الندوات وتقام من أجله المؤتمرات وكأنه الطريق إلى التقدم أو الطريق إلى الجنة.

لا نستطيع أن نبعد الناس عن التصوف أو نبعده عنهم ولكننا نستطيع بسطور الأقلام أن نبين حقيقته وأن نوضح طرقه وأن نظهر معالمه وماله وما عليه. لا نريد أن نمدح أو نقدح، ولا أن نشيد أو نبخس ، فقط نريد أن نظهر وجه الصواب في هذا المجال أو الميدان، وكل من كتب وكل من يكتب يسجل أن هذا هدفه ثم يتوه هذا الهدف بين السطور فإن تمنا فلسنا بدعة وإن التزمنا فهي المنة.

للتصوف سلبيات وله إيجابيات: ومن أهم سلبياته أنه بدعة وأنه يجنح كثيراً إلى طرفي الإفراط والتفريط ومن أهم إيجابياته أن الكثيرين ممن يسلكون طريقه

أكثر التزاما ومحافظة على العبادات والطاعات والقربات من غيرهم ويحيون سنة التهجد التي يقول عنها الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وأيا ما يكن فمما ينبغي أن يعرف أن التصوف المدون في الكتب غير التصوف الممارس في الواقع وأن لكل صوفي طريقه ومنهجه. وكل واثق بنفسه ثقة كبيرة فالرفاعية غير الشاذلية وهي غير التيجانية والبدوية، وغيرها وغيرها، كل يرى أنه هو ولا غير سواه وليس كما قال الإمام الشافعي رأيي صحيح يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

تركنا ما نريد أن نبحثه وكأننا اعترفنا بالتصوف ونبحث فيما وراءه فيما يندرج تحته ولنعد إلى نقطة البداية.

هل يقر الإسلام التصوف أم يرفضه؟ وهل جاء به أم جيء به إليه؟وإذا كان جاء به فلماذا لم يعرف في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد صحابته رضوان الله عليهم؟ وإذا كان جيء به إلى الإسلام فهل جيء به لخير أريد للإسلام والمسلمين أم لشر أريد بهما؟ وإن كان لخير فلماذا أخطأه الإسلام وإن كان لغير ذلك فلماذا نرضاه في الإسلام؟

انتهى إلى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بعض صحابته سألوا عن عبادته ولما عرفوها كأنهم تقالوها، فقالوا وأين نحن من الرسول لقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وقال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر وقال الثاني: أقوم الليل ولا أفتر، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم مقالاتهم قال: أما إني أعبدكم لله، وأصوم وأفطر وأصلي وأفتر وأتزوج النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني. فإذا كان التصوف طريق هؤلاء الثلاثة فقد بين الرسول ﷺ موقف الإسلام منه، وإذا كان غيره فماذا هو إذن؟

التصوف ليس له طريق واحد وإنما طرقه كما قال عنه أصحابه بعدد نجوم السماء فكل صوفي له طريقه وطريقته ولا مشاحة في ذلــك إن كــان ملتزمًــا بالإسلام.

أتدري حتى الآن أحوم وأطوف ولم أقل ما أريد أن أقوله؟

فما الذي أريد أن أقوله؟ أريد أن أقول رأيي في التصوف، ولكن من أنــا حتى أقول برأي أو يكون لي رأي؟ وهل التصوف نستطيع أن نحصــره في رأي واحد أو تحت حكم واحد؟ إنك تستطيع أن تقول: إن هذاخطأ وهذا صواب في كثير من المجالات والعلوم أما التصوف فلن نستطيع – في كثير من الأحيــان – أن تقول فيه أو عنه تلك الكلمة أو تنطق بهذا الحكم لأن كل كلمة وراءها عند قائلها من المعاني الكثير والكثير.

أمواج وأمواج تعلو بك وتهبط في بحار كتب الصــوفية وأنهــار علــومهم والجميع مقصدهم واحد وغايتهم واحدة وهو الوصول إلى الحقيقة، ولكن أيــن هي؟ وأين الوصول إليها؟ وهل الحقيقة واحدة أم متعددة بتعدد شيوخ الصوفية؟

التصوف أقوال وأفعال عبادات ومعاملات أخلاق وسلوك حياة غير هــذه الحياة وعالم غيرهذا العالم كل قلم له فيه سطور وكل قلب فيه منه شعور وكــل لسان له عنه في كل وقت حديث هو سحاب أو كالسحاب حقيقة أو كالحقيقة تذكرني الكتابة فيه بقصة جماعة العميان مع الفيل عندما طلب منــهم وصــفه فوضع كل واحد منهم يده على جزء من الفيل، ووصف كل واحد منهم الفيل بما وقع تحت يده منه.

التصوف بئر عميق والحقيقة فيه في قاع البئر بعيدة بعيدة ليست كــالبئر التي ألقى فيها سيدنا يوسف عليه السلام ولا الناشد للتصوف كالدالي بدلوه في البئر التي ألقى فيها سيدنا يوسف عليه السلام بل كم من دلاء أدليت في بئــر التصوف ورجعت فارغة ليس فيها من الحقيقة قطرة وربما رجع الدلو ، وفيــه القطرة أو القطرات ولكن الوفاض لم يمتلئ والحقيقة لم تتضح بعد.

قد يقول قائل: قرأنا في التصوف أو درسنا التصوف وما رأينا ما تقــول والأمر أبسط من ذلك بكثير فهو علم كغيره من العلوم ومعرفة كغيرهــا مــن المعارف إن اختلفت تختلف في أشياء واضحة وبسيطة ومعلومة، ولا داعي لهــذا الضباب الذي تنشره وهذا التراب الذي تنثره على التصوف حــتى لا نكــاد نراه!!

أقول لك: إنني أحدثك عن التصوف وأنت تتحدث عن علــم التصــوف وبينهما فرق وفرق كبير.

أطلت عليه الكلام فاعذر وسامح فأنت في مجال التصوف المعروف أصحابه بالتسامح. وبقيت كلمة وهي: هل التصوف تخلف أم التصوف حياة وعمل يدفع إلى التقدم، نقرأ أن الصوفي يعتقد أن الأعمال كلها يستطيع أن يأتيها من فــوق سجادته ومن داخل خرقته أو مرقعته وعباءته، إنه لا يحتاج إلى ما يحتــاج إليــه الآخرون من كد وكدح فالله سخر له الأشياء والناس والدواب، والأنعام، وكل يوم تراوده الجبال الشم عن ذهب فيأبى أيما إباء... هكذا يعتقدون أو يعتقــد بعضهم وبهذا الوهم يعيشون!! ولا يهتمون إن وصفوا بالتخلف أو غيره بل ربما يعتبر بعضهم التخلف عبادة والتقدم بدعة والآخرة خير وأبقى.

هكذا يقولون: أو يقول لسان حالهم.

فليقل عنهم إنهم متخلفون فدنيا الناس لا تساوي عندهم شيئا. وعبــارات كثيرة ونعوت متعددة تقال عن التصوف مثل: التصــوف وصــول، التصــول حصول، التصوف طريق، التصوف صعود، التصوف حياة، التصــوف إماتــة، التصوف هرطقة، التصوف زندقة، التصوف عين اليقين، التصوف حق الــيقين، التصوف نور، التصوف نار، التصوف جوع، التصوف زاد، التصوف هدايــة، التصوف غواية، التصوف عكوف، التصوف عزوف، التصوف لباس التقــوى ذلك خير، التصوف أين؟ في الخلوة أم في الجلوة في السكر أم في الصــحوة في السطور أم في الصدور، في الأولين أم في الآخرين أم في النــاس أجمعــين، مــع

الفلاح في أرضه أم مع الصانع في مصنعه أم مع العامل في عمله، أم مع العابد في صومعته أم مع الجميع؟

هل ثمة تصوف؟ وفيم هذا الاسم؟ ولم هذا الاسم؟ ألا يكفي أنك مؤمن وأنك مسلم وأنك تقي وأنك نقي وأنك عابد وأنك طيب أم أردت أن تجمع كل هذه المعاني في كلمة فقلت صوفي.

هل التصوف من الإسلام؟ هل التصوف مسبحة ولحية وسجادة هل التصوف صيام وقيام هل التصوف مسجد واعتكاف هل التصوف كل ذلك أم شيء أسمى من ذلك أم شيء غير ذلك؟

خبرني بربك فقد غم الأمر على فأحيانا أرى التصوف في كل شيء وأحيانا لا أراه في شيء أحيانا أراه في فأس الفلاح ومنشار النجار ومطرقة الحداد وأحيانا أراه في عباءة الشيخ والخطيب أحيانا أراه في الشيخ العجوز وأحيانا أراه مع الفتى التقي الذي يؤم المساجد وغير ذلك من الصور التي يرى فيها التصوف الكثير والكثير، وليس التصوف كل ذلك وليس التصوف غير ذلك فأين هو من ذلك؟

هذا عن التصوف بمثابته واقعا أما التصوف بمثابته علما فإنه قائم وموجود وله كيان فهو علم ومعرفة وميدان مليء بالمؤلفات والمؤلفين وبالشيوخ حتى إن المكتبة الصوفية تعتبر من أثرى المكتبات الإسلامية، والكتابة فيه وعنه كثيرة قديما وحديثا فأمهات كتبه كثيرة يعرفها ويقرؤها الكثيرون صوفية وغير صوفية.

هذا وبالله التوفيق

القاهرة - مدينة نصر

رجب ١٤٢٦هـ

أغسطس ٢٠٠٥م.

القسم الأول

التصــــوف

الوجــه والوجــه الآخر

المبحث الأول

مقــدمات

بين يدى التصوف :

جرت عادة الباحثين فى التصوف أن يقدموا بين يدى دراساتهم لقضاياه ومسائله بالحديث عن بعض الموضوعات المتصلة به، والتى تعتبر مدخلا له وتمهيدا لمباحثه. ومن الموضوعات التى يتناولها الباحثون :

١ - أصل كلمة التصوف ونسبتها .

٢ - تعريف التصوف .

٣ - نشأة التصوف الإسلامى ومصدره .

٤ - موقف المسلمين من التصوف .

حتى اعتبرت دراسة هذه الموضوعات أمرا ضروريا لكل من يريد الحديث عن التصوف ولا يتم حديث عن التصوف بدونها . وقد سبق الصوفية أنفسهم بذلك فكانوا أول من دلوا على أهمية دراسة هذه الموضوعات بتناولها فى كتبهم ومؤلفاتهم عندما تحدثوا وأطالوا الحديث عن أصل كلمة التصوف ونسبتها.

وأوردوا تعريفات كثيرة له، كما حاولوا تحديد ظهوره ونشأته فى الإسلام وموقف المسلمين منه بين التأييد والمعارضة، وسنحاول تناول هذه الموضوعات.

أصل كلمة التصوف

تناول الباحثون وعلى رأسهم الصوفية الحديث عن أصل كلمة التصوف وأوردوا فى ذلك عدة أقاويل ترجع بالكلمة إلى الأصل (ص و ف) أو (ص ف و)أو (ص ف ف). فنسبوها إلى الصوف أو إلى الصفا أو إلى الصف أو إلى الصفة (صفة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة). أو إلى رجل اسمه صوفة، وإلى صوفة القفا وإلى الصوفانة وهى نبتة تنبت فى الصحراء وإلى الكلمة اليونانية (سوفيا).

أما نسبتها إلى الصوف وهى أقرب النسب وأصدقها فى نظر الباحثين، فلأن الصوف غالب لبسة الصوفية وهم يعتزون بلبسه لاقتدائهم فى ذلك بالأنبياء. روى أبو موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت العتيق». وقال الحسن البصرى: كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر، ويأكل من الشجرة، ويبيت حيث أمسى. وقال أبو موسى: كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف، ويركب الحمار ويأتى مدعاة الضيف. وقال الحسن البصرى لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم إلا الصوف. إلى غير ذلك مما يرويه الصوفية من أحاديث عن لبس النبى الصوف(١)

ويعلل صاحب كتاب اللمع(٢) - وهو أقدم كتاب عربى فى التصوف - سبب نسبة الصوفية إلى الصوف.

---

(١) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ٣٠، ٣١.

(٢) أبو نصر السراج الطوسى المتوفى ٢٧٨ انظر اللمع ص ٤٠، ٤١.

فيقول : إذا سأل سائل فقال قد نَسبت أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسبت الفقهاء إلى الفقه، فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم؟ ولم تضف إليهم حالا كما أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين والصبر إلى الصابرين؟ فيقال لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالفا ومستأنفا. وهم مع الله في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة. فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم. فلاجل ذلك ما أضفت اليهم حالا دون حال، ولا أضفتهم إلى علم دون علم. لأنى لو أضفت إليهم فى كل وقت حالا، ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق والعلوم والأعمال وسميتهم بذلك. ولكان يلزم أن أسميهم فى كل وقت باسم آخر، وكنت أضيف إليهم فى كل وقت حالا دون حال على حساب ما يكون الأغلب عليهم، فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء وتكثر فى ذلك الروايات والأخبار. فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والأخلاق الشريفة المحمودة، ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل، «وإذ قال الحواريون»(١) وكانوا يلبسون البياض فنسبهم إلى ذلك ولم

---

(١) المائدة ١١٢.

ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التى كانوا بها مترسمين، فكذلك الصوفية عندى - والله أعلم - نسبوا إلى ظاهر اللباس ولم ينتسبوا إلى نوع من العلوم الأخرى والأحوال التى هم بها مترسمون لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المتنسكين.

فالصوفية فى نظر السراج سموا صوفية نسبة إلى لباس الصوف ولم ينسبوا إلى علم من العلوم كالفقه والحديث والتفسير أو إلى حال من الأحوال كالحزن أو القبض أو البسط لأنه ليس لهم علم خاص ينتسبون إليه، ولا حال خاصة يقيمون عليها. بل فى ترق مستمر فى الأحوال، وليست حال من أحوالهم بأولى من حال أخرى. والصوف كان دأب الأنبياء والصالحين كما تدل على ذلك الأخبار والروايات فقد أثر عن عيسى عليه السلام أنه كان يلبس الصوف تعبدا، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لبس الصوف تواضعا وبعدا عن الرياء وزهـــدا ورد فى مرثيـة عمر بن الخطاب لرســول الله صلى الله عليه وسلم قوله «ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك»(١) وقــد ورد فى الحليــة لأبى نعيم أن النبى صلى الله عليه وسلم واسى أهل الصفة ولم يكن عندهم غير جباب الصوف(٢).

إلى هذا ذهب من يرى أن الصوفية منسوبة إلى الصوف، يقول ابن خلدون.« والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف. وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف(٣).

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ٢٢٠/١.

(٢) أبو نعيم : الحلية ٢٤٥/١.

(٣) المقدمة ١٠٦٢/٣.

والأخبار متواترة حول ارتداء أصحاب الرسول الصوف. فأبو عبيدة بن الجراح يظهر للناس وهو بالشام وعليه الرداء الخشن من الصوف فيطلبون منه إصلاح ذات شأنه واستبدال ملابسه لقربه من الأعداء الذين تؤثر المظاهر على معنوياتهم فيرفض قائلا ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم(١).

وقد استحسن السهرودى(٢) (٥٨٧) هذا الاشتقاق فقال: والقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع، ويقرب أن يقال لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار... كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التى لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها(٣).

ولكن ابن تيمية(٤) يتحفظ على ذلك فيقول: «لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم جبة الصوف فى السفر، ولهذا قال الأوزاعى: لباس الصوف فى السفر سنة وفى الحضر بدعة. ومعنى هذا أن

---

(١) مروج الذهب ١/٤١٨.

(٢) يحيى بن حبش بن أميرك أبو الفتوح شهاب الدين السهروردى قيل عنه أن علمه أكثر من عقله. نسب إلى إنحلال العقيدة وقتل خنقا فى سجنه بقلعة حلب ٥٨٧ ويقال: أنه كان ردئ الهيئة زرى الخلقة لا يغسل له ثوبا ولا جسما ولا يقص ظفرا ولا شعرا من أهم مؤلفاته التلويحات وهياكل النور.

(٣) عوارف المعارف ١/٢٥٩.

(٤) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرانى الدمشقى الحنبلى: ابن تيميه صاحب الفتاوى والمؤلفات المشهورة. سجن فى مصر من أجل فتوى أفتاها ثم أطلق فسافر إلى دمشق ومات معتقلا بها فخرجت دمشق كلها فى جنازته(٧٢٨).

المداومة عليه فى الحضر بدعة. كما روى محمد بن سيرين أنه بلغه أن أقواما يتحرون لباس الصوف. قال أظن هؤلاء بلغهم أن المسيح كان يلبس الصوف فلبسوه لذلك وهدى نبينا أحب إلينا من هدى غيره(١).

وعلى هذا فلبس الصوف وإن كان لا ينهض دليلا على سبب التسمية لأن الرسول وصحبه لبسوا الصوف وغير الصوف فإنه يدل على ما بين لبس الصوف والتواضع والأخشيشان من علاقة(٢).

أما من ذهب إلى أن الصوفية منسوبة إلى الصفاء فقد عللوا ذلك بصفاء أسرار القوم، ونقاء آثارها. قال بشر بن الحارث: «الصوفى من صفا قلبه لله» وقال بعضهم: «الصوفى من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته».

فصفاء أسرار الصوفية وصفاء قلوبهم وصفاء معاملتهم مع الله هو السبب فى هذه النسبة أو التسمية. وإلى مثل ذلك ذهب من قال أنهم نسبة إلى الصف لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

---

(١) الفتاوى ٥٥٥/١٠.

(٢) يذكر بعضهم وجها آخر لعلاقة التصوف بالصوف وهى صورة الغنم الذى يكسوه الصوف حيث ترسخت للغنم صورة توحى بالتفاؤل فى التراث الشعبى لكثير من الأمم والدافع لذلك هو أن كثيرا من الأنبياء والرسل عليهم السلام قد قاموا برعى الغنم فى بعض مراحل عمرهم جاء فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم: ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم فقال أصحابه : وأنت قال نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة. هذا إضافة إلى مسألة الفداء بالكبش لإسماعيل عليه السلام، انظر : التصوف منشؤه ومصطلحاته ص ١٩ للدكتور أسعد السحمرانى : بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧.

ويورد هؤلاء بين يدى هذه النسبة ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا دخل النور فى القلب انشرح وانفسح» قيل: وما علامة ذلك يارسول الله؟ قال: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله(١)» فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه. كما يوردون حديث حارثة عندما سأله النبى صلى الله عليه وسلم : ما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت بنفسى عن الدنيا، فأظمأت نهارى، وأسهرت ليلى، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعاوون(٢).

وقال النبى صلى الله عليه وسلم من أحب ان ينظر إلى عبد نور الله قلبه فلينظر إلى حارثة «قال بندار بن الحسين(٣): الصوفى من اختاره الحق لنفسه فصافاه، وعن نفسه برأه، وسئل التسترى(٤)من الصوفى؟ فقال: من صفا من الكدر، وامتلا من الفكر،

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء : أن صدر هذا الحديث رواه الحاكم فى المستدرك . انظر التعرف ٢١.

(٢) أورد الغزالى هذا الحديث فى فضل الزهد من كتاب الأحياء، وقال فيه العراقى : رواه البزاز من حديث أنس ، والطبرانى من حديث الحارث بن مالك . والحديثان ضعيفان . انظر التعرف ٢٢ وانظر اللمع ٢٠ وكشف المحجوب ٢٣٠/١.

(٣) من أهل شيراز من أقواله: «صحبة أهل البدع تورث الأعراض عن الحق» مات ٣٥٢ وغسله أبو زرعة الطبرى انظر ترجمته فى حلية الأولياء ٣٨٤/١٠.

(٤) أبو محمد سهل بن عبد الله شاهد ذا النون المصرى. من أقواله «شكر العلم العمل وشكر العمل زيادة العلم» توفى ٢٨٣.

وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر. قال ذو النون المصرى(١): رأيت امرأة ببعض سواحل الشام، فقلت لها: من أين أقبلت رحمك الله؟ قالت: من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطعما. قلت: وأين تريدين؟ قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. قلت: صفيهم لى، فانشأت تقول:

قـــوم همـــومهم بالله قد علقت
فما لهـــم همم تسمو إلى أحـــد
فمطلب القـــوم مولاهم وسيدهم
يا حســن مطلبهم للواحد الصمد
ما أن تنـــازعهم دنيا ولا شرف
من المطـــاعم واللـــذات والولد
ولا لبس ثيـــاب فائـــق أنـــق
ولا لروح مـــرور حل فى بلد
إلا مســـارعة فى أثـــر منزلة
قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهـــم رهائن غـــدران وأودية
وفى الشـــوامخ تلقاهم مع العدد

(١) أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى كان أبوه نوبيا أسند الحديث توفى ٢٤٥ من أقواله: إياك أن تكون بالمعرفة مدعيا أو تكون بالزهد محترفا أو تكون بالعبادة متعلقا: حلية الأولياء ٢٢١/٩.

وكثيرة هى الأقوال والروايات التى يوردها الصوفية وغيرهم عن نسبة الكلمة إلى الصفاء، وتأكيد هذه النسبة وتقديمها - وإن لم تكن مستقيمة لغويا(١)- على نسبتها إلى الصوف، وممن يهتم بذلك ويطيل الحديث فيه «الهجويرى» فى كتابه كشف المحجوب(٢). ومن الأحاديث التى يوردها فى ذلك «ذهب صفو الدنيا وبقى كدرها(٣)» ويروى شعرا.

إن الصفـــاء صفـــة الصـــديق

إن أردت صـــوفيا على التحقيـــق

أما نسبة الكلمات إلى أهل الصفة(٤)فقد قصد منها فى المقام الأول - على ما يبدو - إتصال الصوفية والتصوف بعصر الرسول

---

(١) لأنها يجب أن تكون صفائى أو صفاوى. ومن الواضح أن الذى أغرى بعض الصوفية بهذه النسبة هو أن الطريق الصوفى أساسه تصفية النفس وتطهيرها من أدران البدن.

(٢) ١ /٢٢٧.

(٣) لم يعثر على سند لهذا الحديث . انظر المرجع السابق والصفحة.

(٤) أهل الصفة كانوا أكثر من أربعمائة صحابى ، لم يكن لهم بالمدينة سكن ولا عشيرة، ولا يرجعون فيها إلى نبع ولا إلى ضرع ولا إلى زراعة أو تجارة لازموا مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتعلمون القرآن ويصومون، ويخرجون فى كل غزوة. روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم فطيب قلوبهم فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة فمن لقينى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفاقى» انظر أهل الصفة فى الإسلام مقال للمؤلف بمجلة الوعى الإسلامى-جمادى الأولى ١٤٠٢ ص٤٥ وانظر: ابن الجوزى: تلبيس إبليس ١٥٧.

والصحابة وتأكيد نشأته بأنها إسلامية محضة. ولا نجد هؤلاء يجهدون أنفسهم كثيرا فى تعليل اللفظة إلى أهل الصفة لأنهم يرون سواء أكانت الكلمة مشتقة من الصوف أم الصفاء فإن الصوف والصفاء من أخص خصائص أهل الصفة. يورد ذلك ويؤكده «الكلاباذى» فبعد أن يورد الآراء وحججها فى نسبة الكلمة إلى الصوف أو الصفاء أو الصف الأول(١) يقول: ثم هذه كلها أحوال أهل الصفة، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا: يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف، لدرجة أن بعضهم يعرق فيه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه المطر(٢)حتى قال عيينة بن حصن للنبى صلى الله عليه وسلم: «أنه ليؤذينى ريح هؤلاء أما يؤذيك ريحهم؟ وقيل أن فيهم نزلت الآية: «فيه رجال يحبون أن يتطهروا(٣)» أى فى مسجد الرسول.

ويضيف الكلاباذى أن هؤلاء القوم قد يسمون بـ غرباء لخروجهم عن أوطانهم، وبالسياحين لكثرة أسفارهم، وبالشكفتية لإيوائهم إلى الكهوف، وبالجوعية لأنهم لا ينالون من الطعام إلا ما يقيم الأود، وبالفقراء لتخليهم عن الأملاك. وكل هذه أحوال أهل الصفة مما يرجح نسبة الكلمة إليهم وصلة القوم بهم(٤).

---

(١) النسبة اللغوية للصف الأول هى صفى.

(٢) التعرف ٣٠.

(٣) التوبة ١٠٨.

(٤) التعرف ٣٠.

والصفة فناء ملحق بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وسبب اشتهارها هو انتساب بعض الصحابة إليها، وقد امتازوا بالزهد والإعراض عن الدنيا، ومما جاء فى القرآن عنهم: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه»(١). وقوله تعالى: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»(٢) وكان قول النبى صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات.

ويرى ابن تيمية أن نسبة التصوف إلى هؤلاء «غلط لأن النسبة إليهم صفى»(٣) بضم الصاد وتشديد الفاء.

وأما نسبة الصوفية إلى شخص يدعى «صوفة» فيورد لنا الطوسى أنه قبل الإسلام خلت مكة فى وقت من الأوقات حتى لم يكن يطوف بالبيت أحد فكان يأتى من بلد بعيد رجل «صوفى» يطوف بالبيت وينصرف، وأن أهل الفلاح والفضل كانوا ينسبون إلى هذا الرجل(٤)، ويورد أبو نعيم ت ٤٣٠هـ «صاحب الحلية» نفس القصة وأن رجلا يدعى «صوفة» هو أول من انفرد بخدمة الله عند بيته الكعبة. ويبدوا أن سلالة هذا الرجل تولوا إجازة الناس للحج

---

(١) الأنعام ٥٢.
(٢) الكهف ٢٨.
(٣) الفتاوى ٦/١١.
(٤) اللمع ٤٢ ، ٤٣.

خدمة البيت فأصبح اسم صوفة علما على من انفرد بخدمة الله(١).
ثم يأتى ابن الجوزى ت ٥٩٧هـ فيقدم لنا القصة وهو بصدد تحليل رائع لمختلف الآراء فى أصل كلمة تصوف. فيرى أن أول من انفرد بالزهد وخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفة، واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفية. وقال إنما سمى الغوث بن مرصوفة لأنه ما كان يعيش لأمه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيط الكعبة ففعلت، فقيل له صوفة ولولده من بعده. وثمة روايات وطرق أخرى لهذه القصة لا تخرج فى مضمونها عما ذكرناه.

وهذه الآراء فى جملتها تمثل أحد موقفين من هذه الكلمة. تمثل الموقف الذى يرى أنها مشتقة. أما الموقف الآخر فيرى أنها ليست مشتقة وإنما هى موضوعة أصلا لهؤلاء القوم، يذهب إلى ذلك الإمام القشيرى ت ٤٦٥هـ فى قوله: «ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس، والظاهر أنه لقب. ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى... وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه(٢)».

وقد انفرد البيرونى(٢)(٤٤٠) من بين الكتاب العرب بقوله أن هناك صلة بين اسم الصوفى والكلمة اليونانية (سوفيا) وأخذ بهذا

---

(١) أبو نعيم : حلية الأولياء ١٧/١ ، ١٨ وانظر : د/النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ط١ ج٢ ص٢٠.
(٢) ابن خلدون : المقدمة ١٠٦٢/٢.
(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ٢٤/١ ،٢٥.

الرأى الأستاذ (جوزيف فون هامر) الذى ذهب إلى أن كلمة صوفى مأخوذة من كلمة «جمنوسوفيست Gymnosophist» ومعناها الحكيم العارى وهو لفظ يونانى أطلقه اليونانيون على بعض حكماء الهنود القدماء الذين اشتهروا بحياة التأمل والعبادة(١).

والحق أن كلمة صوفى قد أصبحت منذ زمن مبكر تعنى الزاهد فى أحكام الدنيا، الراضى بالقليل، النافر من أسباب الزينة ومظاهر الحياة يؤيد ذلك قصة محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم الباهلى عامل خراسان فقد دخل محمد على قتيبة وعليه مدرعة صوف خشنة وربما بالية، فقال له قتيبة ما يدعوك إلى لباس هذه فسكت ولم يحر جوابا، فقال له قتيبة فيما يشبه الغضب أكلمك فلا تجيبنى. فأجاب محمد فى خشوع وهدوء: أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى أو أقول فقرا فأشكو ربى(٢).

وكان محمد بن واسع بإجابته هذه معبرا خير تعبير عن هذا النمط من العباد والزهاد القانعين الذين يرغبون عن زينة الحياة الدنيا.

ولكن ليس معنى أن لبس الصوف علامة القربى من الله أن يكون الجنوح عن لبسه بعدا عن الله وانغماسا فى حب الدنيا فقد ذكر ابن عبد ربه أن القاسم بن محمد كان يلبس الخز وسالم بن عبد الله كان يلبس الصوف ومقعدهما واحد فى مسجد المدينة فلا ينكر بعضهما على بعض شيئا(٣) .ذلك أن التزين فى وقار والتطيب فى

---

(١) أبو العلا عفيفى: التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ٣٤.

(٢) العقد الفريد ٦/٢٢٥.

(٣) السابق ص٢٢٦.

قصد مما يرفع من قدر المرء فى ظل دينه وخلقه ومروءته. وقد جاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال مرة لعائشة : مالى أراك شعثاء مرهاء سلتاء(١) قلت يارســـول الله أولسنا من العرب ؟ قال: بلى : وربما أنسيت العرب الكلمة فيعلمنيها جبريل، وفى حديث آخر قال إياكم والشعث حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها وليدهن بها.

إذن لم يكن لبس الصوف يمانع من اللباس الناعم لمن أراد ولكن القوم استحسنوا أن يجعلوه علامة للتقشف ورمزا للزهد. والمقصود بالصوف الصوف الخشن فإن من بين الألبسة الصوفية وبخاصة فى عصرنا ما يغضى أثمن الحرير لبهائه حياء.

كما أن لبس الصوف ليس دائما علامة على الخشوع والزهد والقرب إلى الله فكثيرا ما كان بعض المنحرفين يتخذون من الصوف سترا يحجب رذائلهم وما زالت هذه الظاهرة قائمة. ذكر صاحب العقد الفريد أن ابن السماك قال لأصحاب الصوف منذرا متهكما والله لئن كان لباسكم وفقا لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ولئن كان مخالفا لقد هلكتم وقال بعضهم:

تصــوف لكــى يقــال له أمين	وما يعنى التـــصوف والأمــانة
ولــم يــرد الإله بــه ولكــن	أراد بــه الطـــريق إلى الخيانة

وليس أدل على ذلك من أن الحسن البصرى الذى روى أنه رأى سبعين بدريا يلبسون الصوف يقول عن أصحاب الأكسية لقد كتموا

---

(١) الشعثاء التى لا تدهن والمرهاء التى لا تكتحل والسلتاء التى لا تختضب.

الكبر فى قلوبهم وأظهروا التواضع فى لباسهم، والله لأحدهم أشد عجبا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفته. وهذا سفيان الثورى الملقب بأمير المؤمنين فى الحديث يقول : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء.

وقد اعترض على لباس الصوف من قبل من ربطوا بينه وبين لباس النساك من النصارى الذين اعتادوا لبس الخشن من الصوف فى الأديرة تقشفا وتعبدا. فقد زار حماد بن سلمة البصرى فرقدا السنجى وعليه ثياب صوف فقال له حماد: ضع عنك نصرانيتك هذه.

ويرى بعض المستشرقين مثل نيكلسون ونولدكه وجيوم أن النساك المسلمين أخذوا لفظ الصوفية اسما لهم ولبسوا الصوف محاكاة لرهبان المسيحيين(١) ولكن يدفع ذلك أن لقب الصوفى كمرادف للعابد الفقير المتقشف ظهر منذ وقت مبكر فى الإسلام فقد أثر عن الحسن البصرى(٢) قوله رأيت صوفيا فى الطواف فاعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى والحسن توفى ١١٠هـ على ما هو معروف وقد مر بنا منذ قليل ما ذكره سفيان النورى عن أبى هاشم الصوفى مما يدل على أن مصطلح التصوف ظهر مبكرا قبل عملية التأثر الثقافى.

---

(١) فى التصوف الإسلامى ٤٨، ٤٩ ترجمة د/ ابو العلا عفيفى .

(٢) أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن الفقيه الزاهد عرف التصوف بأنه التنقية من الدرن والتوقية من البدن للتبقية فى العدن من أقواله: لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف. توفى ١١٠هـ.

هذه جملة ما ذهب إليه الباحثون من الصوفية أو من غيرهم من آراء فى أصل كلمة «صوفى» واشتقاقها أو وضعها وتلقب القوم بها ليس لنا من تعليق عليها إلا أن نقول أن الصوفية ليسوا بدعا فى هذا الاختلاف حول تسميتهم أو مصطلحهم فقد اختلف العلماء أيضا فى أصل كلمة «معتزلة» وتلقيبهم بها. وسبب هذا الاختلاف- على ما نرى - هو أن فلسفة المصطلح أو تحليله عادة ما تنشأ متأخرة عن ظهور المصطلح نفسه فينشأ الاضطراب والخلط فى التعليل والتحليل وجميع ما أورده الباحثون من آراء حول أصل الكلمة واشتقاقها لا يعدو أن تكون احتمالات واجتهادات شخصية ليست يقينية ولا موضوعية وإلا لما نشأ الاختلاف والكلمة بعد ذلك قابلة لكل الوجوه والاختلافات السابقة، فهى تمت لكل وجه بسبب أو صلة، فالصوفية قوم تركوا الدنيا. فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأخوان وساحوا فى البلاد وأجاعوا الأكباد وأعروا الأجساد ولم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسد جوعة. فلخروجهم من الأوطان سموا غرباء ولكثرة أسفارهم سموا سياحين ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية، لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لأن مسه وحسن مظهره، وإنما لبسوا لستر العورة فتحروا الخشن من الشعر والغليظ من الصوف وإن كانت علاقتها ببعضها أوضح وأقرب من علاقتها بالبعض الآخر. وأقرب هذه الوجوه - فى نظرنا كما هو فى نظر معظم الباحثين - هو نسبتها إلى الصوف لاختصاصهم به وشهرتهم بلبسه وصحة النسبة لغويا إليه. ونسبتهم إلى الصوف ليست نسبة إلى ظاهر اللبسة فقط كما يذهب بعض الباحثين وإنما يمكن أن يلاحظ فيها أيضا مجاهدة القوم لنفوسهم لأنه لا يطيق لبس الصوف ويصبر عليه إلا من جاهد نفسه، وعزف بها عن الدنيا ومتعها، ومن هنا كانت النسبة إلى الصوف نسبة روعى فيها ظاهر القوم وباطنهم.

أما النسبة إلى الشخص الذى يدعى صوفة فبعيدة ومرجوحه لأننا نستبعد أن ينسب التصوف أو ينسب الصوفية أنفسهم إلى هذه القبيلة التى ذهبت - على حد تعبير بعض الباحثين(١)- شذر مدر وعفا عليها التاريخ، وتفرقت أيدى سبا.

واختلاف هذه الآراء بعضها عن بعض اختلاف ترجيح لا اختلاف تصويب وتخطئ. كما أنه اختلاف لا طائل تحته - على الرغم من الجهد الذى بذل المؤلفون قديما وحديثا فى دراسته - إلا بمقدار ما يلقى الضوء على بعض جوانب التعريفات التى وضعها كبار الصوفية لا سيما الأوائل منهم للتصوف التى تعتبر دراستها من صميم دراسة التصوف وجوهره. وهو ما سنعالجه فى الصفحات القادمة إن شاء الله.

---

(١) دكتور على سامى النشار فى كتابه نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ٢٢/٢.

تعريف التصوف

تعريف الشئ - كما يقولون - فرع عن تصوره. ولكن تصور التصوف لا يتيح للباحثين- فى نظرنا- وضع تعريف دقيق له، لأن ذلك يحتاج إلى ذوق وتجربة وسلوك ومكابدة ولهذا نجد معظم تعريفات التصوف من الصوفية أنفسهم ومع ذلك فقد اختلفت تعريفاتهم وتعددت لاختلافهم من حيثيات متعددة: مثل اختلافهم من حيث ما يأخذون به أنفسهم من السلوك والعبادات، واختلافهم من حيث الأحوال والمقامات وكذلك اختلافهم فى العطايا والمنح الالهية وفى تأثير سلطان الأسماء الالهية عليهم.

أما اختلافهم فيما يأخذون به أنفسهم من ألوان السلوك والعبادة فذلك أن منهم من يجعل وكده خدمة الناس، ومنهم من يجعل وكده قيام الليل أو صيام النهار أو تلاوة القرآن أو ما إلى ذلك من أنواع القرب والطاعة مع القيام بالواجبات والمفروضات خير قيام. وقد روى عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة. وللجنة أبواب : فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة. ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهـــاد. فقال أبو بكر يا رسول الله. والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال : نعم. وأرجو أن تكون منهم[1].

---

(١) رواه مسلم فى الصحيح عن عبد بن حميد عن عبد الرزاق وأخرجه البخارى من وجه آخر عن الزهرى فى كتاب الصيام باب الريان للصائمين ٢٢٥/١ وكتب المناقب باب مناقب أبى بكر ٢٩١/٢ . انظر البهيقى: البعث والنشور ١٤٨ تحقيق المؤلف.

وأما اختلافهم من حيث أحوالهم ومقاماتهم فذلك أن كل مجاهدة وعبادة ورياضة ينشأ عنها كما يقول الصوفية حال فإن استقر صار مقاما وإلا فهو حال. والمقام عندهم هو درجة أو رتبة يكون فيها العبد بين يدى الله عز وجل بشان ما يقوم فى داخله هو من رياضة ومجاهدة وعبادة وانقطاع إلى الله، أما الحال فهو ما يحل فى القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير. ولذلك قيل أن الحال هى الذكر الخفى. والحال تهجم على القلب كما أنها تزول عنه فجأة كما ذهب الطوسى. أو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اكتساب كالطرب والحزن والقبض والشوق والانزعاج والهيبة....الخ ولهذا فأن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب وصاحب المقام ممكن فى مقامه، وصاحب الحال مترق فى حاله.

وأما اختلافهم فى العطايا والمنح الالهية فذلك أن منهم من يصل إلى الله من أول قدم، ومنهم من يطوى له الطريق طيا، ومنهم من يترك فى ميادين المكابدة والمجاهدة مدة تطول أو تقصر حسب استعداده النفسى وتهيئته للوصول إلى الكمال وقد يترك فى تلك الردهات حتى الممات.

والصوفى الواحد يختلف فى طريق التصوف فى مرحلة منها عن مرحلة أخرى. فهو فى بداية الطريق يوصف بأنه بادئ أو مريد، وبعد ترقيه وصعوده، وتجاوزه العقبات، وخوضه الغمرات، وقطعه المنازل، واجتيازه المراحل يوصف بأنه مراد أو واصل.

وهو فى كل ذلك يختلف باختلاف تأثير سلطان الأسماء الألهية عليه ، فأحيانا يقـــع تحت تأثير اسمه الجبـار أو المنتقم أو

المهمين أو العزيز أو المقتدر فيمتلئ قلبه خشية وهيبة وتذللا وأحيانا تهب عليه نسائم اسمه تعالى الرحيم أو الودود أو الغفور أو البر فيمتلئ قلبه سكينة وطمأنينة. ولذلك يقولون أن الصوفى ابن وقته فهو ينطق فى كل وقت بما عليه الحال فى ذلك الوقت.

فإذا ما عبر الصوفى عن التصوف اختلف تعبيره عنه باختلاف تلك الاعتبارات، وباختلاف الأحوال والواردات التى أفاض الصوفية فى وصفها وتحليلها. كالقبض والبسط، والصحو والسكر، والبقاء والفناء، والخشية بالله والأنس به، إلى غير ذلك من الأحوال. وهو - أى التعبير عن التصوف وتعريفه - من صوفى لصوفى أشد اختلافا.

فتعريفات التصوف «شخصية» إلى أبعد حد وهى أشبه بالمرايا المختلفة التى تنعكس عليها نفوس الصوفية فى لحظات اتصالهم بالله. والمعروف أن هذا الاتصال لا يتم لهم جميعا على نمط واحد أو بطريقة واحدة.

وهذا لا يقلل قيمتها، لأن قيمتها فيها مجتمعة لا متفرقة مادمنا نبحث عن التصوف الإسلامي مطلقا. لا تصوف فلان وفلان . إذ من خلالها جميعا تظهر شخصيته ذلك التصوف، وتبرز صفاته المميزة له. فهى بمثابة الزوايا المختلفة التى ينظر منها الصوفية الإسلاميون إلى حياتهم الروحية أو بمثابة اللبنات المفردة التى يتألف منها البناء. ولهذا لا يوصف تعريف منها بالخطأ وأنما يمكن أن يقال أنه تعريف جزئى(١).

---

(١) يوضح أحد شعراء الصوفية سبب اختلاف الصوفية فى تعريف التصوف فيشبه ذلك بقصة ثلاثة من فاقدى البصر طلب منهم أن يصفوا الفيل-

-

وقد أوردت كتب التصوف جملة كبيرة من هذه التعريفات لدرجة جعلت السهروردى صاحب كتاب عوارف المعارف يقول: أن للتصوف أكثر من ألف تعريف. كما نجد أبا نعيم الاصفهانى يذكر فى كتابه حلية الأولياء تعريفا أو أكثر لكل صوفى ترجم له وقد ترجم فيه لمئات الصوفية وقام بمثل ذلك الأمام القشيرى فى رسالته التى ترجم فيها للصوفية ويفرد الطوسى فى كتابه اللمع أكثر من باب يتحدث فيه عن تعريف التصوف. وينقل عن مشايخ التصوف كثيرا من تلك التعريفات. كما نجد الكلاباذى وهو من أسبق من كتبوا عن التصوف يورد الكثير من تلك التعريفات. وقد اعترف الصوفية بتلك الفروق التى تقع لهم فى تعريفاتهم وأنها تابعة أو نابعة من اختلاف طرقهم التى يسلكونها إلى الله تعالى والتى قالوا عنها أنها كثيرة بعدد نجوم السماء أو بعدد أنفس السالكين.

والناظر فى تعريفات التصرف والمتأمل فيها يمكن أن يصنفها إلى مجموعات. مجموعة منها تدور حول النفس ومجموعة تدور حول المعرفة ومجموعة تدور حول الزهد. الزهد فى الدنيا بل وربما الزهد فى الآخرة.

وقد جعلوا النفس محورا لتعريفاتهم لاعتقادهم أنها أهم شئ فى الإنسان وأنها مصدر الشر فيه بعد الشيطان أو قبله.

فبعد أن تحسس كل واحد منهم عضوا من أعضائه، قال الذى لمس أذن الفيل: أن الفيل شئ يشبه البساط، وقال الذى لمس خرطومه: أنه شئ يشبه الأنبوبة، أما الذى لمس رجله فقال: أنه شئ يشبه الاسطوانة فما قاله كل واحد من هؤلاء صحيح فى ذاته وأن كان لا يحيط بالحقيقة كلها.

ولذلك يتناولون النفس من جانبين: جانب تخليها عن الرذائل وجانب تحليها بالفضائل. وعندما يشيرون إلى تخلية النفس من الرذائل يدعون إلى تنقيتها من العيوب والشوائب، بقهرها ومجاهدتها وأخماد شهواتها وأذلال كبريائهما وغرورها ومنعها من حضوظها.

يقول التسترى: (٢٨٣هـ) الصوفى من يرى دمه هدرا وملكه مباحا، ويقول أيضا: الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر. ويقول: التصوف قلة الطعام، والسكون إلى الله والفرار من النـــاس. ويقول: أبو الحسين النورى(١) (٢٩٥هـ): الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشر، وآفات النفوس، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا فى الصف الأول والدرجة العليا مع الحق. ويقول: الصوفى من لا يتعلق به شئ ولا يتعلق بشئ. وذكر كذلك: أن التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها.

أما الجنيد(٢)فقال: التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به. وقال: التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وأخماد صفات البشرية ومجانبة نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية... وذهب أبو بكر الشبلى(٢) (٣٣٤هـ) إلى أن الصوفى منقطع عن الخلق متصـل بالحـق

---

(١) بغدادى المولد والمنشأ، خرسانى الأصل، لم يكن فى وقته احسن طريقة منه، صحب سريا السقطى وتوفى ٢٩٥ طبقات الصوفية ٣٨.

(٢) أبو القاسم الجنيد كان أبوه يبيع الزجاج فلذلك كان يقال له القواريرى نشأ بالعراق وصحب السرى السقطى والحارث المحاسبى توفى٢٩٧.

(٢) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى. خرسانى الأصل بغدادى النشأة صحب الجنيد من أقواله: التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك مات ٣٣٤.

كقوله تعالى: «واصطنعتك لنفسى(١)» ويرى أبو عثمان المغربى(٢)أن التصوف قطع العلائق ورفض الخلائق واتصال الحقائق. أما سعيد بن أبى الخير فيرى أن التصوف هو أن تتخلى عن كل ما فى دماغك وتجود بكل مافى يدك وألا تجزع من شئ أصابك (٢).

فهذه التعريفات تشير فى مجموعها إلى محاربة النفس وتركها حظوظها ويجمع ذلك كله قول أحدهم التصوف: هو ذبح النفس بسيوف المخالفة فالنفس عند الصوفية عدو لا يصح التهاون لحظة فى محاربته وتجب مقاومته حتى الذبح.

وقد أشار الصوفية إلى بعض الوسائل التى تساعد الصوفى على انتصاره على نفسه وهيمنته عليها مثل ضبط الحواس ومراعاة الأنفاس. فمراعاة الأوقات وشغلها بما يجب أن تشغل به مما يعين المرء على سيطرته على نفسه. وربما يستعين الصوفية على ذلك بالعزلة عن الناس فيمن تكون العزلة خيرا له على أن من الصوفية من يكون بين الناس فى عزلة عن الناس.

وهذه التعريفات وأمثالها تبين لنا أن التصوف عمل وسلوك قبل أن يكون أذكارا وأورادا. وأن من أراد أن يسلك طريقه من رجاله فسوف يتجشم الكثير ويركب الصعب العسير لأن التصوف كما يعبر عنه أحد الصوفية «عنوة لا صلح فيها».

---

(١) سورة طه ٤١.

(٢) هو أبو سعيد بن سلام من ناحية قيروان، أقام بالحرم مدة، وكان شيخه ورد نيسابور ومات بها ٢٧٢هـ من أقواله: «الأعتكاف حفظ الجوارح تحت الأوامر .

(٢) انظر د/ فيصل عون: التصوف الاسلامى١٢.

وفى هذا أيضا ما يرد على الاتهام الذى وجه إلى التصوف من أنه طريقة مبتدعة. فرسم الصوفية فى تعريفاتهم طريق التصوف وبينوا أنه طريق الإسلام وطريق الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون طريق التصوف وطريق الصوفية وفى ذلك يقول التسترى عن التصوف أنه يرجع إلى أصول ثلاثة: أكل الحلال ، والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فى الأخلاق والأفعال ، وإخلاص النية فى جميع الأفعال.

أما الجانب الأخر من هذه التعريفات وهو الذى يشير إلى تحلية النفس بالفضائل الأخلاقية بعد خروجها أو تخليتها من الرذائل فيمثله قول محمد بن على القصاب شيخ الجنيد وقد سئل عن التصوف ما هو؟ فقال: أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام[١]. وقول أبى محمدالجريرى[٢] عنه أنه الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى[٣]. وقول ذى النون المصرى الصوفية قوم آثروا الله تعالى على كل شئ فآثرهم الله على كل شئ. وقال بعضهم الصوفى من أذا أستقبله حالان أو خلقان حسنان كان مع الحسن والأعلى. وذهب أبو بشر الحافى (-٢٠٧) إلى أن الصوفى من صفا قلبه لله وقال أبو تراب النخشبى[٤] (٢٤٥هـ)

---

(١) الطوسى : اللمع ٤٥.

(٢) كان من كبار اصحاب الجنيد أقعد بعده فى مجلسه لتمام حاله وصحة علمه توفى ٣١١ من أقواله: أدل الأشياء على الله تعالى ثلاثة: ملكه الظاهر ثم تدبيره فى ملكه ثم كلامه الذى يستوفى كل شئ انظر طبقات الصوفية ٢٦٢.

(٣) الطوسى : اللمع ٤٥.

(٤) عسكر بن حصين صحب حاتما الأصم البلخى وهو من جلة مشايخ خراسان من أقواله: الفقير قوته ما وجد ولباسه ماستر ومسكنه حيث نزل توفى وقيل نهشته السباع ٢٤٥.

« الصوفى لا يكدره شئ ويصـفو به كل شئ » وقال أبو بكر الكتانى(١): «التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء» فهذه التعريفات وأمثالها تشير إلى تحلية النفس بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة كما أن كثيرا من التعريفات قد تضمن الجانبين وذلك واضح في بعض التعريفات التى أوردناها فى جانب التخلية. وتعتبر الأخلاق أول ثمرة من ثمار التصوف وأول علامة من علامات صدقه وصحته ولهذا جعلها بعضهم هى كل التصوف وجماعه. يقول أبو إسماعيل الأنصارى الهروى: (٤٨١هـ) وأجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق ومن ثم تجد الدعوة إلى الأخلاق مبثوثة فى ثنايا التصوف وفى كل أبوابه فلا يكادون يتركون بابا أو حديثا فيه دون دعوة إلى الأخلاق والاهتمام بها. ومقامات الصوفية ليست سوى جماع التربية الخلقية عندهم فالزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والمحبة ما هى إلا قيم خلقية يحاول الصوفية أن يصلوا إليها وأن يتحلوا بها.

كما ينبغى الإشارة إلى أن هذه القيم الخلقية ليست فضائل نظرية تأملية فحسب وأنما هى مجاهدات دائمة ورياضات روحية متصلة ومعايشة قائمة وسلوك فعلى يتحلى به الصوفية أن مع أبناء طائفتهم أو مع غيرهم من أبناء جنسهم. لا بل أن خلق الصوفية يتحلون به مع كل الكائنات والمخلوقات.

---

(١) أبو بكر محمد بن على الكتانى صحب الجنيد والنورى وأقام بمكة مجاورا بها إلى ان مات ٣٢٢ قال عنه محمد بن المرتعش : الكتانى سراج الحرم من أقواله إذا سألت التوفيق فأبدا بالعمل انظر طبقات الصوفية٩١.

يقول أبو سعيد الخراز(١) أثناء حديثه عن أخلاق الصوفية كالورع والزهد والصبر والاخلاص والصدق ونحوها فذاك كله معهم ساكن فى طبعهم،ومخفى فى سرائرهم لايحسنون غيره لأنه غذاؤهم وعادتهم،لأنهم فرضواذلك على أنفسهم فرضا وعملوا فيه حتى ألفوه.

أما التعريقات التى تتخذ من المعرفة محورا فتجدها تركز على المعرفة القلبية الالهامية لا المعرفة الكسبية الاستنباطية. والمعرفة القلبية هى المعرفة اللدنية التى جاءت فى قوله تعالى: «فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما»(٢).

وهذه المعرفة لديهم أفضل وأصدق من الكسبية التى يطلقون عليها علم الورق أو علم القيل والقال، ويروون عن الحسن عن رسول الله صلى الله علايه وسلم أنه قال : العلم علمان : فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع (٢)وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب فأذا نسى ما حفظه صار جاهلا، أنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس. ومن نماذج تلك التعريفات قول أبى سعيد الخراز: الصوفى من صفى ربه قلبه فامتلأ قلبه نوزا، ومن حل فى عين اللذة بذكر [illegible] قول معروف الكرخى(٤) (٢٠٠هـ) التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق.

---

(١) اسمه أحمد بن عيسى . من أهل بغداد صحب ذا النون قيل إنه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء مات ٢٧٩.

(٢) الكهف ٦٥.

(٣) الأحياء ٢/٢٤.

(٤) أبو محفوظ معروفُ بن فيروز كان أستاذ سري السقطي وقبره ببغداد ظاهر أسلم على يد على بن موسى الرضا وكان بعد إسلامه يحجبه فازدحم الشيعة يوما على باب على بن موسى فكسروا أضلع معروف. مات ودفن ببغداد ٢٠٠هـ.

وقول ذى النون المصرى: الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وأن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق، وقول التسترى: الصوفى من صفا من الكدر وأمتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر إلى غير ذلك من التعريفات .

فهذه التعريفات وأمثالها تبرز جانبا هاما من جوانب التصوف وهو الالهام الذى يمثل مع الكرامة ميراث الصوفية من وحى الأنبياء ومعجزاتهم بعد تمسكهم بشريعتهم وشدة أقتدائهم. وقد أطال الصوفية الحديث عن الألهام وبينوا منزلته من الوحى والشريعة وأنه تابع لهما وأثر وثمرة من ثمار التمسك بهما.

أما المجموعة الثالثة من التعريفات وهى التى تشير إلى الزهد فى الدنيا بل والزهد فى الآخرة لأن الصوفى لا يشغل نفسه بغير الذات الالهية فقد جاءت توضح أن أول مرحلة من مراحل التصوف لابد أن تبدأ بالزهد. فالصوفى يائس مما فى أيدى الخلائق لا عن عجز منه أو عدم استطاعة بل عن طريق الزهد. ومن أمثلة تلك التعريفات قول سمنون المحب[١] «التصوف ألا تملك شيئا ولا يملكك شئ» وقول أبو محمد بن رويم[٢]. التصوف التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالذل والايثار وترك التعرض والأختيار، وقول الحسن النورى : الصوفى هو الذى لا يملك ولا يملك، وقول الشبلى : الصوفى لا يرى فى الدارين مع الله غير الله.

وقـــد تأتى التعريفات مشـــيرة إلى بعض مقـــامات أو حالات

---

(١) سمنون بن حمزة الخواص.من أهل البصر سكن بغداد وتوفى بها.٢٩٠.

(٢) رويم بن أحمد بن يزيد من أهل بغداد كان فقيها . من أقواله: لا يزال الصوفية بخير ماتنافروا فإن اصطلحوا هلكوا. توفى سنه ٣٠٢ هـ.

الصوفية مثل قول المرتعش(١) (٣٢٨هـ) الصوفى لا تسبق همته خطوته البتة أى يكون كله حاضرا فيكون الجسد حيث يكون القلب ويكون القلب حيث يكون الجسد ويكون القول حيث تكون القدم ويكون القدم حيث يكون القول. وقول أبى بكر الشبلى: التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير. وقول الجنيد: التصوف نعت أقيم العبد فيه. قيل نعت للعبد؟ أم نعت للحق؟ فقال: نعت الحق حقيقة ونعت العبد رسما(٢).

على أن بعض التعريفات قد تتناول أكثر من جانب أو تدل على أكثر من معنى. وقد يفهم البعض من هذه التعريفات غير ما فهمنا، وقد يرونها تدل على غير ما ذكرنا، وخاصة أن كلام الصوفية إلى الرمز والإشارة أقرب منه إلى التصريح والعبارة.

وقد يأتى التعريف بشئ من التفصيل مثل قول الجنيد: التصوف مبنى على ثمانى خصال: السخاء والرضا والصبر والإشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر. ويرى بعض الصوفية أن الجنيد يشير فى هذا التعريف إلى شدة إقتداء الصوفية بثمانية من الأنبياء فيقتدون فى السخاء بإبراهيم لأنه بلغ به أن ضحى بولده وفى الرضا بإسحاق لأنه رضى بأمر الله، وفى الصبر بأيوب لأنه صبر فى بلائه بالدود، وفى الإشارة بزكريا لأنه الله تعالى قال: «إذ نادى ربه نداء خفيا»(٣)، وفى الغربة بيحيى لأنه كان غريبا فى وطنه وغريبا عن أهله بين أهله، وفى السياحة بعيسى لأنه كان فى سياحته من التجرد بحيث لم يكن يملك إلا وعاء ومشطا وحين رأى شخصا

---

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش النيسابورى صحب أبا حفص الحداد ولقى الجنيد وصحبه سئل بماذا ينال العبد حب الله تعالى فقال ببغض ما أبغض الله وهى الدنيا والنفس توفى ٣٢٨ هـ.

(٢) الهجويرى : كشف المحجوب ٢٢٢.　　(٣) مريم ٣.

يشرب بحفنتيه ألقى الوعاء، وعندما رآه يخلل شعره بأصابعه رمى المشط، وفى لبس الصوف بموسى لأن ملابسه كلها كانت صوفا. وفى الفقر بمحمد لأن الله عز وجل بعث إليه بمفاتيح كنوز الأرض وقال له: لا تشق على نفسك، وهيئ لنفسك من هذه الكنوز متاعا وأسبابا. فقال: لا أريد، ياالهى أشبعنى يوما وأجعنى يومين(١).

وهكذا تأتى تعريفات التصوف مختلفة ومتداخلة لا يمكن صوغها فى قالب واحد أو عبارة واحدة، لاختلافها من صوفى لآخر، واختلافها عند الصوفى الواحد من وقت لآخر لأن الصوفى - كما يقولون - ابن وقته فهو ينطلق فى كل وقت بما يغلب عليه الحال فى ذلك الوقت.

نعم قد يقال أن الغالب على تصوف ذى النون المصرى الكلام فى المعرفة، وفى تصوف أبى يزيد البسطامى(٢) الكلام فى الفناء، وفى تصوف رابعة العدوية(٣) الكلام فى المحبة، وفى تصوف شقيق البلخى(٤) الكلام فى التوكل، وفى تصوف الجنيد الكلام فى التوحيد.

---

(١) روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: عرض على الدنيا فأبيتها وما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: خيرت بين أن أكون نبيا ملكا أو أكون نبيا عبدا فأشار إلى جبريل عليه السلام أن تواضع فقلت بل نبيا عبدا أشبع يوما وأجوع يوما.

(٢) طيفور بن عيس بن سروشان وكان هذا الأخير مجوسيا فأسلم وهو من أهل بسطام مات ٢٦١ على أصح الأقوال. من أقواله: لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.

(٣) رابعة بنت إسماعيل العدوية مولاة آل عتيك البصرية. من أقوالها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم توفيت بالقدس ١٨٠أو ١٣٥ وقبرها معروف هناك.

(٤) من مشاهير خراسان أستاذه حاتم الأصم،صحب إبراهيم بن أدهم من أقواله جعل الله أهل طاعته أحياء فى مماتهم وأهل المعاصى أموات فى حياتهم.

ولكن ليس معنى هنا أن تصوف كل واحد من هؤلاء كان منحصرا فى المعرفة أو الفناء أو المحبة أو التوكل أو التوحيد.

وقد حاول بعض الباحثين صياغة تعريف واحد للتصوف تلتقى فيه كل تعريفات الصوفية فقال إن التصوف فى أساسه وجوهره فقد ووجود. فقد لانية العبد، ووجود له بالله أو فى الله. أى فناء عن الذات الشخصية وأوصافها وآثارها وبقاء فى الله.

وأيا ما يكن فإن معظم تعريفات التصوف تدور حول العبادة والأخلاق والمعرفة حتى قالوا أن التصوف مثلث زواياه أو أضلاعه العبادة والأخلاق والمعرفة.

وينصب على النفس وصفاتها ولا يتوقف كثيرا أمام المظهر واللباس، لأن ربط قيمة عمل الإنسان وحقيقة حاله بالمظهر أمر لا يأبه به الصالحون سواء أكانوا من الصوفية أو من غيرهم. يروى القشيرى فى رسالته أن بعض الصوفية دخل على أحد المتنعمين فسأله عن لبس المرقعة، فقال إن كنت لبستها من الفقر شكوت ربى، وإن قلت لبستها من إختيار فقد زكيت نفسى، ولكن عبد ذليل رب جليل يلبس ما يريد.

وربما يفرق بعضهم بين الصوفى والمتصوف فيرى أن المتصوف هو المبتدئ والصوفى المنتهى، والمتصوف هو الشارع فى طريق الوصول والصوفى من قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل والمتصوف متحمل والصوفى محمول. حمل المتصوف كل ثقيل وخفيف.

وباختصار فإن رسالة القشيرى وحلية الأولياء وتذكرة الأولياء وغيرها من كتب التصوف مليئة بمئات الصيغ التى تعرف بالصوفى

والتصوف لكنها جميعا على اختلاف وسائل التعبير وتشعب أسباب التناول تنتمى إلى مقصد واحد هو العزوف عن لذات الحياة ونشدان صفاء النفس والسعى إلى الحب الالهى فى نطاق السمو الروحى والمجاهدة النفسية.

وبعض التعريفات قديمها وحديثها لا تخلو من جنوح إلى الغموض(١) أحيانا وتلاعب بالألفاظ يطمس وضوح المعانى أحيانا أخرى مع أن التصوف لا يحتاج إلى كل هذا الغموض إذا عرفناه بأنه مرتبة الإحسان فى الدين التى تأتى بعد مرتبة الإسلام والإيمان.

والتعبير عن التصوف بأقوال مستغلقة الفهم هى التى دفعت بالغربيين إلى تسميته بكلمة mysticism ومعناها الغموض وتسمية الصوفى mystic ومعناها الغامض الخفى.

على أن هذه التعريفات إنما هى تعريفات للتصوف من حيث هو ظاهرة روحية خاصة، أو حياة يحياها الصوفى، وللصوفى من حيث هو إنسان يحيا هذه الحياة، لا للتجربة الصوفية نفسها لأن هذه الأخيرة تستعصى على الوصف وتعلوّ على التعبير، وغاية ما صرحوا به حول تلك التجربة أن ما أدركوه أو شاهدوه أو كشف لهم من الأحوال إنما هو أمور ذوقية أو وجدانية لا تفى اللغة بالتعبير عنها أو ترجمتها بالألفاظ.

وقد كان لهذه التعريفات أثرها فى تعريف الناس بالتصوف وإطلاعهم عليه وتحديد موقفهم منه وبيان نشأته وتحديد مصدره.

---

(١) إسلام بلا مذاهب ٤٩٤.

المبحث الثانى
قضايا وموضوعات

أولا : العقائد والعبادات

يمثل التصوف من الدين درجة الإحسان ويمثل الصوفية من المسلمين طائفة من الأولياء هنا هو الأصل والقاعدة أو هذا ما ينبغى أن يكون ولكن هذا التمثيل قد يضطرب إن بالنسبة للتصوف أو الصوفية. وسنتناول هنا بيان ذلك مع التركيز على اظهار بعض ما اختل من هذا الأصل وتلك القاعدة لا ما اتفق معها لأنه كثير لا يمكن حصره.

١ - العقـــائد

الألوهية والنبوة والقدر من أهم العقائد التى تناولها الصوفية وكانت لهم فيها أقوال متميزة.

(أ) الألوهية :

ورد النهى عن التفكير فى الذات الالهية، وقد علل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله لأنكم «لا تقدرون الله حق قدره» ولكن بعض الصوفية قد تكلموا فى ذلك، فمنهم من قال بالفناء ومنهم من قال بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود.

والفناء عندهم أقسام أعلاها الفناء عن وجود السوى ودونه الفناء عن شهود السوى، ودون هذين الفناء عن عبادة السوى.

والفناء عن وجود السوى وهو فناء القائلين بوحدة الوجود يستلزم إنكار الربوبية لأن مؤداه كما يقـول ابن القيم(١) ألا يشـــهد

---

(١) شمس الدين ابن قيم الجوزية ولد بدمشق٦٩١هـ وتوفى فيها ٧٥١هـ.

الواحد منهم ربا وعبدا، وخالقا ومخلوقا، وآمرا ومأمورا، وطاعة ومعصية، بل الأمر كله واحد(٢).

والسالك لا يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد تدرج فى ثلاث مراتب:

يشهد فى المرتبة الأولى الطاعة والمعصية وفى المرتبة الثانية يشهد الأفعال كلها طاعة وفى المرتبة الثالثة لا يشهد لا طاعة ولا معصية، إذ الطاعة والمعصية إنما تكون من غير لغير وما ثم غير.

فإذا تحقق بشهود ذلك وفنى فيه فقد فنى عن وجود السوى وهو غاية التحقيق عندهم، من لم يصل إليه فهو محجوب.

يقول قائلهم :

وماأنت غيرالكون بل أنت عينه ... ويفهم هذا السـر من هـو ذائق

ويقول الآخر :

ما الأمـر ألا نسـق واحـد ... ما فيـه من مـدح ولا ذم
وإنما العـادة قـد خصصـت ... والطبـع والشـارع بالحـكم

ومنهم من قال بالحلول: وأن روح الله تعالى حلت فى بعض الأجسام التى اصطفاها فانقلبت هذه الأجسام البشرية إلى آلهة تسير على الأرض وتعيش بين الناس!!

وكان الحلاج من أشهر من اعتقد ذلك، ومما قاله فيه: «من هذب نفسه فى الطاعة... ارتقى إلى مقام المؤمنين، ثم لا يزال يصفو ويرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية فإذا لم

---

(٢)طريق الهجرتين وباب السعادتين٢٢٢لابن القيم دار الكتاب العربى لبنان.

يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الآله الذى حل فى عيسى ابن مريم»(١) وجاء فى رسالته لبعض أتباعه: من الهو؟ هو رب الأرباب المتصور فى كل صورة إلى عبده فلان.. كما يقول عن الله: المتصور فى كل زمان بصورة وفى زماننا بصورة الحسين ابن منصور(٢).

ويشارك الحلاج آخرون فى هذا المعتقد مثل البسطامى الذى قال يشرح هذه العقيدة: رفع بى مرة حتى قمت بين يديه فقال لى يا أبا يزيد أن خلقى يحبون أن يروك. قلت يا عزيزى: وأنا أحب أن يرونى. فقال يا أبا يزيد أنى أريد أن أريكهم. فقلت يا عزيزى: إن كانوا يحبون أن يرونى وأنت تريد ذلك وأنا لا أقدر على مخالفتك قربنى بوحدانيتك والبسنى ربانيتك وارفعنى إلى أحديتك حتى إذا رآنى خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك ففعل بى ذلك(٣).

بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول: لأن ترانى مرة خير من أن ترى ربك ألف مرة(٤). ويقول عن نفسه: «إنى أنا الله لا اله إلا أنا فاعبدون» فقال الناس جن أبو اليزيد وتركوه.

ومنهم من قال بوحدة الوجود : التى يصـورها بعضـهم بأن الله روح والعالم جسم لذلك الروح ويصـورها آخرون بأن جميـع

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ١٠ ص ٢٥٤.

(٢) ابن الجوزى: تلبيس أبليس ٢٤٥.

(٣) الإنسان الكامل ١٠٨.

(٤) لطائف المنن والأخلاق ١/١٢٥ وانظر ترجمة المناوى لأبى يزيد البسطامى.

الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله(١). ويستشهدون على ذلك بما يروونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم: رأيت ربى فى صورة شاب أمرد(٢)، وقوله خلق الله آدم على صورة الرحمن(٣).

ويذهبون فى هذه العقيدة إلى أن الحق المنزه عن الأكوان هو بعينه الخلق المشبه، وإلى أن الذى ظهر بصورة كبش فى صورة إسحاق هو الذى ظهر بصورة إنسان(٤).

ويذهب ابن عربى إلى أن الله تعالى يكون فى المرأة عندما يتصل بها زوجها، ويعلل بذلك حب الرسول صلى الله عليه وسلم للنساء يقول: «ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة... فلم تكن فى صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها ولذلك أمر بالاغتسال منه.. فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد بأن يلتذ بغيره.. فشهوده للحق فى المرأة أتم وأكمل... فلهذا أحب صلى الله عليه وسلم النساء لكمال شهود الحق منهن إذ لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا»(٥).

---

(١) عوارف المعارف على هامش الأحياء٢/٧.

(٢) حديث موضوع. انظر أسنى المطالب١١٠.

(٣) للحديث تفسير آخر غير تفسير الصوفية أى على صفة الرحمن من العلم والحياة والسمع والبصر وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شئ: انظر شرح الجامع الصغير ٢/٢٢٠.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين ١/٦٧٩ تأمل «كبش فى صورة إسحاق».

(٥) نصوص الحكم شرح القاشانى فى ٤٣٨ وانظر مدارج السالكين ٢/٤٦٦.

ومن شعره :

الرب حـــق والعبـــد حـــق يا ليت شـــعرى مـــن المكلف؟
إن قلت عبـــد فذاك حـــق أو قلت رب أنـــى يكلـــف؟

وللتسترى :

أنا المحـــب والحبيـــــب ما ثـــم ثانـــى

وتحتل عقيدة وحدة الوجود من التصوف مساحة كبيرة يشار فيها أكثر ما يشار إلى ابن عربى وابن الفارض.

ويترتب عليها عندهم أن كفر الكافر وخطيئة الفاجر عين إيمان المؤمن، وإن دين الخليل هو دين أبيه آزر، وإيمان موسى عين كفر فرعون، ووثنية أبى جهل عين توحيد محمد، وإبليس أعظم معرفة من جبريل، ويقولون: القرآن كله شرك وإنما التوحيد فى كلامنا(١).

وهذا يؤدى إلى القول بوحدة الأديان التى دان بها بعضهم والتى يقول الحلاج فيها:

ألا أبلـــغ أحبـــائى بأنـــى ركبت البحر وانكسر الســـفينة
على دين الصليب يكون موتى لا البطحا أريد ولا المدينـــة(٢)

ومن عجب أنك ترى ذلك وترى إلى جانبه كلاما فى العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص وكأن لهؤلاء عقيدتين: عقيدة يبدونها لغيرهم فى عامة حياتهم وهى العقيدة التى جاءت بهـــا الأنبياء والتى

(١) إبراهيم بسيونى: نشأة التصوف الإسلامى ١٨٧.
(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ١٤٨/١.

يرون أن الأنبياء فيها ضيقوا الطريق على الناس. وبعدوا عليهم المقصود، والأمر وراء ما جاءوا به ودعوا إليه(١)، وعقيدة خاصة بهم فى محيط دائرتهم ومؤلفاتهم وهى التى أدت بقائلهم أن يقول: «ما فى الجبة إلا الله» وجعلت ابن تيمية يقول عن أصحابها: العامة يعبدون الله وهؤلاء يعبدون أنفسهم(٢).

أما القرآن الكريم فيقول فى عقيدة الالوهية «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»(٣) ويقول: «قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين»(٤) ويقول: «هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم»(٥).

وعشرات بل ومئات من الآيات والأحاديث:

حقا: ما قدروا الله حق قدره !!

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٤٦.
(٢) السابق ١/٢٨٥.
(٣) سورة الصمد.
(٤) سورة الكافرون.
(٥) سورة الحشر ٢٢-٢٤.

(ب) النبـــوة :

تحتل عقيدة النبوة من التصوف مكانا بارزا وقد شاب أقوال بعضهم فيها خطأ واضطراب مثل مساواة بعضهم بالأنبياء واعتقاد أن لهم ما للأنبياء من الوحى والمعجزات أو اعتقادهم أن الولاية أفضل من النبوة وأن:

مقـــام النبـــوة فى برزخ فويق الرســـول ودون الولـــى

وأن المعدن الذى يأخذ منه الولى فوق المعدن الذى يأخذ منه النبى، فالولى يأخذ من الله مباشرة بدون واسطة أما النبى فيأخذ من الله بواسطة الملك .

وإن الوحى لم ينقطع بعد محمد صلى الله عليه وسلم وإنما ينزل عليهم كما كان ينزل على الأنبياء من قبل.

والنبوة نفسها لم تنقطع بل باقية مستمرة فيهم يروى عن أحدهم أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة واسعا فقال لا نبى بعدى، وإن كان يتلطف بعضهم فيرى إن النبوة التى انقطعت هى نبوة التشريع أما نبوة الولاية فباقية ومستمرة فيهم ونبوة الولاية أفضل من نبوة التشريع، والولاية أفضل من كل من النبوة والرسالة لأن الولاية سر بين النبى وربه والنبوة سر بين النبى وجبريل والرسالة سر بين النبى وأمته والسر الذى بين النبى وبين ربه أفضل من السر الذى بينه وبين الملائكة أو بينه وبين البشر. ومن ثم يقول البسطامى تالله إن لوائى أعظم من لواء محمد.(١)

ويعتقدون أن للأولياء خاتما كما أن للأنبياء خاتما وخاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء لأنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه

---

(١) لطائف المنن والأخلاق ١/١٢٥، ١٢٦.

الملك الذى يوحى به إلى الرسول يقول ابن عربى: «وفينا من يأخذ من الله فيكون خليفة عند الله لعين ذلك الحكم»(١) فبينما يأخذ خاتم الأنبياء من الله بواسطة يأخذ خاتم الأولياء منه مباشرة.

وخاتم الأولياء يمثل لبنة من ذهب. بينما يمثل خاتم الأولياء لبنة من فضة فيما ذهب إليه ابن عربى وهو بصدد حديثه عما روى عنه صلى الله عليه وسلم فى قوله: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا إلا موضع لبنة فأخذ الناس يتعجبون ويقولون لولا هذه اللبنة فأنا اللبنة. يقول ابن عربى غير أن رسول الله لا يراها لبنة واحدة أما خاتم الأولياء فيراها لبنتين: لبنة من فضة وأخرى من ذهب ولبنة الفضة هو خاتم الأنبياء بينما لبنة الذهب هو خاتم الأولياء»(٢)!!

ومعنى هذا أن دين الله لم يكتمل إلا على يد خاتم الأولياء.

ويسفه ابن تيمية هذا المعتقد ويذكر أنه لم يسمع من المشايخ المتقدمين من تكلم بخاتم الأولياء، وأنه لفظ باطل لا أصل له أول من ذكره محمد بن الحكيم الترمذى وقد انتحلته طائفة كل منهم يدعى أنه خاتم الأولياء كابن حمويه وابن عربى. الذى يدعى أن خاتم الأنبياء يأخذ من خاتم الأولياء فخالف الشرع والعقل مع مخالفته جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه كما يقال عمن قال فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا دين(٣).

---

(١) فصوص الحكم ٦٢/١ .
(٢) انظر ختم الولاية للحكيم الترمذى.
(٣) الفتاوى ٢٢٢/١١.

ويحدد ابن تيمية خاتم الأولياء - على فرض التسليم بالمصطلح - بأنه آخر مؤمن تقى يكون فى الناس، وليس ذلك بخير الأولياء ولا أفضلهم بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق ثم عمر اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل منهما(١).

أما القرآن الكريم فيقدر الأنبياء حق قدرهم فيما يحدثنا به عنهم فى قوله تعالى: «وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار»(٢) وقوله تعالى: «الله أعلم حيث يجعل رسالته»(٣)، وقوله : «الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين»(٤) وقوله صلى الله عليه وسلم: الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق. وقوله أيضا: إن الله أصطفى من ولد آدم إبراهيم وإسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم. وفى رواية فأنا خيار من خيار من خيار. وعشرات بل ومئات من الآيات والأحاديث.

(جـ) القــدر :

يقول الشيخ عبد القادر الكيلانى(١): الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لى فيه روزنة فنازعت أقــدار

---

(١) السابق ٤٤٤.

(٢) سورة ص ٤٧.

(٣) الأنعام ١٢٤.

(٤) الشعراء ٢١٩.

(٥) عبد القادر بن موسى الجيلانى أو الكيلانى أو الجيلى مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين ولد فى جيلان وانتقل إلى بغداد شابا سنة ٤٨٨ وتصدر للأفتاء فى بغداد سنة ٥٢٨ وتوفى بها من أهم كتبه: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الربانى وفتوح الغيب، والفيوضات الربانية.

الحق بالحق. والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون مستسلما مع القدر(١).

ويعلق ابن تيمية على هذا الكلام فيقول: والذى ذكره الشيخ رحمه الله هو الذى أمر به الله ورسوله(٢).

فلا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض.

فقد أمر الله أن ندفع السيئة وهى من قدره بالحسنة وهى قدره، وكذا الجوع من قدره أمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره، ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بالأكل حتى مات مات عاصيا. وكذا البرد والحر والعطش كلها من أقداره وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدفع من قدره كما يقول ابن القيم(٣).

وقد أفصح النبى صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى كل الإفصاح عندما سئل: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى نتقى بها هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال ه من قدر الله. وفى قوله صلى الله عليه وسلم: إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض.

والقدر غيب غير أن من شيوخ الصوفية من يزعم أنه مطلع عليه وانهم شهدوا فى مقام الفناء أن كل ما أراد الله كونه فهو محبوب وأن الأفعال سواء أكانت معاصى أو طاعات فهى محبوبة لله.

---

(١) مدارج السالكين ٢٢١/١.
(٢) الفتاوى ١٥٨/١٠.
(٣) المدارج ٢٢١/١.

وأنه إذا كانت المحبة تقضى موافقة المحبوب فيما يحبه فهم يحبون كل ما أراد الله كونه. يحبون الكفر كما يحبون الإيمان ويحبون المعصية حبهم للطاعة فالكل قضاء الله.

يقول أحدهم: ذنبة أذنبها أحب إلى من عبادة الملائكة قيل: ولم؟ قال لعلمى بأن الله قضاها على وقدرها ولم يقضها إلا والخيرة لى فيها(١).

وقد جاوزوا الصواب فى ذلك، فإن الله وإن أراد الكفر والمعصية وقدرهما فإنه لا يرضى عنهما ولا يحبهما، قال تعالى والله لا يحب الفساد وقال ولا يرضى لعباده الكفر كما قال: كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها.

فزعمهم أن الله رضى عن كل ما قدر لا دليل عليه.

يقول ابن تيمية عاتبت بعض شيوخ هؤلاء، فقال لى المحبة تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب والكون كله مراد فأى شئ أبغض منه. قال: فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغض بعض من فى الكون وعاداهم ولعنهم فأحببتهم أنت وواليتهم أكنت وليا للمحبوب أو عدوا له؟ قال فكأنما ألقم حجرا(٢).

ولأنهم يطلعون على القدر فى زعمهم ويعرفون سره فأنهم يزعمون أن نفوسهم انسلخت من التدبير والاختيار الذى يخالف تدبيره فلا يتدخلون بلو ولا بعسى ولعل ولا بليت قال أحدهم لو قرض جسمى بالمقاريض أحب إلى من أن أقول لشئ قضاه الله ليته لم

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١٠٥.
(٢) السابق ١٠٦.

يقضه، وقال آخر أذنبت ذنبا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة. قيل له وما هو؟ قال: قلت مرة لشئ كان ليته لم يكن(١) وصحيح أنه ليس من الدين الاعتراض على القدر ولكن صحيح أيضا أنه ليس من الاعتراض على القدر إنكار الشرور والمعاصى والإمتناع عنهما، كما إن الدعاء والاستغفار ليس فيهما منازعة لله فى تدبيره لأن الله أخفى علينا قدره وأطلعنا على أمره فلسنا مطالبين بتنفيذ قدره وإنما مطالبون بتنفيذ أمره.

وقول أبى يزيد «أريد ألا أريد» يحتوى على تناقض فإنه قد أراد عدم الإرادة، فإذا قال أريد يقال له فقد أردت وأحسن منه أن يقول أريد ما تريد لا ما أريد أى موافقة أى مراده مراد الله تعالى... وإن كان المطلوب هو موافقة الأمر لا موافقة الإرادة.

يروى أن عيسى عليه السلام كان يصلى على رأس جبل فأتاه إبليس فقال أنت الذى تزعم أن كل شئ بقضاء وقدر. قال نعم. قال فالق نفسك من الجبل وقل قدر على. فقال يا لعين الله يختبر العباد وليس للعباد أن يختبروا الله(٢).

وهكذا خلط الصوفية فى القدر قولا صالحا وآخر سيئا. ولو أنصفوا لقالوا إن القضاء له وجهان :

أحدهما : تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه فمن هذا الوجه يرضى به كله.

الوجه الثانى : تعلقه بالعبد ونسبته إليه ومن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به ومالا يرضى به(٢).

---

(١) السابق ٢٧١. (٢) تلبيس إبليس ٢٨١.

(٢) مدارج ٢٨١/١.

ويرى بعضهم أن الأخذ بالأسباب من تلبيس الأنبياء على الناس ولكنه تلبيس ترحم وتوسيع. يأمرونهم بتعاطى الأسباب رحمة لهم وتوسيعا عليهم مع علمهم بأنها لا أثر لها فى خلق ولا رزق ولا نفع ولا خير، لكن لما علموا عجز الناس عن إدراك ذلك والتحقق به لبسوا عليهم وستروهم بالأسباب رحمة بهم وتوسيعا(١).

وهذا مما جاوزوا فيه حد الصواب، لأن طى بساط الأسباب والعلل تعطيل للأمر والنهى والشرائع والحكم، يقول ابن القيم: قف مع الأسباب حيث أمرت وفارقها حيث أمرت.

فيجب أن نؤمن بالقدر عقيدة، وأن نأخذ بالأسباب ونتمثل الأمر والنهى. روى أن الصحابة قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: أرأيت ما يكدح الناس فيه اليوم ويعلمون أمر قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلون مما آتاهم فيه الحجة، فقال بل شئ قضى عليهم ومضى فيهم. قالوا يا رسول الله: أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا قال: لا أعملوا فكل ميسر لما خلق له.

ويجب أن نعتقد أن القدر سر الله تعالى فى خلقه لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبى مرسل وأن التعمق فيه والجدل حوله منهى عنه لأن الله طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه(٢).

قال تعالى: ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير(٣).

---

(١) السابق ٤٢٢/٢.

(٢) ابن العز الخنفى: شرح العقيدة الطحاوية ٢٤٩ط التاسعة بيروت.

(٣) الأعراف ١٨٨ .

٢ - العبـــادات

لا حرج من وجود خلاف بين المسلمين فى العبادات كيفية وأداء إذا كان الخلاف داخل الإطار العام للدين «الكتاب والسنة» أما إذا تعدى تلك الحدود فهنا يأتى الحرج. فماذا قال الصوفية فى العبادات وهل تعدى قولهم فيها تلك الحدود؟

الصـــلاة :

رأس العبادات فى الإسلام وعماد الدين. للصوفية منها مواقف مختلفة أحيانا يكثرون منها ويهتمون بها فيملأون بها ليلهم ونهارهم ويعطلون بسببها سعيهم وأعمالهم حتى ليروى أن أحدهم كان إذا فتح حانوته فى الصباح أسدل عليه سترا ودخل فى الصلاة إلى آخر النهار، وكان منهم من يصلى فى ليلته ألف ركعة!! وأصيبت رجل أحدهم فأشير عليه بقطعها فقال: إذا دخلت فى الصلاة فاقطعوها لأنه يستغرق فى الصلاة فلا يحس بشئ، وشب حريق فى بيت أحدهم وهو يصلى فلم يشعر به إلى غير ذلك مما تمتلىء به كتبهم من حديث عن مكانة الصلاة وأهميتها عندهم.

وأحيانا أخرى يتهاون بها بعضهم ويتكاسل عنها بحجة أنهم تجاوزوا مرحلتها فيسقطونها عن أنفسهم، وإنها لم تعد فرضا عليهم ويعيبون من يستكثر منها ومن الطاعات عموما ويزدرون بهم وقد يسمون من رأوه يكثر الصلاة «ثقاقيل الحصر» (أى الذين يثقلون على حصر المساجد) ويسمون من رأوه كثير الطواف حول الكعبة «حمر المدار» (أى الحمير التى تدور بالرحى)(١).

قيل لأحدهم ألا تصلى: قال أنتم مع أورادكم ونحن مع وارداتنا وقال غيره:

---

(١) مدارج السالكين ١/٢٨٤ .

يطالب بالأوراد من كان غافلا ... فكيــف بقلب كل أوقاتــه ورد

ويقسم بعض الصوفية الدين :

إلى شريعة وحقيقة وظاهر وباطن، ويعنون بأهل الظاهر وأهل الشريعة العوام من الناس(١) الذين يؤمنون بظواهر النصوص الشرعية دون اللجوء إلى تأويل، ومنهم علماء المذاهب الأربعة وعامة فقهاء الشرع وعلماء الحديث، وأما أهل الباطن فهم الصوفية أهل الحقيقة والطريقة وهم الخاصة من الناس الذين يعتمدون على تأويل النصوص الشرعية(٢) يقول السهروردى .(٣) أن التقى حق التقى والزاهد حق الزهادة فى الدنيا من صفا باطنه وانجلت مرآة قلبه ووقعت له محاذاة بشئ من اللوح المحفوظ فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها فيعلم منتهى أقدام العلماء فى علومهم... أو كما يرددون أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا من الحى الذى لا يموت.

ومن ثم أباح هذا البعض من الصوفية لأنفسهم - عن طريق التأويل والخواطر والأحلام - تصحيح كثير من الأحاديث الضعيفة وتضعيف كثير من الأحاديث الصحيحة يقول شيخهم: «ورب حديث يكون صحيحا من طريق رواته حصل لهذا المكاشف الذى عاين هذا المظهر فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذا الحديث الصحيح فأنكره وقال له لم أمله ولا حكمت به فيعلم ضعفه فيترك العمــل به

---

(١) كلمة العوام هنا لا تعنى الدهماء وإنما تعنى غير أهل الاختصاص. فالفقهاء مثلا عوام بالنسبة للتصوف.

(٢) والتأويل عندهم هو صرف النص إلى معنى قد لا يحتمله إلا عن طريق الأحلام والخواطر واستفتاء القلوب.

(٣) عوارف المعارف ١٦٢/١.

على بينة من ربه ، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه وهو فى نفس الأمر ليس كذلك(١).

ويعتمدون فى ذلك على ما يروونه من أحاديث ضعيفة أو موضوعة مثل : ما من آية إلا لها ظاهر وباطن وحد ومطلع ، ولكل مرتبة من هذه المراتب رجال ولكل طائفة من هذه الطوائف قطب وعلى ذلك القطب يدور فلك ذلك الكشف(٢). ويعقب ابن عربى على هذا بقوله: وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحته(٣).

وفى ذلك مالا يخفى من هدم الشريعة وفتح الباب للوضاعين أن يتقولوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويطلق هؤلاء على أنفسهم أهل الله، والعارفين بالله، وأهل الكشف، وعلماء الباطن، وعلماء الغيب... الخ ويسمون علماء الشريعة علماء الظاهر وعلماء الرسوم وأهل النظر ويزدرونهم ويعتبرونهم دونهم فى الدرجة والفهم. يروى أن رابعة العدوية أتت ليلة بالقدس تصلى حتى الصباح وإلى جانبها بيت فقيه يشرح باب الحيض فلما أصبحت رابعة قالت له يا هذا وصل الواصلون إلى ربهم وأنت مشتغل بحيض النساء(٤).

وقد حمل ابن عربى على علماء الشريعة حملة قاسية فشبههم بفراعنة الرسل «ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الالهى الذى

---

(١) الفتوحات المكية ١/١٩٥.
(٢) الفتوحات ١/٢٤٢.
(٣) الفتاوى ١١/٢٩٦.
(٤) الفتاوى ١١/٢٩٦.

منحهم أسراره فى خلقه وفهمهم معانى كتابه وإشارات خطابه فهم لهذه الطريقة مثل الفراعنة للرسل»(١).

ويرون أنه يجب على علماء الشرع الإنصاف والتسليم بفضل الصوفية وتفوقهم عليهم فى العلم والفهم اللدنى الذى حصل لهم بالإعلام الرحمانى الربانى(٢) لأن علم الصوفية ما هو إلا وحى يوحى ليس عن طريق «شديد القوى» ولكن عن الله مباشرة يقولون: «حدثنى قلبى عن ربى» ومن يشك فى ذلك فليس له منهم إلا الطرد «من اعترض انطرد».

التكاليف :

وترتب على هذا الوصول والاتصال المباشر بالله عند بعضهم سقوط التكاليف وهى العبادات الشرعية لقوله تعالى: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»(٣) فاليقين عندهم هو شهود الحكم الكونى وهى الحقيقة التى يصبح عندها العبد ربا والرب عبدا. مخالفين إجماع العلماء أن اليقين هو الموت بدليل قوله تعالى: «وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين»(٤) وقوله صلى الله عليه وسلم: أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه - قال ذلك لما مات عثمان(٥).

ويعتبر هؤلاء التكاليف عند هذه المرتبة خسة ورقا، يقول

(١) الفتوحات ٢٦٢/١.
(٢) السابق ٢٦٤.
(٣) الحجر ٩٩.
(٤) المدثر ٤٦، ٤٧.
(٥) مدارج السالكين ١٨٢/١.

صاحب المنازل(١) ويطوى خسة التكاليف... ويعلق ابن القيم فيقول: «ليت الشيخ عبر عن هذه اللفظة بغيرها فوالله إنها لأقبح من شوكة فى العين وشجى فى الحلق، وحاشا التكاليف أن توصف بالخسة أو تلحقها خسة وإنما هى قرة عين وسرور قلب وحياة روح»(٢).

ويحاول ابن القيم أن يفسر للصوفية هذه العبارة تفسيرا أخف وطأة مما يفهم منها أو يريده بعضهم بها فيقول: استغنوا بالواردات عن الأوراد وبالحقائق عن الرسوم وبالمعانى عن الصور فخلصوا من رق التكليف المختص بالعلم وجاءوا بالحقيقة التى يقتضيها الحكم(٣).

ومما يذهب إليه بعضهم فى ذلك أن الأنبياء لبسوا على الناس فى الشريعة. وأن الأنبياء ما كانوا يعرفون الحقيقة(٤).

ومن أمثلة ذلك التلبيس مسألة التحريم والتحليل. فالشريعة هى التى فرقت. قالت هذا حلال وهذا حرام، لكن الحقيقة لا فرق فيها بين محلل ومحرم، فلا فرق فى التحليل والتحريم بين الأم والأخت والأجنبية والزنا والنكاح، الكل من عين واحدة، وإنما المحجوبون عن السر قالوا هذا حلال وهذا حرام.

---

(١) الهروى: عبد الله بن محمد بن على الأنصارى. أبو إسماعيل شيخ خرسان من كبار الحنابلة من ذرية أبى أيوب الأنصارى قال: عرضت على السيف خمس مرات لا يقال لى ارجع عن مذهبك لكن يقال لى أسكت عمن خالفك فأقول لا أسكت.

(٢) مدارج السالكين ١٧٤/٢.

(٣) السابق والصفحة.

(٤) السابق ٤٢٢/٢.

فالمعصية عند بعضهم هى عين الطاعة يقول قائلهم[١]: إن الولى الكبير فيما يظهر للناس يعصى وهو ليس بعاص وإنما روحه حجبت ذاته فظهرت فى صورتها فإذا أخذت فى المعصية فليست بمعصية». ويقول: «يقعد الولى مع قوم يشربون الخمر وهو يشرب معهم فيظنون أنه شارب الخمر وإنما تصورت روحه فى صورة من الصور وأظهرت ما أظهرت»[٢] ويجيب الجنيد سائلا سأله: أيزنى العارف؟ يقول نعم. وكان أمر الله قدرا مقدورا فيسميه عارفا وهو زان أى مؤمنا بلغ ذروة الإيمان لأنه رأى القضاء فى لوح الغيب فنفذه والرسول يقول: لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن.

الزواج :

يعزف بعضهم عن الزواج لأحاديث لم تثبت.

مثل ما رووه: خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ قيل يا رسول الله: وما خفيف الحاذ؟ قال الذى لا أهل له ولا ولد، ومثل ما رووه عن معاذ بن جبل: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر، وأن أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب ولبسن ربط الشام وعصب اليمن وأتعبن الغنى وكلفن الفقير مالا يجد.

يقول سهل التسترى وقد سئل عن النساء: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار. وفسر

---

(١) الدباغ: عبد الرحمن بن محمد بن على الأنصارى الأسيدى من ولد أسيد بن خضير من أهل القيروان له كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب فى آداب الصوفية مات ٦٦٩هـ.

(٢) الدباغ [illegible] يز ٢/٤٣.

قوله تعالى «وخلق الإنسان ضعيفا»(١) بأنه لا يصبر على النساء، ويرى أن المقصــود بقوله تعالى : «ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به»(٢) الغلمة. وهى شدة الشهوة وقيل لصوفى تزوج. قال أنا إلى أن أطلق نفسى أحوج منى إلى التزوج وكأن هذا البعض منهم يرى ثمة تعارضا بين طاعة الله والزواج فى حين أن الزواج من طاعة الله. قيل لبشر بن الحارث(٣) إن الناس يتكلمون فيك فقال ما يقولون؟ قيل يقولون: إنك تارك للسنة يعنى النكاح فقال: قولوا لهم: أنا مشغول بالفرض عن السنة.

وبعضهم كان على العكس من ذلك فالجنيد مثلا يقول: إنما احتاج إلى الزوجة كما احتاج إلى الطعام(٤). وقال أحدهم لو بقى من عمرى يوم واحد لخشيت أن ألقى الله عزبا. وكلا طرفى الأمور ذميم. فالسنة لا تشغل عن الفرض بل تعين عليه وفى الاعتصام بها النجاة قال الإمام مالك: السنة مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق(٥).

وقد أصاب الفضيل بن عياض - وهو أحد شيوخهم عندما فسر قوله تعالى: «ليبلوكم أيكم أحسن عملا»(٦). قال أحسن العمل أخلصه وأصوبه والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة. والعمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وكذا العكس.(٧).

---

(١) النساء ٢٨. (٢) البقرة ٢٨٦.

(٣) أبو نصر بشر بن الحارث الحافى خراسانى من مرو توفى فى بغداد ٢٢٧هـ من أقواله: لأصحاب الحديث: أدوا زكاة الحديث فاستعملوا من كل مائتى حديث خمسة أحاديث وقوله: إن لم تطع فلا تعص.

(٤) عوارف المعارف ١٣٨. (٥) الفتاوى ١٠/١٧٢.

(٦) هود ٧. (٧) الفتاوى ١٠/١٧٢.

العمـــل :

بينما تعتبر الشريعة العمل عبادة يراه بعض الصوفية غير ذلك فلا يؤمنون بضرورته ويفضلون عليه السؤال بحجة أن الرزق يأتى من غير عمل. قيل لأبى يزيد ما نراك تشتغل بكسب فمن أين معاشــك ؟ فقـــال مـــولاى يرزق الكلب والخنزير تراه لا يرزق أبا يزيد(١) . جاهلا أو متجاهلا أن الله قد أمر بالأخذ بالأسباب لكسب الرزق قال: «فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه»(٢) وقال لمريم: «وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا»(٣) أمرها بالهز لتأخذ بالأسباب وكان من اليسير أن يساقط عليها الرطب بدون هز ولا عمل.

وربما يحاول بعضهم أن يؤسس السؤال وترك العمل على قاعدة شرعية فيجعله دينا كما ذكر أبو طالب المكى أن بعض الصوفية أول قوله صلى الله عليه وسلم: أن أطيب ما أكلتم من كسبكم بأنه المسألة عند الفاقة(٤). فهو يعتقد أن سؤال الناس عمل وكسب. نعم عمل وكسب ولكن لمن يعجز عن كل عمل وأى كسب فآخر الحلال المسألة. ومن تبريرات بعضهم المريبة للسؤال أنهم يسألون ليتسببوا فى إعطاء الثواب لغيرهم. روى أن ناسا استعظموا المسألة من النورى فكلموا الجنيد فى ذلك فقال للسائل لا يعظم هذا عندك فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضره ونسى كلاهما أن المسألةلاتحل -كما قال صلى الله عليه وسلم-

---

(١) عوارف المعارف ١٥٦.
(٢) الملك ١٥.
(٣) مريم ٢٥.
(٤) عوارف المعارف ١٤٠.

إلا لذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع أو لذى دم موجع، كما أنها تأتى نكتة سوداء فى وجه صاحبها يوم القيامة.

وقد يحتجون بحال مريم، وأنها كانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

وهذا لا مشاحة فيه لكنه داخل فى باب الكرامات أو المعجزات فليس قاعدة ولا حالة دائمة كما أن مريم فى ذلك الوقت كانت أنثى صغيرة لم يجب عليها السعى ولا العمل لأنها فى كفالة زوج أختها زكريا فلما كبرت وقدرت على العمل قيل لها: «وهزى إليك بجذع النخلة».

وقد يكون لبعضهم مال عن طريق ميراث أو غيره فيتخلى عنه كله ويسأل الناس. يروى ابن الجوزى أن أبا عبدالله المقرى(١) ورث من أبيه خمسين ألف دينار سوى الضياع والعقار فخرج عن ذلك كله وأنفقه على الفقراء وقصة إبراهيم بن أدهم(٢) جد مشهورة عندهم.

ويؤسسون ذلك على حديث: «عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا» وحديث الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، وقصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى الذى كان فقيرا فلما صار غنيا انقطع عن الصلاة وامتنع عن دفع الزكاة وقال إنها أخت الجزية. ونزل فيه «ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من

---

(١) ابو عبد الله محمد بن أحمد المقرئ صحب يوسف بن الحسين الرازى وكان من أفتى المشايخ وأسخاهم. من كلامه: الفقير الصادق الذى يملك كل شئ ولا يملكه شئ. مات سنة ٣٦٦.

(٢) إذ يذكر إنه كان من أبناء الملوك والمياسير وخرج للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته فترك ماله وثراءه ودخل فى الزهد والورع.

الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به»(١)... وغير ذلك مما يوردونه.

يقول ابن الجوزى: ولست أعجب من الذين فعلوا هذا مع قلة علمهم وإنما العجب من أقوام لهم عقل وعلم كيف حثوا على هذا وأمروا به مع مصادمته للعقل والشرع، وقد ذكر الحارث المحاسبى فى هذا كلاما طويلا وأشاد به أبو حامد ونصره.(٢).

وقد غفل هؤلاء عن أن الله قدر المال وأمر بحفظه إذ جعله قواما للآدمى فقال: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما»(٣). ونهى أن يسلم إلى غير رشيد «فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم»(٤) وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد: «إن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس» وقال: ما نفعنى مال كمال أبى بكر، وأن الصحابة وهم أفضل الأمة كان فيهم أغنياء.

والدعوة إلى البطالة والكسل وترك العمل وتبديد المال دعوة خطيرة فى المجتمع فيها تعطيل لإعمار الأرض ومخالفة لروح الإسلام فإن الإسلام يتميز عن غيره بتنظيم أمور الدنيا وعلاقات الناس وغالبها تنشأ عن الكسب وطلب الرزق. ورحم الله أبا بكر خرج صباح توليه الخلافة ليكسب قوته بعمل يده فى سوق المدينة.

والدعوة إلى ترك العمل دعوة إلى الفقر ولا يوجد أشد على النفس والمجتمع من الفقر وكان صلى الله عليه وسلم يستعيذ منه

(١) التوبة ٧٥.
(٢) تسوف بين الحق والخلق ١١٣.
(٣) النساء ٥.
(٤) النساء ٦.

ويقول: اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وقال تعالى: «ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون»(١).

والكسب سنة الأنبياء قال صلى الله عليه وسلم «ا أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده».

على أنه يجب أن نبادر فنقول أن السؤال وترك العمل لم يكن مذهب وحيـــاة كل الصوفية فإن منهم كثيرون كانوا يعملون ويقدرون العمل. فقد كان إبراهيم بن أدهم يحصد الزرع بالنهار ويصلى بالليل(٢)، وكثيرون منهم كانوا أصحاب صناعات وحرف عرفوا بها ونسبوا إليها لشدة ملازمتهم لها وحسن قيامهم بها عرفنا من رجال التصوف: الحمال «بنان الحمال» والوراق «أبو بكر الوراق» والخراز «أبو سعيد الخراز» والقصار «حمدون القصار» والنساج «خير النساج» والخواص والمزين وغير ذلك(٣)...

روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا رأى غلاما فأعجبه سأل عنه هل له حرفة فإن قيل لا قال سقط عن عينى(٤).

ومن أقوال التسترى: من طعن على الكسب طعن على السنة(٥).

---

(١) يس ٣٥.
(٢) الحلية ٧/٢٦٧.
(٣) انظر ترجمتهم فى طبقات السلمى ٢٩١، ٢٢١، ٢٢٨، ١٢٤، ٣٢٢، ٢٨٤، ٢٨٣ على التوالى.
(٤) تلبيس إبليس ٢٨٢.
(٥) السابق ٢٨١.

الجهـــاد :

ملاك الأمر وعموده وذروة سنامه هو الجهاد كما أخبر صلى الله عليه وسلم ولكن بعض الصوفية لا يرونه كذلك - يقللون من شأنه ويثبطون الناس عنه ولا يشتركون فيه بحجة أن أذكارهم وأورادهم وسماعهم خير منه وأبقى. كتب أحد الصالحين إلى صوفى يستدعيه للجهاد فرد عليه: كل الثغور مجتمعة لى فى بيت واحد والباب على مردود فكتب إليه لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار فلا بد من الغزو والجهاد فرد عليه الصوفى بأن الناس لو لزموا ما أنا عليه وقالوا فى زواياهم وعلى سجادتهم الله أكبر لانهدم سور القسطنطينية(١).

ومن قال بالحلول والاتحاد لابد أن يعزف عن الجهاد. فهل يتصور من شخص يعتقد أن الله حال فى الكفار شجاعة فى جهاد أو جهاد أصلا أو يتصور من شخص يعتقد أن الأديان كلها صحيحة وأنها طرائق موصلة إلى الله، جهاد بل يتصور فيمن يعتقد فى سقوط التكاليف جهاد!!!

الجهاد يحتاج إلى عقيدة صحيحة وأبدان قوية وأموال تعد للجند والسلاح أما العزوف عن الطعام حتى تصير الأجساد أنضاء تتساقط من الهزال والقعود عن العمل والكسب والميل إلى التوكل والسؤال كل ذلك يناقض الجهاد، ويعجز عنه حتى لو أراده صاحبه.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بشعب فيه عيينة ماء عذب فأعجبه طيبه

(١) عوارف المعارف ٥٦/٢.

فقال لو أقمت فى هذا الشعب فاعتزلت الناس. ولا أفعل حتى استأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك للنبى فقال: لا. فإن قيام أحدكم فى سبيل الله خير من صلاته ستين عاما خاليا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة اغزوا فى سبيل الله. من قاتل فى سبيل الله فواق ناقه وجبت له الجنة(١).

وربما يستند بعضهم فى القعود عن الجهاد بحديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو حديث ضعيف قال عنه الحافظ ابن حجر هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عبلة وقال العراقى رواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر، وقال عنه ابن تيمية لا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

أو يعللونه بأن المصائب هى عقاب من الله للمؤمنين من خلقه فإذا سلط الله عليهم ظالما فليس لأحد أن يقاوم إرادة الله أو يتأفف منها.

وربما كان من أسباب عناية بعض المستشرقين بالتصوف الإسلامى ونشر كتبه ما رأوا فيه من معارضة بعضهم للجهاد وتثبيط الهمم وخشوع وخضوع باسم الرضا بالقضاء والقدر.

ولكن من الإنصاف أن نذكر أن هذه الأقوال أنكرها معظم الصوفية وخطأوا أصحابها قبل أن ينكرها غيرهم. فالسيد أحمد البدوى يبلى هو وجماعة الصوفية فى الجهاد بلاء حسنا والجنيد يقول فيمن ذهب

---

(١) مسند أحمد ٥٢٤/٢.

إلى إسقاط التكاليف: الذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول بإسقاط الأعمال(١). ويروى أن الجيلانى تراءى له الشيطان وزعم أن الله رفع التكليف عنه فسارع إلى تكذيبه قائلا: أن التكليف لم يرفع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وآله فكيف يرفع عنى(٢).

وعن الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة يقول سرى السقطى(٣): من ادعى باطن حقيقة ينقضها ظاهر حكم فهو غالط وقال أحمد بن الحوارى(٤): من عمل بلا اتباع سنته فباطل عمله.

وقد يقال بعد ذلك فما بال من يشنع على الصوفية كل هذا التشنيع وما من طائفة من الطوائف ولا فرقة من الفرق إلا ولها مخالفاتها وكل إنسان يؤخذ من قوله ويرد إلا الرسول صلى الله عليه وسلم فما بالهم يخصون الصوفية بمزيد من الانكار مع أن بعض شيوخها قد تصدوا للمخالفين منهم قبل غيرهم.؟

لعل السبب فى ذلك أن التصوف -وهو يمثل من الدين مرتبة الإحسان- ينبغى أن يربا به أصحابه عن مثل هذه المخالفات وأن يلتزموا فيه بحدود هذه المرتبة ومقتضياتها فى الإسلام، والبقع السوداء أشد ظهورا على الثوب الأبيض منها على غيره.

ويمكن أن يقال بعد ذلك إن التصوف مائدة جمعت الطيب والخبيث من الطعام فلينظر المرء أيها أزكى طعاما فليأخذ منه.

---

(١) تلبيس إبليس ٣٦٩.

(٢) التصوف بين الحق والخلق٢٩.

(٣) أبو الحسين سرى بن المغلس السقطى يقال أنه خال الجنيد وأستاذه أمام البغداديين وشيخهم فى وقته مات سنة ٢٥١ هـ.

(٤)أبوالحسين أحمد بن ميمون بن الحوارى من أهل دمشق مات سنة ٢٣٠هـ.

ثانيا : الشعائر والطقوس

تعارفت الصوفية على مجموعة من التقاليد والأعراف التزموا بها والزموها من يسلك طريقهم حتى غدت بالنسبة للتصوف بمثابة الشعائر بالنسبة للأديان.

وهى عندهم بمثابة الروح للتصوف. ليست -ولا واحدة منها- مما يستطيع أن يستغنى عنه مريد يطلب إلى الطريق الدخول أو سالك يسعى إلى ساحة الوصول أو شيخ يريد أن يتحقق بالحقيقة. ومن لم تكن له هذه المعانى فقد حرم من التذوق والفتح الربانى دون السؤال عن سبب ذلك فالتصوف قائم على التسليم ومن اعترض انطرد.

ودون من يروم أهمية هذه الطقوس فى التصوف كتب ـحابه فقد أفسحت لها الأبواب والصفحات.

وباختصار سنعرض لبعض هذه الشعائر والطقوس: وبهدوء سنناقشها.

١ - الذكر ومتعلقاته

بالذكر والسماع والوجد يتقوى الصوفى على الطريق بل هى طريقه الذى ينتهى به إلى الوصول إلى الحق بل هو العمدة فى طريق القوم ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر، والسماع غذاء روح السالك فهو يتغذى بالسماع كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب، والوجد ثمرة السماع ودليل صدق التحقق به[١].

وعرف ذو النون المصرى السماع بأنه وارد حق جاء يزعج القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق وقال عنه الشبلى: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة، والوجد ما يوجد عند السماع[٢] أما الذكر فهو عمدة الطريق ومنشور الولاية كما يقول عنه الشعرانى[٢].

---

(١) المدرسة الشاذلية الحديثة وأمامها أبو الحسن الشاذلى ١٢٩ تأليف د. عبد الحليم محمود.

(٢) الأحياء ٢/٢١٧.

(٢) الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية ١/٢٥.

(أ) الذكـــــر

الخاصة من عباد الله تعالى المخلصين إذا فرغوا من أداء فرائضهم اتبعوا ذلك بالنوافل، ومن أبرز النوافل ذكر الله تعالى وتسبيحه وحمده، ومن خصوصيات العباد الذاكرين عدم الاشتغال بسرى الاتجاه إلى الله بكامل الهمة وهذا ما جاء به وصفهم فى القرآن الكريم «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»(١).

ويراد بالذكر تمجيد الله وتقديسه وتسبيحه وتهليله والثناء عليه بجميع محامده ومن ثم عرفت الفاتحة بأنها أم الكتاب لأنها تحوى الحمد والثناء والتوحيد والإقرار بالعبودية لله، وجاء أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن لأن فيها التوحيد والتنزيه للذات الإلهية. قال تعالى: «يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا»(٢).

ولقد جعل الله تعالى فريضة الذكر بخلاف باقى الفرائض الإسلامية بلا تحديد وذلك لسهولة الذكر على العباد. فكل عمل وقول يكون فى رضاء الله وسبيله هو ذكر. ولقد جاء الأ[illegible] الذكر المقترن بالإخلاص فى أكثر من آية قرآنية، وكانت فى صيغة الأمر أو الحض على ذلك أو فى إطار الوعد بالثواب الكبير قال تعالى: «فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون»(٣).

ليس الذكر إذن ترديد باللسان فحسب وإنما أصل الذكر التنبيه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسمى الذكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبى، وما من عبد ذكر الله مخلصا له إلا ذكره الله عز

---

(١) النور ٣٧.
(٢) الأحزاب ٤١، ٤٢.
(٣) البقرة ١٥٢.

وجل برحمته. وجاء فى شأن الذكر قوله صلى الله عليه وسلم: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال حلق الذكر(١).

ويجمع القوم على أن الذكر مفتاح الولاية وجاذب الخير وأنيس المستوحش وما ثم أسرع من فتح الذكر(٢).

وإذا اشتغل المريد بالذكر وهو عادة الإسم المفرد (الله) واستمر عليه ليلا ونهارا أياما كثيرة -قد تقصر وقد تطول وقد تمتد إلى ما يزيد على عشرين سنة كما حصل لعبد القادر الجيلانى- تظهر أمامه خوارق... ويستمر الذاكر فى الذكر حتى يصل إلى الجذبة التى هى الهدف الأول، وتعنى هذه الجذبة عندهم أن الله جذبه إليه وعلى السالك أن يستمر فى الذكر بعد هذه الجذبة التى تتلوها جذبات حتى يشاهد فيها وبها المشاهد، وحتى تصبح طوع يديه، ففى أى وقت يريدها يبدأ الذكر فتأتيه بل قد تأتيه بمجرد التفكير فيها.

والذكر عندهم منشور الولاية الذى من أعطيه اتصل ومن منعه انعزل وهو قوت القلوب متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته. قال الحسن البصرى تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة وفى الذكر وقراءة القرآن فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق. ويقول قائلهم والله ما أخذنا الولاية إلا بالذكر(٣).

والذكر شـــعيرة من شـــعائر الإسلام جاء الحث عليه كثيرا فى

(١) رواه الترمذى.
(٢) مدارج السالكين ٢/٤٥١.
(٣) نفحات الحق ١١٢.

السنة وفى القرآن وحددت الشريعة كيفيته وصيغته للمسلم وبينت الغاية منه غير أن بعض الصوفية اخترعوا أذكارا وابتدعوا لها هيئات وكيفيات وعلقوا عليها غايات بعيدة عن سنن الشريعة.

فمن الأذكار المخترعة عندهم الذكر بالإسم المفرد (الله. الله. الله) يقول الغزالى: أردت فى بداية أمرى سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة فلما علم الله صدق نيتى قيض لى وليا من أوليائه قال لى: يا بنى أقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده واخل بنفسك وأجمع همتك وقل: الله الله الله(١).

وربما يستشعرون أن الذكر بالاسم المفرد لا معنى له فيسارعون إلى نفى ذلك عن قلب المريد. ومهما قالت نفسك ما معنى هذا؟ فقل لها: لست مطلوبا بمعناه(٢).

ومن أذكارهم أيضا الذكر بضمير الغائب (هو . هو) ويقسمون الذكر تبعا لذلك إلى ثلاثة أقسام:

ذكر العامة : لا إله إلا الله .

ذكر الخاصة : الله . الله . الله.

ذكر خاصة الخاصة : هو .هو .

وربما قالوا: لا إله إلا الله للمؤمنين، والله الله الله للعارفين وهو وهو للمحققين وربما قالوا فى ذكرهم: (يا هو) أو (لا هو إلا هو) يقول ابن تيمية: والذكر بالاسم المفرد مظهرا ومضمرا بدعة فى الشرع وخطأ فى القول واللغة فإن الاسم المجرد ليس هو كلاما

(١) الفتوحات الإلهية ٢٢٨.

(٢) الفتوحات الإلهية ٢٢٨.

لا إيمانا ولا كفرا، ويخطئ الغزالى فى تقسيمه السابق ويرى أن ذلك من بقايا الفلسفة عليه(١).

وقد يعلل الصوفية إنهم يقصدون بالذكر بالاسم المفرد جمع القلب على شئ معين حتى تستعد النفس لما يرد عليها، وقد يأمرون لذلك المريد أن يجلس فى مكان مظلم ويغطى رأسه ويردد هذا الاسم حتى يفرغ قلبه ويستعد لنزول المعرفة المطلوبة فيسمع من سماء عقله كما حصل لموسى بن عمران عليه السلام.

والدين يطلب منا عدم شغل القلب بما يشوش العبادة ويبطلها لكن ما يطلبه الدين غير ما ذهبوا إليه لأن المقصود بإفراغ القلب فى الإسلام هو الإخلاص فلا يخشى إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يقصد غيره فى دعاء أو عبادة. قال جندب وابن عمر تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا(٢).

وللشبلى تعليل آخر. فعندما سئل: لم لا تقول لا إله إلا الله قال أخاف أن أموت بين النفى والإثبات. ويرد ابن تيمية على هذا التعليل بأن العبد لو أراد أن يقول لا إله إلا الله ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئا إذ الأعمال بالنيات بل يكتب له ما نواه. ويعذر ابن تيمية الشبلى فى تعليله ويرى أن ذلك من زلاته التى تغفر له لصدق إيمانه وقوة وجده وغلبة الحال عليه فإنه كان ربما يجن ويذهب إلى المارستان(٣).

ويستدلون على الذكر بالاسم المفرد بقوله تعالى: «قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون»(٤) مع أن الآية ليس فيها دليل على

---

(١) الفتاوى ٢٩٦/١٠، ٢٩٨.
(٢) الفتاوى ٤٠١/١٠.
(٣) الفتاوى ٥٥٧/١٠.
(٤) الأنعام ٩١.

ما يذهبون إليه منها. فالآية تقول: «وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلون قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون» فقوله تعالى: «قل الله» إجابة على السؤال الذى أوردته الآية فى قوله: «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» وذلك مثل قوله تعالى فى آية أخرى: «قل أى شئ أكبر شهادة قل الله».

وأما قوله ثم ذرهم فمعناه أنك إذا أقمت الحجة عليهم فى الإعذار والإنذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شئ البته، ونظيره قوله تعالى: «فإنما عليك البلاغ»(١).

وأغرب من هذا ما ذهبوا إليه فى قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلا الله»(٢) قالوا يعنى: وما يعلم تأويل (هو) أى اسم هو الذى يقال فيه هو هو. وصنف ابن عربى كتابا فى (الهو) وهو تخريج فاسد إذ لو كان المقصود ما ذهبوا إليه لكتب فى المصاحف ضميرا منفصلا (تأويل هو) ولما كتب موصلا.

كما يستدلون بأن النبى صلى الله عليه وسلم لقن على بن أبى طالب أن يقول: الله الله الله فقالها النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثا ثم أمر عليا فقالها. ثلاثا. يقول ابن تيمية: وهذا حديث موضوع بإتفاق أهل العلم بالحديث(٣).

---

(١) آل عمران ٢٠ وانظر تفسير الرازى ٧/٧٨.

(٢) آل عمران ٧.

(٣) الفتاوى ١٠/٥٥٧.

وإنما كان تلقين النبى صلى الله عليه وسلم بالذكر المأثور ورأس الذكر لا إله إلا الله وهى الكلمة التى عرضها على عمه أبى طالب حين الموت وقال يا عم: قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله. وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم: أنه قال: أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وفى حديث آخر أفضل الذكر لا إله إلا الله. وقال أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير. والأحاديث فى فضل هذه الكلمات كثيرة صحيحة.

أما ذكر الاسم المفرد ظاهرا أو ضميرا فبدعة لم يشرع وليس هو بكلام يعقل. وهو باطل شرعا وعقلا. أما شرعا فلما ذكر وأما عقلا فلأنه لا يحسن السكوت عليه فلا هو جملة تامة ولا كلاما مفيدا ولهذا سمع بعض العرب مؤذنا يقول: أشهد أن محمدا رسول الله بنصب رسول، قال فعل ماذا؟ لأنه لما نصب الاسم صار صفة والصفة من تمام الاسم الموصوف فطلب بصحة طبعه الخبر المفرد ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن(١).

ولو كرر الإنسان إسم الله الف مرة لم يصر بذلك مؤمنا ولم يستحق ثواب الله ولا جنته فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون الإسم مفردا سواء أقروا به وبوحدانيته أم لا ولذلك لما أمرنا الله بذكر اسمه فى القرآن الكريم أمرنا بذكر اسمه تاما كما جاء فى مثل قوله تعالى: «فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اســم الله عليــه»(٢)

---

(١) الفتاوى ٥٦١/١٠.   (٢) المائدة ٤.

وقوله: «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه»(١) وقوله: «سبح اسم ربك الأعلى»(٢) وقوله: «فسبح باسم ربك العظيم»(٣)ونحو ذلك. ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قطُ ولا يحصل بذلك إمتثال أمر ولا حل صيد ولا ذبيحة ولا غير ذلك.

وقد يحصل للصوفى من ذكر الاسم المفرد ظاهرا أو ضميرا وجد لأن القلب قد يتحرك بغير ما هو مشروع وقد قال الصحابة للنبى صلى الله عليه وسلم أن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به. قال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان. وفى رواية قال الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة.

فالشيطان لما قذف فى قلوبهم وسوسة مذمومة تحرك الإيمان الذى فى قلوبهم بالكراهية لذلك والاستعظام له فكان ذلك صريح الإيمان ولا يقتضى ذلك أن يكون السبب الذى هو الوسوسة مأمورا به. قال تعالى: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل»(٣) فهذا الإيمان الزائد والتوكل كان سببه تخويفهم بالعدو وليس ذلك مشروعا. وقد يفعل العبد ذنبا فيورثه توبة.

وكما أن الذكر بالإسم المفرد غير مشروع فالذكر القلبى غير مشروع أيضا وذلك أن من الصوفية من جعل الذكر قلبيا فقط قالوا:

إذا ما خلونا والرقيب بمجلس فنحن سكوت والهوى يتكلم

---

(١) الأنعام ١٢١.
(٢) الأعلى ١.
(٣) الواقعة ٧٤.
(٤) آل عمران ٧٤.

فلا يحرك به لسانه اعتمادا على حديث: «خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى» وهو حديث غير صحيح كما جاء فى أسنى المطالب.

وقد قسم ابن تيمية الذكر إلى أربعة أقسام :

أحدها : الذكر بالقلب واللسان وهو المأمور به.

الثانى : الذكر بالقلب فقط فإن كان مع عجز اللسان فحسن وإن كان مع قدرته فهو ترك للأفضل.

الثالث : الذكر باللسان فقط. وهو كون لسانه رطبا بذكر الله وفيه ما روى أن الملائكة لم تجد فيه خيرا إلا حركة لسانه بذكر الله ويقول تعالى فى الحديث القدسى: «أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه».

الرابع : عدم الأمرين وهو حال الخاسرين(١).

والصياح بالذكر أيضا غير مشروع فقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه فيما روى عن أبى موسى. قال: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا أنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم(٢).

ومن البدع أيضا الذكر المقرون بالرقص والصراخ وربما يستدل من يأتيه بقوله تعالى : «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى

---

(١) الفتاوى ٥٦٦/١٠.
(٢) رواه مسلم.

جنوبهم» مما لم يقل به أحد من المفسرين والعلماء. ويروى بعضهم عن أبى بكر أنه رقص لما بلغه أن الله راض عنه وهو مما لا أصل له. وأن مثل ذلك داخل فى قوله تعالى: «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصديه»(١).

والإسلام يعتبر قراءة القرآن من الذكر لقوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(٢) ومن آداب سماع القرآن الاستماع والإنصات لقوله تعالى: «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون(٣).

ومن الذكر أيضا الصلاة على النبى وقد جاء فى الحديث من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا.

وقد جعل الصوفية للذكر وللصلاة على النبى مجالس لم يرض عنها العلماء جاء فى سنن الدارمى بسند صحيح. قال أبو موسى الأشعرى لعبد الله بن مسعود: يا أبا عبد الرحمن إنى رأيت فى المسجد آنفا أمرا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا قال: إن عشت فستراه قال رأيت فى المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة فى كل حلقة رجل وفى أيديهم حصى!! فيقول كبروا مائة... فيكبرون مائة فيقول هللوا مائة فيهللون مائة ويقول سبحوا مائة فيسبحون مائة. قال فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئا انتظار رأيك أو انتظار أمرك. قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسانتهم. ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك

---

(١) الأنفال ٣٥.

(٢) الحجر ٩.

(٣) الأعراف ٢٠٤.

الحلق فوقف عليهم فقال: ما هذا الذى أراكم تصنعون؟ قالوا يا أبا عبد الله حتى نعد بها التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن ألايضيع من حسناتكم شيء... قالوا والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه!!(١).

وقد جاء الذكر فى القرآن على عشرة أوجه:

١ - الأمر به مطلقا: «يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا»(٢).

٢ - النهى عن ضده من الغفلة والنسيان. «ولا تكونوا من الغافلين»(٣) «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم نفسهم»(٤).

٣ - تعليق الفلاح بالأكثار منه. «واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون»(٥).

٤ - الثناء على أهله وحسن جزائهم: «إن المسلمين والمسلمات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما»(٦).

٥ - خسران من لها عنه: «يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون»(٧).

٦ - جعل ذكره لهم جزاء ذكرهم له: «فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون»(٨).

---

(١) انظر التصوف بين الحق والخلق١٦٤. (٢) الأحزاب ٤١، ٤٤.
(٣) الأعراف ٢٤. (٤) الحشر ١٩.
(٥) الأنفال ٤٥، ٦٢. (٦) الأحزاب ٩.
(٧) المنافقون ٩. (٨) البقرة ١٥٢.

٧ - هو أكبر من كل شئ: «ولذكر الله أكبر»(١).

٨ - جعل ختم الأعمال الصالحة به: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله»(٢) «فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله»(٣).

٩ - الذاكرون أهل الانتفاع بآيات الله: «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا»(٤).

١٠ - قرين جميع الأعمال الصالحة: «وأقم الصلاة لذكرى»(٥) «إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون»(٦).

فالذكر مشروع ومطلوب غير أن طريقة بعض الصوفية فى كيفيته وأدائه شابها شئ من الابتداع.

وشرط الذكر فى الإسلام أن يكون مقترنا بالتفكير وتملك النفس ليكون فيه اعتبار للإنسان فلا ينبغى أن يتحول إلى انفعالات وحركات واضطرابات تسئ للغاية المرجوة منه جاء فى الحديث القدسى: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة(٧).

---

(١) العنكبوت ٤٥.
(٢) البقرة ٢٠٠.
(٣) البقرة ١٨٥.
(٤) آل عمران ١٩٠، ١٩١.
(٥) طه ١٤٠.
(٦) الأنفال ٤٥.
(٧) رواه الشيخان.

(ب) السـمـاع

نشب السماع بقلوب جماعة من الصوفية فآثروه على تلاوة القرآن ورقت قلوبهم عنده بما لا ترق عند القرآن. فهو عندهم قربة يروى المكى عن الجنيد أنه قال: تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواطن: عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند المذاكرة لأنهم يتجاورون فى مقامات الصديقين وأحوال النبيين وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا(١). حكى أبو الحسين الدراج قال دخلت على يوسف بن الحسين الرازى(٢). مسجده وهو قاعد فى المحراب يقرأ القرآن فطلب منى أن أنشده فأنشدت:

رأيتك تبنى دائما فى قطيعتى ولوكنت ذا حزم لهدمت ماتبنى

فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى إبتلت لحيته وثوبه حتى رحمته من كثرة بكائه. ثم قال يا بنى تلوم أهل الرى على قولهم يوسف بن الحسين زنديق ومن وقت الصلاة هو ذا أقرأ القرآن لم تقطر من عينى قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت(٣).

وسئل أبو سهل الصعلوكى وكان يعقد مجلسا للقرآن فجعله مجلسا للسماع لم ذاك فقال: من قال لأستاذه لم لم يفلح.

---

(١) تلبيس إبليس ٢٤٩ والأحياء ٢/٩٤.

(٢) أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى شيخ الرى والجبل فى وقته صحب ذا النون وأبا تراب النخشى مات ٣٠٤ هـ.

(٣) تلبيس إبليس ٢٤٨.

وهذا سوط يسلطه الصوفية على من يعترض عليهم مع أنه ما من أحد يسلم إليه حاله، والآدمى يرد عن مراداته بالشرع والعقل والبهائم بالسوط.

وأصل السماع هو الحداء ويروون فى أصل الحداء أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة إلى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال إن حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت إليكم فهل تدرون أنى كان الحداء؟ قالوا لا والله. قال إن أباهم مضر خرج إلى بعض رعانه فوجد إبله قد تفرقت فأخذ عصا فضرب بها كف غلامه فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح: يايداه يايداه . فسمعت الإبل ذلك فعطفت عليه فقال مضر لو اشتق مثل هذا لانتفعت به الإبل واجتمعت فاشتقت الحداء(١). وقيل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقال له انجشة يحدو فتعنق(٢) الإبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنجشة رويدك سوقا بالقوارير.

وفى حديث سلمة بن الأكوع خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لـ ر بن الأكوع ألا تسمعنا من هنياتك وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقول:

لا هـم لولا أنت ما اهتـدينا ... ولا تصـدقنا ولا صلينـا
فالقين سكينـة علينـا ... وثبت الأقـدام إذ لاقينـا

---

(١) تلبيس إبليس ٢٢٢.

(٢) العنق : نوع من السير سريع فسيح وفيه يقول الشاعر :

يا ناق سيرى عنقا فسيحا ... إلى سليمان فنستريحا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا السائق؟ قالوا عامر بن الأكوع فقال رحمه الله .

ولذا قال الشافعى: أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به فى الوقت الذى قال فيه خلفت فى العراق شيئا احدثته الزنادقة يسمونه التغيير يشغلون به الناس عن القرآن.

ويرى الصوفية أنه لا ينبغى لأحد أن ينكر السماع وأن فى إنكاره إنكارا على سبعين وليا، وحتى السماع المتكلف لا بأس به لأنه بمنزلة التباكى المندوب إليه.

وهذا القول ينطوى على تهديد من ينكر السماع بمخالفة الأولياء مع أن الأولياء غير معصومين فمخالفتهم واردة. وقد تقاتل أولياء الله فى صفين بالسيوف ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال سار أهل الجنة إلى أهل الجنة.

ويقسم بعضهم السماع فيقول الكتانى: سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام.

والسماع لقوم كالدواء ولقوم كالغذاء ولقوم كالمروحة(١).

وكانوا يشترطون الصدق فى السماع. قيل كان النصراباذى(٢) كثير الولوع بالسماع فعوتب فى ذلك فقال نعم هو خير من أن تقعد

---

(١) تلبيس إبليس ٢٢٤.

(٢) أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محموية النصراباذى شيخ خراسان فى وقته نيسابورى الأصل والمولد والمنشأ. صحب الشبلى وأبا على الروذبارى والمرتعش ثم خرج فى أخر عمره إلى مكة وأقام بالحرم مجاورا مات٣٦٧ هـ.

وتغتاب فقال له أبو عمرو بن نجيد(١) هيهات يا أبا القاسم زلة فى السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب الناس.

وليس أحد من الصوفية إلا وقد عشق السماع. يقول ابن القيم: للسماع عندهم محبة صادقة تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم ومزعج بواطنهم(٢).

والسماع إن كان سماع قرآن فهو مشروع ومطلوب بشروطه وآدابه لقوله تعالى: «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا»(٣) ومن أهم شروطه الإنصات والخشوع والتدبر قال تعالى: «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق»(٤) وقال: «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»(٥).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع القرآن، قال مرة لأبى اقرأ فقال اقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال أحب أن أسمعه من غيرى فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» فإذا عيناه تهملان.

---

(١) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن خالد السلمى جد السلمى -صاحب الطبقات- لأمه صحب أبا عثمان الحيرى مات ٣٢٦ هـ .

(٢) مدارج السالكين ٥٥٢/١ .

(٣) الزمر ٢٣ .

(٤) المائدة ٨٣ .

(٥) الزمر ٢٣ .

وأما إذا كان السماع لغير القرآن. فإذا كان سماع مكاء وتصدية ومعازف وتغزل فى المردان والنسوان فهو حرام وليس على الناس أضر منه ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه. وقد امتدح الله التاركين له والمعرضين عنه فى قوله: «وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه»[١] وقوله: «وإذا مروا باللغو مروا كراما»[٢] قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق فى القلوب كما ينبت الماء البقل وما اجتمع فى قلب عبد قط محبة للغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. والقرآن ثقيل على أهل الغناء لا يتحركون له ولا تقشعر منه جلودهم فإذا ما سمعوا الغناء خشعت منهم القلوب ووقع البكاء والوجد.

تلى الكتاب فأطرقوا لا خيفة	لكنـــه أطراق ساه لاهــى
وأتى الغنـاء فكالذباب تراقصوا	والله ما رقصـوا من أجـل الله
ثقـــل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييـــده بأوامـــر ونواهـــى
وعليهـــم خف الغنا لما رأوا	اطلاقه فى اللهـــو دون مناهى

وإذا كان السماع دون ذلك كأن يجتمع قوم فى مكان خال من الأغيار يذكرون الله ويتلون شيئا من القرآن ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئا من الأشعار المزهدة فى الدنيا المرغبة فى لقاء الله ومحبته ورجائه والدار الآخرة وينبههم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة أو بعد أو انقطاع أو تأسف على فائدة أو تدارك لفارط أو وفاء بعهد أو تصديق بوعـــد أو ذكر قلق وشـــوق أو خوف فرقة

---

(١) القصص ٥٥.

(٢) الفرقان ٧٢.

أو صد وما جرى هذا المجرى فهو السماع الذى اختلف فيه العلماء وولع به الصوفية. قيل لأبى الحسين بن سالم كيف ينكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى(١) وذو النون يسمعون؟ فقال كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى(٢) . ونقل عن الجنيد رأيت إبليس فى النوم فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشئ؟ فقال إنه يعسر على شأنهم إلا فى وقتين قلت أى وقت؟ قال: وقت السماع وعند النظر فإنى استرقى منهم فيه وأدخل عليهم به قال: فحكيت رؤياى لبعض المشايخ فقال لو رأيته قلت له يا أحمق من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر أتربح أنت عليه شيئا أو تظفر منه بشئ؟ فقلت صدقت(٣).

ويحتجون للسماع بقوله تعالى: «يزيد فى الخلق ما يشاء»(٤) ويقولون المراد: الصوت الحسن. ويروون عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن من الشعر لحكمة. ودخل رجل عليه صلى الله عليه وسلم وعنده قوم يقرأون القرآن وقوم ينشدون الشعر فقال يا رسول الله قرآن وشعر فقال من هذا مرة ومن هذا مرة. وأنه سمع إلى النابغة قوله:

ولاخير فى حكم إذا لم يكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكـــدرا
ولاخير فى أمر إذا لم يكن له ... حكيم إذا ما أورد الأمر أصـــدرا

فقال له رسول الله أحسنت أبا ليلى لا يفضض الله فاك فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس ثغرا.

---

(١) سرى بن المغلس السقطى يقال إنه خال الجنيد وأستاذه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال مات ٢٥١.

(٢) عوارف المعارف ١٤٢.   (٣) السابق ١٤٥ .

(٤) فاطر ١ .

وقد أورد ابن القيم الكثير من أدلتهم(١). من أهمها حديث القينتين. وحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع للشعر ويهتز له ودعا لحسان أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه وكان يعجبه شعره وقال له أهجهم وروح القدس معك. وقياسا على أباحة أصوات الطيور المطربة الشجبة وأن فيه تنشيط روح السامع وقلبه وإن التذاذ الأذن بالأصوات كالتذاذ العين بالمنظر الحسن والشم بالروائح الطيبة والفم بالطعوم الطيبة فإن كان هذا حراما كانت جميع اللذات والإدراكات حراما.

ويجيب ابن القيم على كل ذلك(٢) بأنه حيدة عن المقصود وروغان عن محل النزاع وتعلق بما لا تعلق به فإن وجهة كون الشئ مستلذا للحاسة ملائما لها لا يدل على أباحة ولا تحريم ولا كراهة ولا استحسان فإن هذه اللذات تكون فيما فيه الأحكام الخمسة تكون فى الحرام والواجب والمكروه والمستحب والمباح فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شرط الدليل ومواقع الاستدلال؟ وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة وإن لذته لا ينكرها من له طبع سليم.

وأعجب من هذا الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب وهو زيادة نعمة منه لصاحبه فيقال والصورة الجميلة أليست زيادة فى النعمة أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها على الإطلاق.

أما الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة فما أجدر صاحبه أن

---

(١) مدارج السالكين ٥٢٥/١ .

(٢) السابق ٥٢٧/١-٥٢٠ .

يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمرا وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير.

واستحسان الرسول الصوت الحسن بالقرآن وأذنه له وأذنه فيه ليس منه سماع الصوفية بأشعار تحتوى على منكر من القول، كما أنه لا مستند لهم فى سماعه صلى الله عليه وسلم للحداء وجيد الشعر فما كان من هذا القبيل فهو مباح.

ومن أحله بناء على سماع أصوات الطيور اللذيذة كان كمن قال إنما البيع مثل الربا.

وليكن الحكم على سماع الصوفية بما يترتب عليه من مفاسد أو منافع وقد شاهد الناس أن ما عاناه أحد إلا وانحرف. روى فى حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت ويل عند مصيبة وصوت مزمار عند نعمة.

والخلاصة أن السماع نوعان: سماع يؤثر وسماع ينكر.

فالسماع الذى يؤثر سماع القرآن وسماع الشعر الجيد والحداء وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شعرا واستجاده وسمع الحداء وأذن فيه وكان يسمع إنشاد الصحابة وهم يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة وحدا به الحادى فى منصرفه من خيبر فدعا لقائله، وسمع قصيدة كعب بن زهير وأجازه ببردة.

والسماع الذى ينكر هو سماع ما عدا ذلك من شعر وغناء وهو داخل فى قوله تعالى: «ومن الناس من يشترى لهو الحديث»(١) قال عبد الله ابن مسعود هو الغناء والاستماع إليه، وفى قوله تعالى: «وأنتم سامدون»(٢) . أى مغنون رواه عكرمة عن عبد الله بن عباس وهو الغناء وبلغة حمير يقول أهل اليمن سمد فلان إذا غنى.

يقول ابن تيمية: والقرون التى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع وإنما كان السماع الذى يجتمعون عليه سماع القرآن وهو الذى كان الصحابة من أهل الصفة وغيرهم يجتمعون عليه. وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج على أهل الصفة وفيهم قارئ يقرأ فجلس معهم وكان عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون.

---

(١) لقمان ٦ .
(٢) النجم ١١ .

(جـ) الوجـــد

غالبا ما يتمخض السماع عند بعض الصوفية عن وجد، فكانوا إذا ما سمعوا الغناء تواجدوا وصفقوا وصاحوا ومزقوا الثياب ولهم فى ذلك قصص وحكايات. كانوا يتواجدون كثيرا عند سماعهم:

رق الزجاج وراقت الخمـــر   فتشـــابها فتشـــاكل الأمـــر
فكأنهـــا خمـــر ولا قدح   وكأنمـــا قـــدح ولا خمـــر

وكان الشبلى يتواجد كلما سمع:

وداركم هجـــر وحبكم قلى   ووصلكم حرم وســـلمكم حرب

ويروى أن أبا الفتح الصوفى سمع:

وجهـــك المأمـــول حجتنـــا   يوم يأتى النـــاس بالحجـــج

فتواجد وصاح ودق صدره إلى أن أغمى عليه وسقط فلما انقضى المجلس حركوه فوجدوه قد مات فغسلوه ودفنوه.

وهذا البيت الذى قتل صوفيا هو من قصيدة غزل حسى مما كان شائعا فى العصر العباسى لشاعر اسمه عبد الصمد بن المغذل جاء فيها:

إن بيتـــا أنت ســـاكنه   غيـــر محتـــاج إلى الســـرج
يا بديـــع الدل والغنـــج   لك ســـلطان على المهـــج
وجهـــك المأمول حجتنـــا   يوم يأتى النـــاس بالحجج(١)

---

(١) التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ٢٢١/٤ .

كما يروى أن ابن الفارض(١) خر مغشيا عليه بعد أن تواجد ورقص وخلع ثيابه لسماعه جماعة يضربون بالناقوس ويغنون(٢).

وحكايات كثيرة تذكرها كتب التصوف منها أن ذا النون سمع قوالا ينشد:

صـغير هواك عذبنى ... فكيـف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبى ... هوى قد كان مشتركا
أما ترثـى لمكتئب ... إذا ضحك الخـلى بكى

فتواجد وسقط والدم يقطر من جبهته ولا يقع على الأرض(٣)

وهم يحللون الوجد ويعللونه بمثل قول رويم عندما سئل عن وجد الصوفية عند السماع فقال ينتهون للمعانى التى تغرب عن غيرهم فيشير إليهم (إلى) فيتنعمون بذلك من الفرح ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاء فمنهم من يمزق ثيابه ومنهم من يبكى ومنهم من يصيح، والمستمع بين استتار وتجل فالاستتار يودث التلهب وتتولد عنه حركات والتجلى يورث المزيد ويتولد منه السكون.

ويرون أن الوجد سـر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات

---

(١) عمر بن الفارض ولد وعاش فى القاهرة ثم هاجر إلى مكة وبقى فيها خمسة عشر عاما ثم عاد إلى القاهرة وتوفى فيها عام ٦٢٢ هـ .

(٢) أمراء الشعر فى العصر العباسى ٢٧٣ .

(٣) عوارف المعارف ١٤٦ وينقل ابن الجوزى فى تلبيس إبليس الكثير من تلك الحكايات .

الظاهر وصفات الظاهر الحركة والسكون وصفات الباطن الأحوال والأخلاق.

وكما يحللونه ويعللونه يستدلون عليه بقوله تعالى: «وإذا سمعوا... الآية»(١) وقوله تعالى: «تقشعر منه جلود.. الآية»(٢). وليس في الآيتين دليل إلا مع التكلف الشديد لأن ما يأتونه في تواجدهم أكثر من مجرد أن تدمع العين ويقشعر الجلد.

كما يستدلون بما يروونه عن أنس قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل فقال يا رسول الله: إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هل فيكم من ينشدنا فقال بدوى نعم يا رسول الله فقال هات فأنشد الأعرابى:

قد لسعت حية الهوى كبدى ... فلا طبيب لها ولا راقى
ألا الحبيب الذى شغفت به ... فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه فقال معاوية بن أبى سفيان: ما أحسن لعبكم يا رسول الله. فقال له يا معاوية ليس الكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب. يقول صاحب عوارف المعارف عنه: يخالج سرى أنه غير صحيح(٣). ويقول ابن تيمية حديث مكذوب موضوع باتفاق من أهل العلم بهذا الشأن(٤).

---

(١) المائدة ٨٣ .
(٢) الزمر ٩ .
(٣) عوارف المعارف ١٦٠ .
(٤) انظر الفتاوى ٥٦٢/١١ .

وأظهر منه كذبا حديث آخر يذكرون فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا وفرقوا ثيابهم وأن جبريل نزل من السماء فقال يا محمد أن ربك يطلب نصيبه من هذه الخرق فأخذ منها خرقة فعلقها وأن ذلك هو زيق الفقراء.

وينقل عنهم ابن الجوزى أنه لما نزل «وإن جهنم لموعدهم أجمعين»(١) صاح سلمان الفارس صيحة ووقع على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة أيام ويعلق عليه بأن ذلك محال وكذب وليس له إسناد والآية نزلت بمكة وسلمان أسلم بالمدينة.

ويذكر الغزالى أن كثيرين من الصحابة تواجدوا منهم من صفق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات. ويروون أن زرارة بن أوفى -وكان من التابعين- كان يؤم الناس بالرقة فقرأ «فإذا نقر فى الناقور»(٢). فصعق ومات فى محرابه، وسمع عمر رجلا يقرأ «إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع»(٣) فصاح وخر مغشيا عليه فحمل إلى بيته فلم يزل مريضا فى بيته شهرا. وسمع الشافعى قارئا يقرأ « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون»(٤) فغشى عليه. ولا أثر لهذه الروايات عند أهل العلم ولا علماء الحديث والتفسير مما يدل على وضعها.

وقد يحدث التواجد من القرآن ولكن حده كما جاء أن تدمع العين ويقشعر الجلد ويلين القلب وكما ورد فى حديث العرباض بن

(١) الحجر ٤٣ .
(٢) المدثر ٨ .
(٣) الطور ٧ ، ٨ .
(٤) المرسلات ٣٥ ، ٣٦ .

سارية وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة زرفت منها العيون ووجلت منها القلوب قال أبو بكر الآجرى ولم يقل صرخنا ولا ضربنا صدورنا.

يقول ابن الجوزى بعد أن أورد الكثير من تواجد الصوفية: أعلم وفقك الله أن قلوب الصحابة كانت أصفى القلوب وما كانوا يتزيدون عند الوجد على البكاء والخشوع.

قال حصين بن عبد الرحمن قلت لأسماء بنت أبى بكر كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قراءة القرآن قالت: كانوا كما ذكرهم الله تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم فقلت: أن هاهنا رجالا إذا قرئ على أحدهم القرآن غشى عليه فقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم(١). وقال أنس وعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فإذا رجل قد صفق فقال النبى صلى الله عليه وسلم من ذا الملبس علينا أن كان صادقا فقد أشهر نفسه وإن كان كاذبا محقه الله.

ومما احتجوا به قوله تعالى لأيوب عليه السلام: «أركض برجلك»(٢) يقول ابن الجوزى: وهذا احتجاج بارد لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء. قال ابن عقيل أين الدلالة فى مبتلى أمر عند كشف الجلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء أعجازا أين الدلالة على الرقص؟

كما احتجوا بما يروونه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال

---

(١) تلبيس إبليس ٢٨٠.

(٢سورة ص ٤٢ .

لعلى: أنت منى وأنا منك فحجل وقال لجعفر أشبهت خلقى فحجل وقال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل ومنهم من احتج بأن الحبشة زفنت والنبى ينظر إليهم. والحديث -أن صح- لا دليل فيه لأن الحجل غير الرقص والزفن نوع من المشى يفعل عند اللقاء فى الحرب فأين هو من الرقص الصوفى.

وغاية ما يقال لهؤلاء أن نردد على مسامعهم ما قاله عبد الله بن الزبير لابنه: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن ولا يصيبهم هذا أفترى من يتواجد ويسقط مغشيا عليهم أخشع لله من أبى بكر وعمر(١)، أو ما قاله محمد بن سيرين وقد سئل عن هؤلاء المتواجدين الذين يغشى عليهم ويتساقطون ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم من أوله إلى آخره فإن سقط فهم كما يقولون. وقيل لأنس بن مالك إن ناسا إذا قرئ عليهم القرآن يصعقون فقال: ذلك فعل الخوارج.

وإذا كان هذا موقف العلماء تجاه التواجد لسماع القرآن فإن موقفهم تجاه التواجد لسماع الشعر أشد إنكارا ورفضا.

على أن من الصوفية أنفسهم من كان ينكر هذا التواجد ويرفضه ومن عباراتهم فى ذلك «الرقص نقص» «وكم من حركات موجبة للمقت ونهنهات تذهب رونق الوقت» وقال الجنيد إذا رأيت المريد يطلب السماع فإعلم أن فيه بقية بطالة(٢) فكانوا يعتبرون التواجد ضعفا قال بعض أصحاب سهل صحبت سهلا سنين ما رأيته تغير عند

---

(١) تلبيس إبليس ٢٥٤.

(٢) عوارف المعارف ١٥٠ .

شئ كان يسمعه من الذكر والقرآن فلما كان آخر عمره قرئ عنده «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية»(١) فارتعد وكاد يسقط فسأله عن ذلك فقال نعم لحقنى ضعف وقال مثل ذلك عندما اضطرب لسماعه «الملك يومئذ الحق للرحمن»(٢).

يقول ابن تيمية حال من لم يتواجد أفضل من حال من تواجد كما أن حال نبينا صلى الله عليه وسلم حين أسرى به إلى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله أفضل من حال موسى صلى الله عليه وسلم الذى خر صعقا لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة علية فاضلة لكن حال محمد صلى الله عليه وسلم أكمل وأعلى وأفضل(٣).

والخلاصة أن التواجد إن كان من سماع القرآن فلا بأس به. وحده ذكره الله تعالى: «وجلت قلوبهم» «ترى أعينهم تفيض من الدمع» «تقشعر جلود الذين يخشون ربهم» «تلين جلودهم وقلوبهم» وإن كانت من الشعر فإما أن يكون شعر حرب وحداء وما شابهه فلا بأس به أيضا وينبغى ألا يتجاوز الوجد فيه ما ذكر وإن كان شعر غزل وخمر فسماعه لغو والتواجد منه باطل. وهو الذى قال فيه سليمان بن عبد الملك هدر الجمل فضبعت الناقة، وهب التيس فشكرت الشاة، وهدل الحمام فزافت الحمامة، وغنى الرجل فطربت المرأة.

وأما ما يستدلون به عليه من أنه جاء فى الإنجيل : غنينـــا لكم

(١) الحديد ١٥ .
(٢) الفرقان ٢٦ .
(٣) الفتاوى ١٢/١١ .

فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا فالمقصود أناشوقناكم بذكر الله فلم تشتاقوا(١).

هذا ولعلم النفس وعلمائه رأى فى وجد الصوفية وتواجدهم إذ يعتبرونه نوعا من المرض النفسى ينشأ عن اضطراب فى الشخصية يحدث عند وجود انفعالات متناقضة نتيجة مؤثرات مختلفة ليس من جملتها التدين أو التقوى. فمن يتأمل سلوك الصوفية حالة الوجد يجد مزاجا مركبا بين حالتى الفرح والهلع أو بين السرور والحزن مما يعرف عند المحدثين بالمزاج (الميلو درامى) وهو لون من الخلل السلوكى فى مقومات الشخصية يتضح عند اقتران فعل الغناء فى الوجد بالبكاء والرقص بتمزيق الثياب.

ولكن نرى أن ذلك أن صدق على بعضهم فإن بعضا آخر منهم صادق الوجد والتأثر بدليل ما يحسه ويشعر به الواحد منا ساعات الصفاء مع ربه عند تلاوة كتابه وهؤلاء لا يزيد وجدهم عما وصف الله أمثالهم عند سماع القرآن.

وبعد: فهذه المصطلحات -الذكر والسماع والوجد- لم تعرف فى عهد الرسول وصحابته بتلك المعانى والطقوس التى عرفت بها عند الصوفية. وإنما كان الوجد أن تدمع العين ويقشعر الجلد ويلين القلب وخير السماع سماع القرآن وأفضل الذكر لا إله إلا الله.

---

(١) الأحياء ٢/٢٩٤ .

٢ - الشيخ ومتطلباته

(أ) الشـــيخ

أساس كل طريقة فى التصوف هو الشيخ، وما تفرقت الطرق إلا تبعا للشيخ، وتسمى كلها باسم مشايخها ومؤسسيها فلا تصوف بدون مشيخة يقول الغزالى:

المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة... فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ولا يخالفه فى ورده ولا صدره... وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه -لو أخطأ- أكثر من نفعه فى صوابه لو أصاب فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على شيخه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين(١).

وليس هذا رأى الغزالى وحده بل معتقد معظم الصوفية مثل الشيخ عبد القادر الجيلانى الذى يرى أن «من لم يعتقد فى شيخه الكمال لا يفلح أبدا» والشعرانى الذى يذهب إلى أنه «إذا لم يتيسر للمريد صلاة الجمعة عند أستاذه فليتخيله عنده فى أى مسجد صلى فيه، أما ابن عربى فيساوى حرمة الشيخ بحرمة الله فيما أنشد:

ماحرمة الشيخ إلا حرمة الله فقـــم بهـــا أدبا لله بالله

ويقول عدى بن مسـافر(٢): «لا تنتفـع بشيخك إلا إذا كان

---

(١) الأحياء ٦٥/٢ .

(٢) تلميذ عبد القادر الجيلانى وشيخ الطريقة العدوية المعروفة الآن بالزيدية .

اعتقادك فيه فوق كل اعتقاد». ويرى البسطامى أن الشيخ إذا أمر المريد بأمر من أمور الدنيا ووجبت الصلاة وسمع الأذان فدخل المريد ليصلى قبل تلبية أمر شيخه فقد وقع فى بئر لا يتبين أسفلها، ولذلك ينبغى أن نحذر المريد من تأويل كلام شيخه عن ظاهره بل يبادر إلى فعله من غير تأويل(١) مع أن كلام الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم مما يجرى عليه التأويل عندهم ويقول أحدهم لمريده أن لم تفلح على يدى لا فلاح لك قط(٢). مع أن الله تعالى يقول: «قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون (٣)... الآيات.

والشيخ -عندهم - فوق أنه شخص يجب أن يسلم نفسه إليه فهو معنى يجب أن يتمثله المريد ويطبع نفسه عليه، وبدون ذلك لا يكون المريد صادقا فى سلوكه ولا مخلصا فى طريقه، ولن يظفر بالوصول مهما أفرغ جهده فى العبادات وبذل وسعه فى الطاعات.

ومثل المريد بدون شيخ فى نظرهم كمثل زرع همل لم تتعهده يد زارع أمين بحرث أو سقى فإنه لن يؤتى أكله وإن أعطاه فلن يكون طيبا. قال أبو على الدقاق: «الشجرة إذا نبتت من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر وأن أثمرت فلن يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين(٤).

---

(١) انظر : الأنوار القدسية ١٧٤/١ ، ١٨٨ ، ٩٧/٢ الحقيقة التاريخية ٢٤٣ .

(٢) الفتح الربانى ٢٧١ .

(٣) المؤمنون ١-١١ .

(٤) عوارف المعارف ٢٧/٢ .

ويستدل الصوفية على المشيخة بما يرويه السهروردى عن الرسول صلى الله عليه وسلم.. والذى نفسى محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم أن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ويحببون عباد الله إلى الله ويمشون على الأرض بالنصيحة» ويقول: إن هذا الذى ذكره الرسول هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة ويحبب عباد الله إلى الله. كما يستدلون بقوله تعالى: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده»(١) فالشيوخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم وجعلوا ائمة المتقين. ويوردون أيضا قوله تعالى: «بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم»(٢). وقوله: «واتبع سبيل من أناب إلى»(٣) فلزمت المشيخة لهذه الآيات وغيرها، لا سيما والصحابة أخذوا عن النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ هو عن جبريل واتبع إشارته أن يكون عبدا نبيا وأخذ التابعون عن الصحابة.

ولكن هذه الآيات التى أوردوها عامة وليست خاصة بالمشيخة الصوفية ولا بشيوخهم فالآية الأولى وردت فى القرآن حق الأنبياء عليهم السلام إذ أوردت بعد ذكر ثمانية عشر نبيا أوردتهم آية «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه»(٤) وما بعدها من آيات أخبر الحق بعد ذكرهم أنهم هم الذين هدى الله وأوجب الاهتداء بهديهم لذلك، وقل مثل ذلك فى بقية ما استشهدوا به من آيات.

والأنبياء وحدهم هم الذين يجب اتباعهم فى كل ما دعوا إليه وغير الأنبياء يؤخذ من قولهم ويرد ولو كان ذلك شيخا صوفيا.

---

(١) الأنعام ٩٠ .

(٢) العنكبوت ٤٩ .

(٣) لقمان ١٥ .

(٤) الأنعام ٨٣ .

فإن قيل العبرة فى الآيات لعموم المعنى لا لخصوص السبب فلا معنى عندئذ لتخصيص ذلك بشيوخ الصوفية دون غيرهم.

ويورد السهروردى فى عوارفه جملة من الأحاديث تشيد بالمشيخة الصوفية وتبين ضرورتها ووجوب اتباع شيوخها.

كما يحاول أن يستدل على ضرورة المشيخة والشيخ بأدلة تبدو وكأنها علمية عندما يتحدث عن البرودة واليبوسة فى النفس الإنسانية وأن الشيخ يزيل يبوسة هذه النفس ويلينها بحرارة الروح الواصلةحتى تلين نفس المريد «ثم تلين جلودهم وقلبهم لذكرالله »(١).

ولا يزال الشيخ بالمريد حتى يصير المريد جزء شيخه كما إن الولد جزء والده ويولد المريد ولادة معنوية وقد ولد من قبل ولادة طبيعية يقول عيسى عليه السلام «لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين» وبالولادة الطبيعية يصير له ارتباط بعالم الملك وبهذه الولادة الصوفية يصير له ارتباط بعالم الملكوت كما أنه بها يستحق ميراث الأنبياء «وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين»(٢). ومن لم يحصل له ذلك فقد أسدل دونه الحجاب.

والولادة المعنوية أفضل وأحق بالاختصاص من الولادة الطبيعية من جانب الشيخ ومن جانب المريد يقول السهروردى: ولدى من سلك طريقى واهتدى بهديى».

فضرورة الشيخ تنبع من حاجة المريد إلى من يتولى نفسه ويرعاها ويهذبها ويعـرفها بمـا يتطلبه الوقت من الآداب لأن للنفس

---

(١) الزمر ٢٢ .

(٢) الأنعام ٧٥ .

حظا كبيرا فى مقام البسط والإدلال والتأله على صاحبها فإذا وجدت صاحبها غشوما بما يطلبه منه الوقت أوقعته فى مهاوى التلف ومن هنا كان الشيخ ضرورة لا محيص عنها كما صحب السلف الصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبوا الصحابة فكان أمرهم فى غاية الاستقامة ظاهرا وباطنا.

والسالك إلى الله تعالى عن طريق الكتاب والسنة من غير شيخ مرشد كالمريض إذا كلف نفسه معالجة نفسه ومداواتها فإنه وإن شفى بذلك لا يكون كمن أسلم نفسه المريضة لطبيب حاذق يقوم عليها. هذا أن سلم السالك من البدع فى سلوكه ظاهرا وباطنا وإلا فهو هالك لا سالك، وقلما يسلم سلوكه من نفس أمارة بالسوء(١).

فالشيخ يحمى السالك من رعونة نفسه يهيئه لثمرات الطريق ويجعل منه أرضا خصبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، لأن الأمر جلل والطريق ضيق وعقباته خطيرة ومن هنا فإن الشيخ ضرورة.

والولادة المعنوية بين المريد وشيخه تمر بمراحل الولادة الطبيعية فلها أوان ارتضاع وأوان فطام وأوان الارتضاع هو أوان لزوم الصحبة للشيخ ولا تنقطع هذه الصحبة إلا بعد علم الشيخ بأنه آن له أوان الفطام، قال تعالى: «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم»(٢). وأى شئ جامع -كما يقولون- أعظم من أمر الدين فلا يأذن الشيخ للمريد بالمفارقة إلا بعد علمه

---

(١) التصوف الإسلامى بين الأصالة والاقتباس ٢١٦.
(٢) النور ٦٢.

بأنه آن له أوان الفطام وأنه يقدر أن يستقل بنفسه واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى.

واشترطوا للمريد أن يطيع شيخه طاعة عمياء «كالميت بين يدى المغسل».

كما أن من مبادئهم وجوب الالتزام بشيخ واحد لا يجالس سواه ولا يتعلم من غيره، وقد بالغ الصوفية فى ذلك، وأخذوا يرهبون أتباعهم من تعدد الشيوخ حتى قالوا «المريد بين شيخين كالمرأة بين الرجلين» ويروى الشعرانى عن أحدهم قوله: «فكما أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن يشرك بها»(١).

والشيخ واقف مع مراد الله تعالى والمريد واقف مع نيته والشيخ فى مقام المقربين والمريد فى مقام الأبرار، ووظيفة المريد خدمة عباد الله والخدمة فى حقه أفضل من التقرب إلى الله بالنوافل لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بطعام وهو بمر الظهران فقال لأبى بكر وعمر كلا فقالا إنهما صائمان فقال: ارحلا لصاحبيكما اعملا لصاحبيكما أدنوا فكلا يعنى أنكما ضعفتما بالصوم فكلا واخدما أنفسكما، وحديث أنس كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا منزلا فى يوم حار شديد الحر فمنا من يتقى الشمس بيده وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به فنام الصائمون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول الله ذهب المفطرون اليوم بالأجر.

---

(١) الأنوار القدسية ١٨٧/١.

ولا بد أن تكون خدمة المريد لشيخه خالصة بنية صادقة لا يشوب خدمته غرض أو هوى ولا ينتظر محمدة ولا ثناء ولذلك يفرقون بين المتخادم والخادم، فإذا شاب النية هوى أو غرض فصاحبها متخادم وليس خادما ولا يميز بين الخادم والمتخادم إلا الشيخ نفسه.

وعلى الشيخ أن يأخذ بيد المريد ويدله على الطريق ويعلمه التوبة والزهد ويلقنه الأوراد والأذكار والدعوات والصلوات الخاصة ويلبسه الخرقة ويأخذ عليه العهد أو البيعة تشبيها ببيعة الرضوان «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسوف يؤتيه أجرا عظيما»(١). وروى عبادة بن الصامت قال أخبرنى أبى عن أبيه قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وألا ننازع الأمر أهله وأن نقول الحق حيث كنا ولا نخاف فى الله لومة لائم.

والمريد الصادق إذا تأدب بأدب الشيخ سرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج وينتقل كلام الشيخ إلى باطن هذا المريد ولا يكون ذلك إلا لمريد انسلخ من إرادة نفسه وفنى فى الشيخ بترك الإختيار حتى يفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ والخرقة مقدمة ذلك.

وغير خاف ما تفيض به هذه العبارات من المبالغة والادعاءات فى الانتقال التلقائى أو ما يسمى «التلباثى» والتناغم والتجاوب الروحى بين الشيخ والمريد.

---

(١) الفتح ١٠.

ومن ذلك ما نسمعه من أن بعض شيوخ الصوفية ينفقون من الغيب. الأمر الذى حفز الناس إلى الدخول فى التصوف للحظوة بهذه الخاصية فيذكر الجبرتى مثلا عن أحد هؤلاء الشيوخ(١) أنه كان ينفق من الغيب لأنه لم يكن له أيراد ولا ملك ولا وظيفة ولا يتناول من أحد شيئا وينفق أنفاق من لا يخشى الفقر وإذا مشى فى السوق تعلق به الفقراء فيعطيهم الذهب والفضة وإذا دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه.

والرسول نفسه صاحب الدعوة والصحابة والتابعون خير هذه الأمة لم يتح لهم أو يعرف عنهم مثل هذا والصوفية يقولون ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ولكن إذا عرفنا ما كان يدفعه الأثرياء إلى هؤلاء وبلا حساب عرفنا سر الإنفاق من الغيب.

والشيوخ أنواع: شيخ التعليم وتكفى عنه الكتب للبيب حاذق، وشيخ التربية وتكفى عنه الصحبة لذى دين عاقل ناصح، وشيخ الترقية ويكفى عنه اللقاء والتبرك.

ولا مشاحة فى اتخاذ الشيوخ والجلوس إليهم والتعلم منهم، ولكن المشاحة فى إختصاص أن يكون الشيخ صوفيا وفى ضرورة الالتزام بشيخ واحد لا يجالس سواه ولا يتعلم من غيره كما أن المشاحة أيضا فى اعتقاد أن شيخ الطريقة معصوم لا يخطىء وأنه بمنزلة أمين الوحى جبريل «فيكون كلامه بالحق من الحق فالشيخ للمريدين أمين الالهام كما أن جبريل أمين الوحى» فمن أعتقد أن الاشياخ معصومون فقد أعظم الفرية.

---

(١) الشيخ محمد الكلينى الأزهرى انظر عجائب الأثار ١٩٦/٢.

والمشاحة أيضا فى الاذكار التى يعلمها الاشياخ لمريديهم وهى مما لم يعهد عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف الصالح.

آداب المريد مع شيخه.

من هذه الآداب :

* توقير الشيخ وتعظيمه ظاهرا وباطنا، وألا يلتفت إلى شيخ آخر وإلا أنسد عليه باب الفيض.

* أن يكون مستسلما للشيخ راضيا بتصرفاته يخدمه بالمال والبدن لأن جوهر المحبة لا يتبين إلا عن طريقهما.

* ألا يعترض عليه فيما يفعله ولو كان ظاهره حراما، ومن قال لشيخه لم -لم يفلح أبدا فقد تصدر من الشيخ صورة مذمومة فى الظاهر وهى محمودة فى الباطن(١).

* ألا يكون مراده باجتماعه على شيخه شيئا غير التقرب إلى الله.

* أن يسلب اختيار نفسه بإختيار شيخه حتى لو قال له: ألق نفسك فى النار لألقاها.

* ألا يتجسس على أحوال شيخه فربما كان فى ذلك هلاكه كما وقع لكثيرين.

---

(١) يقول ابن عربى: «وكم من رجل رفع كأس خمرة بيده إلى فيه وقلبه إلله فى فيه عسلا والناظر يراه شرب خمرا وهو ما شرب إلا عسلا» ويقول: وهذه كانت أحوال قضيب البان وقد عاينا هذا فى أشخاص مرارا. مدارج السلوك ٨٦ ويقولون: الاعتراض من الجحيم وما أرينا ولا سمعنا فقيرا أخذ بالميزان على دائرة شيخه إلا خذله الله. السابق والصفحة.

* أن يحفظ شيخه فى غيبته كحفظه فى حضوره وإن يلاحظه بقلبه فى جميع أموره.

* ألا يكتم على شيخه شيئا من الأحوال والخواطر والواقعات والكشوفات والكرامات.

* ألا يتطلع إلى فتوى أو تعبير رؤيا.

* ألا يفشى لشيخه سرا وإن نشر بالمناشير.

* ألا يتزوج امرأة رأى شيخه مائلا إليها أو امرأة طلقها شيخه أو مات عنها.

* ألا يشير على شيخه برأى إذا استشاره بل يرد الأمر إلى شيخه اعتقادا منه أنه أعلم منه بالأمور.

* أن يتفقد عيال شيخه إذا غاب.

* إذا وجد فى نفسه عجبا بأعماله واستحسانا لحاله فليذكره لشيخه.

* أن يجعل رأس ماله الصدق فالإجماع قائم على أن المريد لو صح له كمال الانقياد مع شيخه ربما وصلت إلى ذوقه حلاوة معرفة الله فى مجلس واحد من أول إجتماع به.

* ألا ينقص اعتقاده فى شيخه إذا رآه نقص عن مقامه بكثرة نومه فى الأسحار أو ورعه أو غير ذلك فقد يكون ذلك من الشيخ امتحانا وتعليما للمريد فيجب على المريد ألا يغير اعتقاده فى شيخه وقد قالوا: زلات المقربين رفعة لمقاماتهم، واستدلوا على ذلك بالأكل من الشجرة ثم كان بعده الاجتباء والاصطفاء.

* ألا يكثر الكلام فى حضرة شيخه ولو باسطه بالكلام، ولا يجلس متربعا ولا على سجادة أمام الشيخ بل ينبغى التواضع والتصاغر.

* الفرار من مكاره الشيخ فيكره ما يكره ولا يجالس من كان يكرهه الشيخ. وأن يصبر على جفوته ولا يلح فى أمر ولا يسافر ولا يتزوج ولا يفعل مهما ألا بإذنه.

* ألا ينقل من كلام الشيخ عند الناس إلا بقدر إفهامهم وعقولهم.

* إذا قرب المريدون من منزل شيخهم رفعوا أصواتهم بالهيللة والذكر فلا يزالون كذلك حتى يصلوا إليه ثم يقبلون يد الشيخ ورجله وخلاصة كل هذه الآداب ما قاله ذو النون «طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه»(١).

وإذا كانت هذه بعض آداب المريد مع شيخه فإن على الشيخ أن يحذر أن يصيبه التكبير والغرور من إقبال الناس عليه وكثرة المريدين بين يديه.

والمتأمل لهذه الآداب والوصايا يجد أن بها كثيرا من المبالغة مثل استسلام المريد وما يتبع ذلك لأن الشريعة أقرت المراجعة وتصويب الخطأ وقد اعترض عمر بن الخطاب على الرسول صلى الله عليه وسلم حين أراد الصلاة على رأس المنافقين عبد الله بن سلول وقصته فى ذلك مشهورة، وراجعت امرأة عمر واعترف بخطئه ، وراجع

---

(١) تنوير القلوب فى معاملة علام الغيوب ٥٢٨-٥٢١، فى التصوف الإسلامى وتاريخه للدكتور أبو العلا عفيفى ص٧٨.

الصحابة الرسول فيما لم يوح به إليه وكان يرجع إلى رأيهم أحيانا، وكل واحد يؤخذ من قوله ويرد إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وتحريم زواج المريد بمن أرادها الشيخ لنفسه أن قبل فغير مقبول تحريم مطلقة شيخه عليه أو أرملته لأن ذلك ليس إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين.

وكذا اعتقاد المريد فى شيخه ولو رآه يأتى بما يخالف الشريعة فقد ذكروا أنه لو رأى شيخه يزنى(١) فلا يعترض ولا يغير اعتقاده فيه. مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان.

ومع ذلك فإنه يوجد فى تلك الآداب جملة طيبة ينبغى أن يتحلى بها كل تلميذ مع أستاذه ومريد مع شيخه مثل الاحترام والتواضع والإخلاص وحفظ الأسرار والإقلال من الكلام وغير ذلك مما هو حقا من آداب الإسلام.

فقضية الشيخ عند الصوفية فيها جوانب ايجابية كثيرة وفيها جوانب سلبية. واتخاذ الشيخ بوجه عام أمر مقرر فى الشريعة

---

(١) يذكر أن مريدا رأى شيخه يزنى بامرأة فلم يتغير عن خدمته وقد عرف الشيخ أنه رآه فقال له يوما يا ولدى عرفت أنك رأيتنى حين فسقت بتلك المرأة وقد كنت أنتظر نفارك فقال له المريد: الإنسان متعرض لمجارى أقدار الله تعالى وإنى ما خدمتك على أنك معصوم وإنما خدمتك على إنك عارف بطريق الله تعالى. وكونك تعصى أو لا تعصى شئ بينك وبين الله تعالى. فقال له الشيخ: وفقت وسعدت وإلا فلا. انظر : مدارج السلوك ٦٨. التصوف الإسلامى بين الأصالة والإقتباس ٢١٨.

الإسلامية فالصحابة تتلمذوا على الرسول وتتلمذ بعضهم على بعض وتتلمذ التابعون عليهم، وكانت عطايا الرسول ومعاملته معهم تختلف أحيانا من شخص لآخر حسب حال كل منهم.

فنهى مثلا عبد الله بن عمر عن سرد الصوم وأقر عليه حمزة بن عمر الأسلمى، وقال فى ابن عمر نعم الرجل لو كان يقوم من الليل، وأوصى أبا هريرة ألا ينام إلا على وتر وأمر أبا بكر برفع صوته فى صلاته وأمر عمر بالاخفاء، وتفقد عليا وفاطمة لصلاتهما من الليل وعائشة تعترض بين يديه اعتراض الجنازة فلم يوقظها وأعلم معاذا بأن من قال لا إله إلا الله وجبت له الجنة وأمره باخفاء ذلك وخص حذيفة بالسر. وهذه كلها تربية منه للصحابة، ومعنى هذا أن ما ينفع شخصا قد لا ينفع شخصا آخر وما يضر شخصا قد لا يضر شخصا آخر وذلك لاختلاف النفوس.

فالفرائض وما تأكد من السنن والبعد عن المنهيات هو وحده الذى يشترك فيه جميع المسلمين لا يختلف فيه إنسان عن آخر وما دون ذلك قد يحتاج إلى مرشد ومعلم.

أما سلبيات موضوع الشيخ فقد المحنا إلى بعضها وبقى أن نقول أن من أهم تلك السلبيات «الخرقة».

(ب) الخرقة

يرجع الصوفية لبس الخرقة إلى إبراهيم عليه السلام. فعندما جرد من ثيابه وقذف فى النار عريانا أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه أياه فلما مات إبراهيم ورثه إسحق فلما مات ورثه يعقوب فجعل يعقوب هذا القميص فى تعويذة وجعله فى عنق يوسف فكأن لا يفارقه فلما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبريل وألبسه إياه وكان فى القميص ريح من الجنة(١). وشىء من هذا لم يثبت عند العلماء.

ويعتقد ابن عربى أن الخرقة كان يلبسها الخضر أولياء الله بيده ويقول عن نفسه كنت لبست خرقة الخضر من يد صاحبنا تقى الدين عبد الرحمن... ولبسها هو من يد صدر الدين شيخ الشيوخ بالديار المصرية وهو محمد بن حمويه وكان جده قد لبسها من الخضر عليه السلام، ومن ذلك الوقت قلت بلبس الخرقة وألبستها الناس لما رأيت الخضر قد اعتبرها(٢).

فابن عربى يعتمد لبس الخرقة فيلبسها ويلبسها الناس بعد أن عرف أنها صدرت من عند الخضر. والصوفية يعتقدون فى وجود الخضر حيا بهيئته التى كان عليها وبجسده وكيانه المادى فهو عندهم من الأقطاب الذين لا يموتون والله يقول عن نبيه وأفضل خلقه «إنك ميت وإنهم ميتون».

---

(١) عوارف ١٠٥.

(٢) الفتوحات المكية ٢٤٢/١.

وكما أن جبريل عندهم ألبس الخرقة إبراهيم ويعقوب عوذ بالخرقة يوسف ويوسف أرجع بها بصر أبيه فإن نبنا محمدا صلى الله عليه وسلم كان له مع هذه الخرقة درو وشأن. فيفسرون اللباس فى قوله تعالى : « يا بنى أدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم »(١) بأنه لباس أنزل على النبى فى صندوق وأنه صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن ردائه وأنه فرق الخرق على أصحابه وأن جبريل أتاه وقال له إن ربك يطلب نصيبه من زيق الفقر وإنه علق ذلك بالعرش. وهذا كما يقول ابن تيمية -كذب باتفاق أهل المعرفة(٢).

كما يستدلون عليها بأنه صلى الله عليه وسلم كان يرقع ثوبه وأنه قال لعائشة رضى الله عنها لا تخلعى ثوبا حتى ترقعيه وأن عمر بن الخطاب كان فى ثوبه رقاع وأن أويسا القرنى كان يلتقط الرقاع من المزابل فيغسلها فى الفرات ثم يخيطها فيلبسها وإن السلف لبسوا المرقعات(٣). وقالوا أن على بن أبى طالب رضى الله عنه ألبس الخرقة الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الد[illegible] تمة وأتصل ذلك عندهم بالجنيد.

وسواء أصعدوا بالخرقة إلى إبراهيم عليه السلام أم نزلوا بها إلى على والجنيد فإنها بدعة لانسب لها ولاأصل لأن الله ينظرإلى القلوب والأعمال لا إلى الخرق والمرقعات. وقد ورد عن موسى عليه السلام يا بنى إسرائيل ما لكم تأتونى وعليكم ثيـاب الرهبان وقلوبكم قلوب

(١) الاعراف ٢٦.
(٢) الفتاوى ١١/٨٨.
(٣) تلبيس أبيلس ١٨٦.

الذئاب الضوارى. ألبسوا لباس الملوك والينوا قلوبكم بالخشية وما كان الرسول والصحابة والسلف يلبسون الثوب المرقع إلا لضرورة روى أن مسلم بن عبد الملك دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه قميص غير نظيف. فقال لامرأته فاطمة أغسلى قميص أمير المؤمنين فقالت والله ما له قميص غيره(١).

ويلبس الصوفية الخرقة أتباعهم كما ألبس صلى الله عليه وسلم بردته كعب بن زهير. والخرقة عندهم خرقتان: خرقة أرادة وخرقة تبرك وأولاهما للمريد الحقيقى وثانيهما للمتشبه ومن تشبه بقوم فهو منهم وسر الخرقة كما يذكر السهروردى أن الطالب الصادق إذا دخل فى صحبة الشيخ وسلم نفسه وصار كالولد الصغير مع الوالد يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة ويكون القميص الذى يلبسه المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليه السلام(٢).

وأما خرقة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزى القوم ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة لتعود عليه بركتهم ويتأدب بآدابهم فسوف يرفعه ذلك إلى الأهلية لخرقة الارادة. فخرقة التبرك مبذولة لكل طالب وخرقة الادارة ممنوعة إلا من الصادق. ولبس الخرقة بالنسبة للمريد علامة التفـويض والتسليم ودخوله فى حكم الشيخ دخوله فى

---

(١) عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين الذى كان يحكم قرابة نصف العالم والذى يقال أنه لم يوجد فى عهده فقير تدفع إليه الزكاة ولا مدين يقضى عنه الدين، لم يكن لديه إلا قميص واحد.

(٢) عوارف المعارف ٢٠٤.

حكم الله ورسوله وإحياء لسنة المبايعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الخرقة معنى المبايعة والخرقة عتبة الدخول فى الصحبة.

ويفضل الصوفية الخرقة الزرقاء إلا أنهم يتركون الحرية للشيخ فى الباس المريد ما شاء من الوان. وتفضيلهم الأزرق لأنه أرفق للفقير لاحتماله وعدم احتياجه إلى زيادة الغسل يروى السهرودى عن أبى فخر الهمدانى: كنت ببغداد عند أبى بكر الشروطى فخرج إلينا فقير من زاوية عليه ثوب غير نظيف فقال له بعض الفقراء لم لا تغسل ثوبك فقال يا أخى ما أتفرغ فقال الشيخ أبو الفخر: لا أزال أتذكر حلاوة قول الفقير ما أتفرغ!!

ومن عادة الصوفية أنه إذا تحرك أحدهم فى السماع فوقعت منه خرقة أو نازلة ووجد ورمى عمامته إلى الحادى أن يوافقه الحاضرون فى كشف الرأس، وإذا فرق الواجد الصادق الخرقة عن غلبة سلبت اختياره تقاسموها بينهم، ويقولون فى ذلك: بما أن تمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد والوجد أثر من آثار فضل الحق فصارت الخرقة متأثرة بأثر ربانى من حقها أن تفتدى بالنفوس وتترك على الرءوس اكراما وإعزازا.

ويرجعون عادة تمزيق الخرقة إلى على بن أبى طالب أو إلى الرسول ويقولون أنه مزق رداءه على أصحابه اربعمائة قطعة(١). وقد يرجعونها إلى موسى عليه السلام وأنه لما غلب عليه الغم لعبادة قومه العجل رمى الألواح فكسرها ولم يدر ما صنع وفى هذا تزيد على ما جاء فى القرآن من أنه ألقى الألواح ولم يقل تكسرت، وقد وعظ موسى يوما فشق رجل منهم قميصه فأوحى الله عز وجل لموسى قل لصاحب القميص لا يشق قميصه أن يشرح لى عن قلبه.

---

(١) عوارف المعارف.

والعجب أنهم اختلفوا في الخرقة إذا طرحت لمن تكون؟ أهي لمن طرحت بسببه أم للمشايخ يفعلون بها ما يريدون أو كما قال أبو إسماعيل الأنصاري: ما كان من الخرقة مجروحا قسم على الجميع وما كان سليما دفع إلى القوال.

ويعجب ابن الجوزي من أبي حامد الغزالي الذي أجاز للصوفية تخريق الثياب إذا خرقت قطعا مربعة تصلح للترقيع ويقول عجبت من هذا الرجل كيف سلبه حب مذهب التصوف عن أصول الفقه ومذهب الشافعي(٢).

ويشترطون ألا تلبس الخرقة أو المرقعة إلا من يد الشيخ وجعلوا ذلك من السنة وذكروا له اسنادا متصلا وعقدوا له أبوابا في كتبهم يوردون فيها حديث أم خالد أن النبي أتى بثياب فيها خميصة سوداء فقال: من ترون أكسو هذه؟ فسكت القوم فقال صلى الله عليه وسلم ائتوني بأم خالد فأتى بها فألبسها بيده وقال أبلي وأخلقي (رواه البخاري في كتاب الباس باب الخميصة السوداء).

وليس في هذا الحديث شيء مما ذهبوا إليه فالرسول إنما ألبس أم خالد لكونها صغيرة ولأن أباها خالد بن سعيد بن العاصي وأمها هميئة بنت خلف هاجرا إلى أرض الحبشة فولدت لهما هناك أم خالد واسمها أمة ثم قدموا فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لصغر سنها وما كان من عادة الرسول الباس ولا فعل هذا أحد من أصحابه ولا تابعيهم فأي دليل في هذا وأي مستند؟!

ويدخل في هذا الباب عندهم لبس الثوب المخرق وتركه دون أن

---

(٢) تلبيس ٢٦٣.

يخاط وكان من عادة الشبلى إذا لبس شيئا خرق فيه موضعا وكان أبو على الروزبارى يخرق أكمام ثوبه ويفتق قميصه.

وترك إصلاح العمامة وتسريح اللحية وكان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه ويصلح عمامته ويسرح لحيته وقال عن أحد أصحابه أما وجد هذا ما يرجل به شعره.

ومن الصوفية من يرقع المرقعة حتى تصير كثيفة إلى درجة تفوق كل تقدير(١). مع أن أبا هريرة وزيد بن ثابت يرويان أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الشهرتين فقيل يا رسول الله وما الشهرتان؟ قال: رقة الثياب وغلظها ولينها وخشونتها وطولها وقصرها ولكن سداد بين ذلك وإقتصاد.

ولبس المرقعة من الصوفية لا يخلو من احتمالات ثلاثة: الفقر أو التظاهر بالفقر أو اظهار الطريقة فإن كان الاحتمال الأخير فهو عجب وخيلاء محبط لكل عمل وثواب وإن كان الثانى فهو خلاف الأولى لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده أما إن كان لا يملك غيرها فللضرورة أحكامها.

وقد يقال إنهم يلبسون تواضعا أو تقشفا ويجاب عن ذلك بأن الرسول وأصحابه كانوا أكثر الناس تواضعا وتقشفا ولم يفعلوا ذلك ومن رقع منهم ثوبه رقعه اضطرارا لا اختيارا. أما مرقعة الصوفية فترقيعها اختيارى بل قد تجد الواحد منهم يعمد إلى أثواب جديدة ذات الوان مختلفة فيقطعها ليصنع منها مرقعة، وقد تجد أحدهم يلبس تحتها النفيس من الثياب كما حكى ابن الجوزى.

---

(١) قيل كان ابن الكرنبى أستاذ الجنيد عليه مرقعة وزن فردة كمها ثلاثة عشر رطلا. عوارف ٢٢٩.

وكان أكثر لبسهم لها للاشهار وإظهار الطريقة حتى أن كثيرين من صالحى شيوخهم نهوا عن لبسها وأنكروه حكى أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحارث فقال لهم: يا قوم: اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له[١].

ويلحق بلبسهم المرقعة إهمالهم النظافة وتركهم إصلاح الهيئة حتى أن الحشرات كانت ترعى فى أجساد بعضهم لا يحاول التخلص منها وكان السهروردى رث الهيئة لا يغسل له ثوبا ولا جسما ولا يقص شعرا ولا ظفرا. وغيره كثيرون ممن كانوا يربطون بين التقوى وعدم النظافة أو بين الدين ورثاثة الهيئة وكثرة ما يوجد فى شعره وجسده وملابسه من حشرات يتركها ويظن أن التخلص منها اعتراض على قدر الله. ومن يقرأ ترجمات بعض شيوخهم يرى العجاب العجاب فى هذا الباب.

مع أن الإسلام دين النظافة والطهارة أمر بالوضوء عند كل صلاة وبالاغتسال عند كل جماع أو أحتلام وفى يوم الجمعة والعيدين وأمر بالاستنجاء والاستبراء وبطهارة الثوب والبدن والمكان وبأخذ الزينة عند كل مسجد وروى أن النظافة من الإيمان، ولا تكاد تفتح كتابا من كتب الفقه الإسلامى بجميع مذاهبه إلا وتجد أول أبوابه الطهارة. والأمر فى ذلك غنى عن البيان يعرفه كل إنسان ولا يجهله عامى ولا أمى بله الزاهد والصوفى.

ولكن إذا عرفنا أن التصوف الإسلامى لم يقتصر على الثقافة الإسلامية وحدها, ولا على معطيات الإسلام وحده وإنما ضم واحتوى

---

(١) عوارف المعارف ٢٢٩.

عناصر أجنبية كثيرة نصرانية ويهودية ومجوسية وبوذية وأن أصحاب هذه الثقافات أو الديانات وجدت عندهم تلك العادات فمن الهندوس من آلى على نفسه أن يعيش عريانا إلا من خرقة يستتر بها ومنهم ومن النصارى من آلى على نفسه ألا يغتسل طول حياته ومن القساوسة من كان يفتخر أنه لم يمس الماء لنظافة إذا عرفنا هذا عرفنا سر التنكب عن شريعة الإسلام الغراء.

ولو اقتصر التصوف الإسلامى على معطيات الإسلام لما وجدت فرقا بينه وبين الإسلام أو بينه وبين درجة الإحسان فى الإسلام ولما اضطر اصحابه أن يقعدوا له القواعد ويضعوا له النظريات ولا إضطر آخرون أن يكتبوا ليردوا ويصححوا.

(جـ) الجـــوع

عماد الرياضة الصوفية وأول طرقها الجوع يتدرج فيه الصوفية حتى يصل إلى درجة الاكتفاء بالزهيد من الطعام.

سئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال: كان قوتى فى كل سنة ثلاثة دراهم كنت آخذ بدرهم دبسا وبدرهم دقيق الأرز وبدرهم سمنا وأخلط الجميع وأسوى منه ثلاثمائة وستين أكرة آخذ فى كل ليلة أكرة وأفطر عليها(١). فقيل له فالساعة كيف تأكل قال بغير حد ولا توقيت(٢).

وإن كان سهل فى هذه القصة يأكل كل يوم فإن منهم من كان يبقى الأيام لا يأكل حتى تضعف قوته. فأبوجعفر الحداد يقول أشرف على أبوتراب يوما وأنا على بركة ماء ولى ستة عشر يوما لم أكل شيئا ولم أشرب فيها ماء فقال ما جلوسك هاهنا فقلت أنا بين العلم واليقيم وأنا أنظر من يغلب فأكون معه فقال سيكون لك شأن(٢) رأحيانا كانوا يقتاتون بمالا يقتات به الآدميون فقد روى عن سهل أنه كان يقتات ورق النبق مرة وأكل دقاق التبن مدة ثلاث سنين وكان ذو النون يستف سويق الشعير سفا.

وعند القوم حكايات مثيرة عن تعذيب أنفسهم بالجوع وطيهم الأيام الطوال وأكلهم مالا يأكله الآدميون، ولو أن ذلك كان لحاجة أو ضرورة لقبل منهم وإنما يفعلونه اختيارا مخالفين تعاليم الدين معرضين أنفســـهم للهلاك والله يقـــول : « ولا تلقــوا بأيديكم إلى

---

(١) مع أن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان يدخر لغده شيئا وهذا يدخر طعام سنة وإن قل...!!؟

(٢) الأحياء ٧٧.　　　　(٢) تلبيس ٢٠٧.

التهلكة»(١) . والشريعة أحلت أكل الميتة عند خوف الهلاك ومنعت قطع يد السارق وقت المجاعة فيما سرقه ليقتات به ويحفظ نفسه من الهلاك لأن للنفس حرمة كبيرة فى الإسلام ومن يقتلها أو يعرضها للقتل فهو آثم. وكأن بعض الصوفية كانوا يرون تعارضا بين الطعام والقيام بطاعة الله يرى ذلك فيما يروى عن أبى يزيد أن رجلا قال له أريد أن أجلس فى مسجدك الذى أنت فيه، قال لا تطيق ذلك، فقال: إن رأيت أن توسع لى فى ذلك، فأمر أن يوسع له فجلس يوما لا يطعم فلما كان فى اليوم الثانى قال له يا أستاذ لابد مما لابد منه، فقال يا غلام لابد من الله، قال يا أستاذ نريد، القوت، قال يا غلام: القوت عندنا إطاعة الله، فقال يا أستاذ أريد شينا يقيم جسدى فى طاعة الله عز وجل، فقال يا غلام إن الأجسام لا تقوم إلا بالله عز وجل.

وكان سهل إذا دخل رمضان يدخل البيت ويقول لامرأته طينى باب البيت والقى إلى كل ليلة من الكوة رغيفا فإذا كان يوم العيد دخلت فوجدت ثلاثين رغيفا فى الزاوية. ولا أكل ولا شرب ولا يتهيأ لصلاة ويبقى على طهر واحد إلى أخر الشهر.. . !!؟

وهذه مبالغة لم يأت بها الدين ولا عرفت عند السابقين بل كان الرسول وأصحابه يأكلون ويشربون ويقومون بطاعة الله خير قيام وما أقعدهم عن الطاعة شراب ولا طعام. وفوق ما فى هذا من المبالغة ففيه تقويت للجمع والجماعات والعمل والكسب وغيرها من أمور مطلوبة.

---

(١) البقرة ١٩٥.

وطبيعة الإنسان التى خلق منها وركب منها تقتضى تلبية حاجة الجسد من الطعام والشراب حتى يقوى على العمل والعبادة وحتى تنشط الروح وتخف للطاعة. وقلة الطعام فى الإضرار بالجسد مثل كثرته فكما أن كثرته وزيادته عن الثلث الذى حدده الرسول تضر بالجسم فكذلك قلته ومن ثم نهى صلى الله عليه وسلم عن الوصال فى الصيام وقال لست كهيئتكم أنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى(١).

ثم أن الجوع نفسه ليس عبادة إن لم يكن صياما مشروعا فليس لله حاجة أن يدع أحدنا طعامه ولا شرابه.

ومن عجب أن المتصوفة يجمعون النقيضين فترى بعضهم يجوع نفسه إلى حد الهلاك يقول أبو على الروذبادى إذا قال الصوفى بعد خمسة عشر يوما أنا جائع فألزموه السوق وأمروه بالكسب. وترى بعضا آخر منهم يشتهرون بكثرة الأكل وارتياد أماكن الطعام بدعوة وبدون دعوة يقول ابن الجوزى: وقد رأيت منهم ما إذا حضر بالغ فى الأكل ثم اختار من الطعام فربما ملأ كميه من غير إذن صاحب الدار(٢) . وكلا طرفى الأمور ذميم. والرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان قد ورد عنه جوعوا تصحوا فليس مراده بالجوع هنا جوع المتصوفة المهلك للنفس المفسد للمزاج. وإنما الجوع المشار إليه هو التقلل من الطعام وعدم البلوغ به حد الشبع حتى نسد على الشيطان منافذه. وكان يطرح لعمر بن الخطاب رضى الله عنه الصاع من التمر فيأكله حتى حشفه.

---

(١) رواه مسلم ٢١٢/٧، ٢١٥.

(٢) تلبيس ٢٢٢.

وقصد المتصوفة من الجوع هو تطهير النفس كما يقولون من علائق الشهوات وكسرها وتصنيفها حتى تصفو الروح فكلما ضعف الجسم وحيل بينه وبين شهواته قويت الروح ونشطت. وهذا وإن كان صحيحا إلا أن الخروج به عن حده يؤدى إلى الضد تماما.

والامتناع كلية عن الطعام وعن الطيبات ليس شرعا ولا دينا قال تعالى: « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا »(١) . وقال « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »(٢) . والمتصوفة لا يجهلون ذلك ولكنهم يقولون هذا مقام العوام لأن العوام هم المطالبون بظواهر القرآن أما الخواص وخواص الخواص من أمثالهم فليس هذا شأنهم.

ولذلك فإن منهم من كان يمتنع عن شراب الماء أو شرب الماء البارد فيشرب الحار منه قال أحدهم ما أكلت شيئا مما يأكله بنو آدم أربعين سنة وقال الآخر عزمت على ألا أشرب الماء سنة فما شربت الماء سنة وأضاف أبو يزيد ولا أذوق النوم سنة فوفت لى نفسى بذلك.

وهذه الأمور ليست مخالفة للشريعة فقط وإنما مناقضة للطبيعة أيضا فهل يستطيع جسم أن يبقى بلا ماء ولا نوم سنة كاملة ولكن الصوفية أمام مثل هذا التساؤل يرفعون علم الكرامة وخرق العادة ليسكتوا كل تحد أو اعتراض.

وقد وضعوا للجوع أصولا وقواعد فقالوا إن حد ألا يميز المرء بين الخبز وغيره مما يأكل ومتى عينت النفس الخبز فليس

---

(١) الأعراف ٣١.

(٢) الأعراف ٣٢.

بجائع(٢). ويرتب أبو طالب المكى للقوم ترتيبات فى المطاعم فيقول: استحب للمريد ألا يزيد عن رغيفين فى يوم وليلة، أو يزن قوته بكربة من كرب النخل وهى تجف كل يوم قليلا فينقص قوته بمقدار ذلك. أو يعمل فى الأوقات فيأكل كل يوم ثم يتدرج إلى يومين أو ثلاثة.

ويذهب إلى أن الجوع ينقص دم الفؤاد فيبيضه وفى بياضه نوره فيذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته وفى رقته مفتاح المكاشفة ولا ندرى أيمكن لإنسان أن يعيش بدم أقل من حاجة الجسم أو بدم فقد كراته الحمراء أم نقول مرة أخرى هذه خصائص القوم لا توزن بميزان العلم.

مع أن المنصفين منهم لا يرون ذلك فقد روى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبزا حوارى فقيل له هذا كله فقال إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدمنا صبرنا صبر الجمال.

وكما رتب لهم المكى قواعد للطعام فقد صنف لهم الترمذى كتابا أسماه رياضة النفوس بين لهم فيه القواعد والأسس التى يجب أن يتبعها المريد جاء فيه : أن المريد ينبغى أن يصوم شهرين متتابعين ثم يفطر فيطعم اليسير ويأكل كسرة كسرة وبعضهم أوجب على المريد أن يظل أربعين يوما لا يأكل الخبز ولكنه يشرب الزيوتات(٢).

---

(١) وقال بعضهم حد الجوع أن يبزق فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدل هذا على خلو المعدة من الدسومة وصفاء البزاق كالماء الذى لا يقصده الذباب.

(٢) تلبيس ٢١١.

أما فضائل الجوع عندهم فإن صلاة الجائع قاعدا أفضل من صلاته قائما إذا قواه الأكل - هذا عندهم - أما الشريعة فلا ترى ذلك ولا ترى الصلاة قاعدا ألا للمضطر وترى أنه إذا تقوى الإنسان على القيام بالأكل كان أكله عبادة والرسول يقول : من أصابه جهد فى رمضان فلم يفطر فمات دخل النار.

ومما يتصل بالجوع عدم أكلهم اللحم حتى قال بعضهم أكل درهم من اللحم يقسى القلب أربعين صباحا مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة وكان يقول ولو دعيت إلى كراع لأجبت، وقال لعثمان بن مظعون عندما قال له : يا رسول الله إن نفسى تحدثنى ألا آكل اللحم قال مهلا يا عثمان فإنى أحب اللحم وآكله إذا وجدته ولو سألت ربى أن يطعمنى إياه كل يوم لأطعمنى، وأكل الصحابة اللحم وأكله المسلمون وغيرالمسلمين وما قست قلوبهم ولم نسمع من يحرمه إلا البراهمة ومن بعدهم بعض الصوفية.

ومما يتصل بالجوع « المسألة » وقد اختلفت أحوالهم فيها فمنهم من كان يركن إليها ومنهم من كان يركن إلى الفتوح فلا يتسبب بكسب أو سؤال ومنهم من كان يسأل وقت فاقته. ويرى السهروردى أن المتصوف المتحقق لا يسأل الناس شيئا بل منهم من يستحى من الله تعالى أن يسأله شيئا من أمور الدنيا متحققا فى ذلك بحال إبراهيم عليه السلام أنه جاءه جبريل وهو فى الهواء قبل أن يصل إلى النار فقال هل لك من حاجة فقال: أما إليك فلا، قال له فسل ربك فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى.

فمن المتصوفة من لا يرى فى السؤال بأسا حتى مع القدرة على العمل بل ربما يراه أفضل من العمـــل. نقـل عن أبى سعيد الخراز أنه

كان يمد يده عند الفاقة ويقول ثم شئ لله وكان أبو جعفر الحداد أستاذ الجنيد يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين، كما روى عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يفطر فى كل ثلاث ليال ليلة وليلة أفطاره يطلب من الأبواب وكان سفيان الثورى يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل فى الطريق. ويروون عن الرسول صلى الله عليه وسلم من جاع ولم يسأل فمات دخل النار. ويقولون من عنده علم وله مع الله حال لا يبالى بمثل هذا بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم.

ومنهم من يفسر الحديث «أحل ما أكل المؤمن من كسب يده» بأنه المسألة عند الفاقة -وأنكر أبو طالب المكى هذا التأويل- والحديث «اليد العليا خير من اليد السفلى» بأن اليد العليا هى يد السائل أما اليد الأخرى فهى يد المعطى.

ويأتى الطعام عندهم من جهات ثلاث: الكسب والسؤال والفتح وأفضله ما أتى عن طريق الفتح ودونه ما أتى عن طريق المسألة وأدونه ما أتى عن طريق الكسب مع أن نبى الله داود ليم أنه لم يأكل من عمل يده فعمل وأكل من عمل يده والأنبياء جميعا كانوا يعملون.

ودون تطويل فى الرد فإن الرسول قد حسم الأمر فى هذا الموضوع بأن المسألة لا تحل إلا لذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع أو لذى دم موجع وما عدا هؤلاء فإنها تأتى نكتة سوداء على وجه صاحبها يوم القيامة.

(د) الخلــوة

أساس الخلوة عند الصوفية تحنث النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فى غار حراء فيما رواه عروة عن عائشة أنها قالت: أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء. وحديث جابر بن عبد الله عن فترة الوحى وأنه صلى الله عليه وسلم ذهب مرارا يرمى نفسه من شواهق الجبال كلما طالت عليه فترة الوحى فيتبدى له جبريل ويخبره بأنه رسول الله حقا فيسكن جأشه.

يقول السهروردى: فهذه الأخبار هى الأصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى الخلوات يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلواتهم تعويضا من الله أياهم عما تركوا لأجله.

والخلوة هى أساس عمل المريد مع الجوع والسهر والصمت يقول سهل : ما صار الابدال ابدالا إلا بأربع خصال : أخماص البطون والسهر والصمت والإعتزال عن الناس(١) .

وينتج عن الخلوة تنوير القلب وصفاء النفس وصدق الفراسة وكشف الحجاب ورؤية الله وحدوث الكرامات. يقول ابن عربى: «فإن المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر وفرغ من الفكر... يمنحه الله ويعطيه من العلوم والأسرار الإلهية والمعـــارف الربانية التى أثنى بها

---

(١) قوت القلوب ١٤١/١.

سبحانه على عبده الخضر عليه السلام فقال تعالى: « عبدا من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »(١) قيل للجنيد: بم نلت ما نلت فقال بجلوسى تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة(٢) .

فالخلوة وهى الوحدة والانفراد والعزلة تفرغ الخلق من الخلق وتجمع الهمم بأمر الخالق وتقوى العزم على الثبات. وهى عند ذى النون الخلاص والإخلاص يقول: لم أر شيئا أبعث على الخلاص من الخلوة. من أحب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص.

وعلى صاحب الخلوة أن يتجرد من الدنيا ومن كل ما يملكه ويغتسل غسلا كاملا ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله من ذنوبه ببكاء وتضرع واستكانة وتخشع ويسوى بين السريرة والعلن ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة ثم يقعد فى مواضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة والجماعة ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ولا يصغى إلى ما يسمع ولا يعلم الخلق بخلوته فقد قيل: لا تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس ولا ينام فى خلوته إلا من غلبة وأن يكون قوته الخبز والملح بقدر(٣) .

وينبغى أن تكون فى مكان مظلم - كما يرى الغزالى - فإن لم يكن له مكان مظلم فيلف رأسه فى جيبه أو يتدثر بكساء أو أزار ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربانية(٤) .

---

(١) الكهف ٦٥.
(٢) الفتوحات المكية ٢٧/١.
(٣) عوارف المعارف ١٧٠.
(٤) الأحياء ٦٥/٢.

وأن يكون صاحبها تاركا كل فكر وذكر مفرغا قلبه من جميع المرادات إلا مراد ربه متخليا عن جميع الأسباب فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية. وكم دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها.

وهكذا أصبحت الخلوة طقسا من طقوس الصوفية فمنهم من يعتزل فى جبل كالرهبان مفوتا على نفسه الجمعة والجماعات ومخالطة أهل العلم ومنهم من يعتزل فى الأربطة فيفوت على نفسه الكسب والسعى إلى المساجد وقد رأينا سهلا التسترى يختلى شهر رمضان من غير أكل ولا شرب ولا قضاء حاجة ولا عمل ولا جماعة !!

وإلى جانب هذه الخلوة المطلقة عند الصوفية توجد خلوة محددة وهى ما تسمى بالأربعينية محددة بأربعين يوما وهى لمن شغلته نفسه وأولاده عن أن يجعل عمره كله خلوة وكان سهل يأكل فى جميع أيام هذه الخلوة أكلة واحدة.

ويرجع الصوفية فكرة الأربعينية إلى داود عليه السلام يقولون أنه لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجدا أربعين يوما وليلة حتى أتاه من ربه الغفران وإلى موسى عليه السلام فيما حكاه عنه ربه وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة(١) كما يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلص لله العبادة أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه(٢).

---

(١) الأعراف ١٤٢.

(٢) حديث ضعيف كما ذكر صاحب كتاب أسنى المطالب ص١٩٧.

وللخلوة أذكارها وأورادها المخصوصة وهى تختلف من جماعة لأخرى فيصلح لقوم ادامة الأوراد وتوزيعها على الأوقات ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ولآخرين دوام المراقبة ولغيرهم الانتقال من الذكر إلى الأوراد أو الانتقال من الأوراد إلى الذكر وهكذا. وكان بعضهم يختار للأربعينية ذا القعدة وعشر ذى الحجة وهى أربعون موسى عليه السلام. كما يعتقدون.

ولم يشرع الإسلام لا الخلوة الدائمة ولا الخلوة المحددة والذى جاء به هو الاعتكاف بصورته وشروطه المعروفة وهو الذى كان يفعله صلى الله عليه وسلم بعد البعثة قالت عائشة كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده وكان صلى الله عليه وسلم يدخل معتكفه بعد صلاة الفجر وما كان يتركه إلا لحاجة ولا اعتكاف إلا بصوم ولا اعتكاف إلا فى مسجد جامع تقام فيه الصلوات(١).

أما ما يحتجون به على مشروعية الخلوة من تحنثه صلى الله عليه وسلم فى غار حراء فإن ذلك كان قبل البعثة ولم يرو أنه داوم على ذلك بعدها إلا ما كان من اعتكافه الذى ذكرنا.

يقول ابن الجوزى: كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالا بالعلم والتعبد إلا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جمعة ولا جماعة ولا عيادة مريض ولا شهود جنازة ولا قيام بحق وإنما هى عزلة عن الشر وأهله.

وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم النهى عن الانفراد الموجب للبعد عن العلم والجهـــاد وذلك فيما رواه أبو أمامة : قال:

---

(١) سبل السلام ٢/٢٨٩.

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية من سراياه. قال فمر رجل بغار فيه شئ من ماء قال فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار ويشرب مما فيه من الماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا ثم قال: لو أنى أتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت وإلا لم أفعل فأتاه فقال يا بنى الله أنى مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل فحدثتنى نفسى بأن أقيم وأتخلى من الدنيا قال نبى الله صلى الله عليه وسلم إنى لم أبعث باليهودية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة. والذى نفس محمد بيده لغزوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة(١).

وجاء فى الصحيحين أن النبى سئل أى الناس أفضل قال رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها يتتبع الموت فى مظانه .

وفى هذا أبلغ رد على كل ما ذهب إليه أصحاب الخلوة فى شأنها ويؤكد أنها ترجع إلى أصول أجنبية قد تكون نصرانية أو بوذية فنظام الجوع الشديد والصيام الطويل الذى يتبعه المتصوفه فى خلوتهم معهود فى النصرانية والبوذية أما فى الإسلام فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير وأفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما.

وفى الخلوة زيادة عن مضارها الجسمية مضار عقلية ونفسية على الإنسان ومضاد إجتماعية أيضا فطول الصمت والعزلة يصيب

---

(١) تلبيس ٢٨٩.

المرء ببعض الأمراض النفسية ويحرم الشخص من نعمة الإجتماع والإنسان إجتماعى بطبعه «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» (٢) ومن القيام بواجباته تجاه المسلمين. فعلى كل مسلم واجبات تجاه الآخرين إن لم يقم بها مع قدرته عليها فهو آثم وإن لم يكن اثما فقد حرم نفسه خيرا كثيرا.

ويكفى المؤمن من الخلوة والعزلة أن يعتزل الشر والفتن إن لم يستطع أن يسهم فى محاربتها «ستكون فتن كقطع الليل المظلم القاعد فيها خير من القائم» وقوله صلى الله عليه وسلم «وليسعك بيتك» يعنى به عدم المشاركة فى الفتن لا الخلوة الصوفية.

فالخلوة المحمودة فى الإسلام ليست فى البعد عن الناس ولكن فى أن تعيش بينهم وتتحرك بين ظهرانيهم وكأنك غريب قال صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس. وفى رواية قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: النزاع من القبائل. وفى حديث عبد الله بن عمرو. قال قال: النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن عنده طوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال ناس صالحون قليل فى ناس كثيرون ومن يعصيهم أكثر ممن يطيعهم. وفى حديث آخر إن أحب شئ إلى الله الغرباء. قيل من الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم. وفى حديث غيره قيل: ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتى ويعلمونها الناس.

فكل هذه الأحاديث تتحدث عن الغرباء بما يفيد أنهم يعيشون بين الناس لا يعتزلون عنهم ولا يحتجبون ولا يفارقونهم بأجسامهم

---

(١) الحجرات ١٣.

وإن اعتزلوهم وفارقوهم بأعمالهم. وانظر إلى تعريفه صلى الله عليه وسلم الغرباء بأنهم الذين يحيون سنتى ويعلمونها الناس. لا يكتفون بأحياء السنة فى أنفسهم بل يقومون بواجب التعلم لغيرهم.

هذه هى الخلوة فى الإسلام أن تعيش بين الناس متمسكا بالسنة داعيا إليها دون أن يعرفك أحد روى نافع عن مالك دخل عمر بن الخطاب المسجد فوجد معاذ بن جبل جالسا إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال له عمر ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال لا. ولكن حديثا حدثنا به حبيبى صلى الله عليه وسلم وأنا فى المسجد فقال ما هو؟ قال: إن الله يحب الأخفياء الأخبياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون ولقلتهم فى الناس سموا غرباء فإن أكثر الناس على غيره هذه الصفات. فأهل الإسلام فى الناس غرباء والمؤمنون فى أهل الإسلام غرباء وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع غرباء والداعون الصابرون على أذى المخالفين غرباء وكل هؤلاء أهل الله حقا لاغربة عليهم وإنما غربتهم من الأكثرين الذين قال الله عز وجل فيهم وإن تطع أكثر من الأرض يضلوك عن سبيل الله(١) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه وغربتهم هى الغربة الموحشة وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم.

قال صلى الله عليه وسلم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ورأيت أمرا لابد لك به فعليك بخاصة نفسك وإياك وعوامهم فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر.

---

(١) الأنعام ١١٦.

وعلى ذلك فالاعتزال والخلوة فى الإسلام هو اعتزال الأمور المحرمة واجتنابها قال تعالى: «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره» وقال عن إبراهيم عليه السلام: «فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا» وقال عن أهل الكهف «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف» أمرهم بالعزلة فى الكهف لأنهم لم يكونوا فى مكان فيه جمعةولاجماعة ولا من يأمر بشرع نبى فلهذا أووا إلى الكهف وقد قال موسى: «وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلونى».

وعلى ذلك فالمخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهى مأمور بها وأن كان فيها تعاون على الأثم والعدوان فهى منهى عنها. ولابد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه فى دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه واصلاح قلبه. الفتاوى ١٠/٤٢٦ ، ٤٠٤.

هذه خلوة الإسلام أو غربته أما خلوة المتصوفة فالارجح أنها تسربت إليهم من ثقافات وديانات أجنبية يؤيد ذلك ما يرويه الغزالى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه فى صومعته. فقلت يا سمعان منذ كم وأنت فى صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة. قلت: فما طعامك؟ قال يا حنيفى وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم. قال: فى كل ليلة حمصة. قلت: فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذى بحذائك؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتونى كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتى ويطوفون حولها ويعظموننى فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة. فاحتمل يا حنيفى جهد ساعة لعز الأبد فوقر فى قلبى المعرفة. فقال: حسبك أو أزيدك؟ قلت: بلى. قال: أنزل إلى

الصومعة فنزلت فأدلى لى ركوة فيها عشرون حمصة فقال لى أدخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك فلما دخلت الدير إجتمع على النصارى فقالوا يا حنيفى ما الذى أدلى إليك الشيخ قلت من قوته. قالوا فما تصنع به ونحن أحق به قالوا ساوم فقلت عشرين دينارا فأعطونى عشرين دينارا فذهبت إلى الراهب فقال يا حنيفى ما الذى صنعت قلت بعته منهم قال بكم قلت بعشرين دينارا قال أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك. هذا عز من لا تعبده فأنظر كيف عز من تعبده يا حنيفى. أقبل إلى ربك ودع الذهاب والجيئة(١).

وكان من الممكن أن ترد خلوة الصوفية إلى أصل إسلامى هو الاعتكاف إلا إنهم خرجوا بها عن حدوده.

---

(١) الأحياء ٢/٢٠٨.

ثالثا : الشطح والدعاوى

يتفاوت الصوفية فى مقدرتهم الفنية على سبك العبارة باشاراتها ورموزها وألغازها. العبارة التى تطوى فى ثناياها معانى كثيرة تلخص مذهب قائلها وتجمعه.

وعبارات الشطح والدعاوى هى من تلك العبارات [illegible] المركزة التى برع فى سبكها شيوخ الصوفية على تفاوت [illegible]، فهى ليست عبارات مرتجلة أو مرسلة أو عبارات حكم بها [illegible] أو جاءت بها الصوفية، وليست سقطة لسان أو غفوة جنان كما يحاول البعض أن يصورها وإنما هى جزء من نسيج متكامل فى نفس قائلها وخيط من ثوب عقيدته، ليست مقطوعة ولا مبتورة وإنما ذات رحم وقربى بما يعتلج فى نفس قائلها من معان وما يعتنقه من أراء ومذاهب.

موقف الصوفية من الشطح والدعاوى

شجب الصوفية عبارات الشطح التى بدت من بعضهم لا لخروجها عن الدين أو منافاتها للعقيدة ولكن لأنها من أسرارهم التى ينبغى ألا يباح بها لغيرهم، ومن مكنون غيبهم المخبئ فى سراديب كشفهم. يقول الجنيد للشبلى -وهو ممن كثرت عبارات شطحه- نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا ثم خبأناه فى السراديب فجئت أنت فأظهرته على رؤس الملأ! فقال: أنا أقول وأنا أسمع فهل فى الدارين غيرى(١).

ولا يظن بالجنيد هنا أنه ينكرشطح الشبلى ودعاويه وإنما ينكر تفوهه بذلك وإظهاره له. فما يسمى شطحا ودعاوى هو فى حقيقة الأمر عندهم سر السر وغيب الغيب الذى يريد الجنيد -وهو سيد الطائفة- أن يحفظه الصوفية من الأغيار حتى لا يعترض عليهم أو يتهموا بهم لقصور فهم هؤلاء الأغيار عن إدراكه ويقول مرة أخرى للشبلى: يا أبا بكر. الله الله فى الخلق. كنا نأخذ الكلمة فننشقها ونقرظها ونتكلم بها فى السراديب وقد جئت أنت فخلعت العذار بينك وبين أكابر الخلق ألف طبقة فى أول طبقة يذهب ما وصفت(٢).

والمقصود بقوله يذهب ما وصفت أى تقتل .

والجنيد -الذى ينصح الشبلى ويعترض على تصريحه- هو الذى يقول: لا يكون الصديق صديقا حتى يشهد له فى حقه سبعون صديقا إنه زنديق، فهم يشهدون على ظاهره مما ظهر من حاله لأن

---

(١) التعرف لمذهب التصوف ١٤٥.

(٢) اللمع ٣٠٦.

الصديق يعطى الظاهر حكم الظاهر ويعطى الباطن حكم الباطن فلا يلبسون بالباطن على الظاهر ولا بالظاهر على الباطن فهم يشهدون أنه زنديق ظاهرا كما يعلمون أنه صديق باطنا لتحققهم بذلك الحال فى نفوسهم(١).

الشطح -أذن- يودى إلى ازدواجية الحكم على صاحبه فهو فى نظر الشريعة زنديق بينما فى نظر التصوف صديق لأنه يحكم على جواهر الأشياء وحقيقتها بينما تحكم الشريعة على ظواهرها فقط.

والشطح ليس موجودا عند من تفوه به من الصوفية فحسب بل هو عند جميعهم غير أن البعض جهر والبعض كتم والمعنى الذى من أجله كتم البعض هو الذى من أجله لاموا بسببه أهل الجهر منهم. يقول قائلهم:

سأكتم من علمى به ما يصونه ... وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم ... وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه ... إلى أهله فى السر والصون أجمل(٢)

يكتمون علمهم بالله أو علمهم بالحقيقة فى الوقت الذى يخبرنا القرآن أن الرسول لم يكتم مما أوحى إليه شيئا «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته»(٣) وتوعد من يكتم العلم -والعلم فى الإسلام علم واحد لا ينقسم إلى ظاهر وباطن- فقال: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدىَ من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»(٤).

---

(١) كشف الحجاب ٢٧٢، المناظر الالهية ٤٤. (٢) الأحياء ٢٨٨/٤.
(٣) المائدة ٦٧. (٤) البقرة ١٥٩.

وبينما يتحدث القرآن عن العلم بما يفهم أنه علم واحد نرى الصوفية داخل دائرة الشطح والدعاوى يقسمون العلم إلى ظاهر وباطن وربما إلى أكثر من ذلك. يقول التسترى: للعالم ثلاثة علوم. علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد(١).

ويقسمه الحلاج إلى علم برانى وعلم غير برانى فيقول: «المنكر فى دائرة البرانى وأنكر حالى حين لم يرانى... كذا وبالزندقة سمانى وبالسوء رمانى(٢) ويعنى بدائرة البرانى ما هو خارج دائرة الصوفية».

والحلاج هذا الذى يقسم العلم إلى برانى وغيره هو الذى يقول -تبعا لعقيدته فى وحدة الوجود- وقد سئل كيف الطريق إلى الله؟ قال: الطريق بين اثنين وليس مع الله أحد. فقال سائله بين قال: من لم يقف على أشارتنا لم ترشده عبارتنا(٣) وهو الذى يقول:

كفرت بدين الله والكفر واجب   على وعند المسلمين قبيح(٤)

ولعل الأمر الذى ستره بدين الله هو ما باح به من دعاويه وشطحاته فى بعض أقواله وفلتات شعره:

رأيت ربى بعين قلبى   فقلت من أنت قال أنت(٥)

---

(١) الأحياء ١/٨٩.

(٢) الطواسين: طاسين النقطة.

(٣) أخبار الحلاج ٥٧.

(٤) ديوان الحلاج ٢٨.

(٥) الطواسين: طاسين النقطة.

ويقول: فالحقيقة، والحقيقة خليفة، ودع الخليفة لتكون أنت هو أو هو أنت من حيث الحقيقة (طاسين الصفاء).

وبينما يلوم أصحاب الكتم من الصوفية أصحاب البوح بالدعاوى والشطحات ويرون أن كتمها أولى وأنسب لقوله تعالى: «وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا»(١) ويفسرونها أى على قدر فهومهم ومبلغ عقولهم(٢) نجد هؤلاء الأخرين يتهمون أصحاب الكتم بالغش والنفاق. يقول أبو الحسين النورى -وهو من أصحاب البوح- للجنيد: يا أبا القاسم غششتهم فأجلسوك على المنابرونصحتهم فرمونى على المزابل.

وقال بعضهم لأبى العباس بن عطاء(٣): ما لكم قد أشتققتم ألفاظا أغربتم بها على السامعين؟ وخرجتم على اللسان المعتاد هل هذا إلا طب لتمويه أو ستر لعوار المذهب فقال ابن عطاء ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزته علينا كيلا يشير بها غير طائفتنا(٤).

إذا أهـــل العبارة ســـاءلونا   أخبرناهم بأعـــلام الاشـــارة

ويستدل أصحاب الكتم على وجوب كتمان أحوال الصوفية ودعاويهم ومعارفهم بعجز غيرهم عن حملها وفهمها وإن كانت هى فى نفسها صحيحة بل هى عين الحقيقة يستدلون على ذلك بقوله تعالى: «ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين»(٥) يقولون: أى

---

(١) النساء ٦٣.

(٢) التعرف ١٤٦.

(٣) أبو العباس بن محمد بن عطاء الادمي البغدادى من أقران الجنيد مات ٣٠٩.

(٤) الكشف عن حقيقة الصوفية ٢٣.

(٥) الحاقة ٤٧.

لو نطق بالمواجيد على أهل الرسوم وأما غير المواجيد فقد جاء فيه «بلغ ما أنزل إليك من ربك» ولم يقل بلغ ما تعرفنا به إليك -وهذا تفسير ما قال به أحد غير هؤلاء.

ولهم فى ذلك عبارات كقولهم: والتقية حرم المؤمن كما أن الكعبة حرم مكة والتقية نور فى القلب يفرق بين الحق والباطل.

ويرى أبو طالب المكى أن هؤلاء رفعوا الحشمة بينهم وبين الله وزالت الوحشة بينه وبينهم فهم يتكلمون بأشياء هى عند العامة كفر بالله تعالى.

ولكنا نعرف أن الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين مع قربهم من ربهم ما زالت الحشمة أبدا منهم ولا زالت وحشتهم وما نطقوا بما نطق به هؤلاء وما كتموا ما كتمه الأخرون!

ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الصوفية من دفاع عن تلك الدعاوى والشطحات ما ظهر منها وما بطن والاعتذار عن أصحابها. يقول الكلاباذى: «أن للقوم عبارات تفردوا بها واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم نخبر ببعض ما يحضر ونكشف معانيها بقول وجيز». والذى يقصده الكلاباذى هنا أنه يشير إلى المعنى الظاهرى فقط أما مضمون العبارة فلا يدخل تحت الاشارة «وأماكنه احوالهم فإن العبارة عنها مقصورة وهى لأربابها مشهورة»(١).

فهو هنا يقر دعاوى الصوفية وشطحاتهم ويسميها عبارات تفردوا بها واصطلاحات ويرى أن كل ما يستطيع تقديمه من شرح وتفسير لهذه العبارة هو المعنى اللغوى أما معانيها الحقيقة فشئ يعجز عنه عقل السامع ولغة الكلام.

---

(١) التعرف ١١١.

وإلى مثل ذلك يذهب التسترى فى قوله: وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والاجمال والستر على من يأتيهم فى طريقهم لتكون معانى ألفاظهم مشتبهة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم(١).

ويجرى الغزالى على هذا الدرب أيضا فيقول: ليس كل سر يكشف ويفشى ولا كل حقيقة تعرض وتجلى بل صدور الاحرار قبور الاسرار ويقول عبد القادر الجيلانى «ولكن من الحال ما يكتم».

فمن فهم الاشـــارة فليصـنها وإلا ســـوف يقتـــل بالســـنان
كحـــلاج المحبـــة إذ تبدت له شمس الحقيقـــة بالتـــدانى
وقال أنا هـــو الحـــق الذى لا يغـــير ذاته مـــر الزمان

والفرق بين بعض وبعض هو فى البوح والكتم يقول أحمد الرفاعى(٢): أى على(٣): كل القوم شربوها فحكمت عليهم فعربدوا وباحوا وخالك شربها فحكم عليه فكتم حبه وأخفى وجده فظهر بكتمانه على أقرانه وارتفع بكتمان حبه على صحبه. أى على: عليك بكتمان الأسرار تنال الفخار(٤).

أما السهرودى المقتول فيقول:

بالســـر أن باحو تباح دماؤهم وكـــذا دماء البائحين تبـــاح

---

(١) القشيرية ٣٩.

(٢) أحمد محيى الدين أبو العباس الرفاعى يلقب بالغوث ولد وعاش فى أم عبيدة (كـفينة) من أعمال واسط بالعراق وتوفي فيها ٥٧٨.

(٣) على هذا هو على بن عثمان بن أخت الشيخ أحمد له كتاب السر الجلالى والمقامات والمعالى.

(٤) قلادة الجواهر ٨٣.

وقد يفتى الصوفية بقتل من يظهر هذا السر لإظهاره لا لانكاره كما أفتى الجنيد والشبلى بقتل الحلاج غيرة على السر أن يفشى لغير أهله فالواجب كتم الأسرار وإظهار شريعة النبى المختار.

ويرسم بعضهم للآخرين كيفية التعامل مع هذه الأسرار فيرون إن الصوفى إذا باح بها فقال مثلا أنا من أهوى ومن أهوى أنا «قيل تحقق فناؤه فما أبعده عن الصواب وإذا تحقق فناؤه فينبغى ألا يقول ذلك إلا مع من يصدقه فى حاله وإلا تعرض للقتل ودستورهم فى ذلك: «اياك أن تقول اناه واحذر أن تكون سواه»(١).

ولذلك فإن من أعظم مواهب الله لأوليائه فى نظرهم وجود العبارة أى الفتوح بالتعبير عن المقاصد فيعبر عنها دون أن يلام عليها ويشير إليها دون يفضى بها. فمن أعطى العبارة كانت كالأذن من الله فى الكلام ومن أذن له فى التعبير حسنت فى مسامع الخلق عباراته وحليت لديهم إشاراته ومن هنا أخطأ من باح بالحقيقة قبل أن يفتح له بالعبارة، وقد ينطق آخر بنفس الحقيقة فيقبل منه لوجود ذلك الفتح يقول أبو العباس المرسى : أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر(٢).

مما سبق يتضح لنا أن دعاوى الصوفية وشطحاتهم لها معان صحيحة عندهم تقتصر عنها فهوم العامة ولذا لام بعضهم من باح بها منهم لأن فهوم الناس لا تبلغها ولأنها تفضح سرا أوتمنوا عليه وتغرى الآخرين بأن يحكموا عليهم بالكفر وقد تؤدى بمن يبوح إلى القتل يقول قائلهم:

وفى السر أسرار دقاق لطيفة   تراق دمانا جهرة لو بها بحنـــا

ومعظم شطحات الصوفية فى مجال العقيدة وعلاقتهم بالله.

---

(١) الفتوحات الالهية ٢٤٦.   (٢) معالم الطريق إلى الله ٢٥٧.

مجالات الشطح وعباراته

يقسم الغزالى الشطح إلى قسمين:

أحدهما : دعاوى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعاوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشابهة بالخطاب كما قال الحلاج أنا الحق والبسطامى سبحانى سبحانى.

وثانيهما : كلمات غير مفهومة لها ظواهر وليس وراءها طائل أما لأنها غير مفهومة عند قائلها، وأما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهمها «قال صلى الله عليه وسلم ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم» وقال: «كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»(١).

ومعظم شطح من شطح من القوم ودعاويهم هو فى باب العقيدة عقيدتهم فى الله وفى أنفسهم فالاثنينية أو الفرق بين الله والغير اثنينية فى الظاهر فقط وفرق فى اللسان فحسب أما الحقيقة ففى الجمع المشهود فى الجنان يقول أبو الحسن الشاذلى(٢): «ليكن الفرق فى لسانك موجودا والجمع فى جنانك موجودا»(٣) فشطحهم يظهر أكثر ما يظهر فى القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود تلك العقائد التى عرفت عندهم فأظهرها بعض وكتمها بعض. أظهرها الحلاج فى مثل قوله:

---

(١) الحديث الأول رواه مسلم فى مقدمة صحيحه والحديث الثانى رواه البخارى.

(٢) على بن عبد الله بن عبد الجبار الضرير الزاهد ولد بالمغرب وذهب إلى شاذلة فى تونس حيث نسب إليها وأقام فى الاسكندرية وتوفى وهو فى طريقه إلى الحج فى صحراء عيذاب ٦٥٦هـ .

(٣) بداية الطريق إلى مناهج التحقيق ٦٥.

أنـــا أنت بلا شـــك فـــسبحانك ســـبحانى
وتوحيـــدك توحيدى عصـــيانك عصـــيانى

وعبر عنها الجيلى برفع تاء الخطاب فى قوله:

بقيت بهـــا فيها ولا تاء بيننا وحالى بها ماض كذا ومضـــارع

فقوله ولا تاء يعنى بها تاء المخاطب أى أنهما صارا ذاتا واحدة.

ومن ذلك أيضا قول أبى تراب النخشبى(١) لبعض مريديه لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة(٢).

ومن دعاويهم أن الصلاة سقطت عنهم لوصولهم إلى حضرة القدس أو لاستغنائهم عنها بما هو أهم منها أو أن المقصود حضور القلب مع الرب أو أن الصلاة فيها تفرقة فإذا كان العبد فى جمعيته مع الله فلا يحتاج إلى الصلاة بل المقصود بالصلاة هو المعرفة فإذا حصلت لم يحتج إلى الصلاة. أو أن لله رجالا خواصا لا يحتاجون إلى متابعة محمد صلى الله عليه وسلم بل استغنوا عنه كما أستغنى الخضـ عن موسى أو أن كل من كاشف وطار فى الهواء أو مشى على الماء فهو ولى سواء صلى أو لم يصل(٢).

وهذه كلها دعاوى باطلة ساقطة لا تحتاج إلى رد ومنها دعاوى فى الحج يقول أبو يزيد حججت أول حجة فرأيت البيت وحججت

---

(١) ابو تراب عسكر بن محمد بن حسين صحب حاتما الأصم وهو من جلة مشايخ خراسان توفى وقيل نهشته السباع ٢٤٥هـ .

(٢) وجه بعضهم هذا القول بأنه عندما ترى الله يظهر على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره الأحياء ٤/٢٧٥.

(٢) الفتاوى ٤٢٤/١٠.

الثانية فرأيت صاحب البيت ولم أر البيت وحججت الثالثة فلم أر البيت ولا صاحب البيت(١).

وقرئ عليه «إن بطش ربك لشديد»(٢) فقال وحياته أن بطشى أشد من بطشه، كما قال: أن لوائى أعظم من لواء محمد. وهكذا يضرب ذات اليمين وذات الشمال فمرة أعظم من الله ومرة أعظم من محمد صلى الله عليه وسلم ومرة خير من موسى عليه السلام حين يقول: «أراد موسى عليه السلام أن يرى الله تعالى وأنا ما أردت أن أرى الله تعالى هو أراد أن يرانى.

ولهم دعاوى بالنسبة للنار مثل قول أبى يزيد اللهم أن كان فى سابق علمك أنك تعذب أحدا من خلقك بالنار فعظم خلقى حتى لا تسع معى غيرى. وفى هذا تحد ومعارضة لقوله تعالى «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»(٣) ويرى ابن الجوزى أن قوله هذا خطأ من ثلاثة أوجه: **أحدهما**: أنه قال: أن كان فى سابق علمك وقد علمنا قطعا أنه لابد من تعذيب خلق بالنار وقد سمى الله منهم خلقا كفرعون وأبى فكيف يجوز أن يقال بعد القطع واليقين إن كان. **والثانى**: قوله تعظم خلقى فلو قال لأدفع عن المؤمنين ولكنه قال حتى لا تسع غيرى فأشفق على الكفار أيضا وهذا تعاظم على رحمة الله عز وجل. **الثالث**: أن يكون جاهلا بقدر هذه النار واثقا من نفسه بالصبر وكلا الأمرين معدوم عنده.

---

(١) تلبيس إبليس ٣٤٤ .
(٢) البروج ١٢ .
(٣) عبس ٣٤ . ٣٥

ومثل ذلك ما ذهب إليه الشبلى فى قوله: «ولسوف يعطيك ربك فترضى» فقال والله لا رضى محمد وفى النار من أمته أحد ثم قال: إن محمدا يشفع فى أمته وأشفع بعده فى النار حتى لا يبقى فيها أحد. قال ابن عقيل: والدعوى الأولى على النبى كاذبة فإن النبى صلى الله عليه وسلم يرضى بعذاب الفجار كيف وقد لعن فى الخمر عشرة... ودعوى أنه من أهل الشفاعة فى الكل وأنه يزيد على محمد صلى الله عليه وسلم كفر(١).

ولكن ربما لو عرفنا أن ابا يزيد كثيرا ما كان يجن فيذهب عقله ويفقد وعيه عذرناه لأنه والحالة هذه يكون ممن رفع القلم عنه.

ومن دعاويهم أنه قيل لأحدهم بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحجب عنه(٢).

وقضية الصوفية والخضر فيها كثير من المبالغات والخضر فى نظر الإسلام والمسلمين كغيره من الناس عاش كما يعيش النا رمات كما يموتون «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد»(٢) وكلامهم عنه والتقاؤهم به وجلوسهم معه إن لم يكن أكاذيب فهو أوهام وخيالات.

ومن دعاويهم أيضا ما روى عن سهل: أن لله عبادا فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات فى

---

(١) تلبيس ٢٤٨.

(٢) الأحياء ٢/٢٧٥.

(٢) الأنبياء ٣٤.

ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم؟ قال لأنهم لا يحبون مالا يحب حتى قال ولو سالوا ألا يقيم الساعة لم يقمها. وهذا إن لم يكن غرورا فجنون وإن لم يكن خبالا فضلال وأين هم من قوله تعالى: «قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله»(١).

وعلى أية حال فالشطح لا يقتصر على مثل تلك العبارات المشار إليها وإنما يشمل كل راى أو قوله يعبر عن عقيدة أو مذهب مخالف للشريعة مثل قولهم بفتوة أبليس ونجاة فرعون وما إلى ذلك وقولهم فى الجنة والنار وأنهم لو شاءوا ألا يقيم الله الساعة لسمع لهم وأطاع وأنهم يطفئون نار جهنم يوم القيامة بطرف مرقعتهم أو ببزاقهم فيها.

وأخيرا فإنه وإن كان يشار فى الشطح أكثر ما يشار إلى البسطامى والحلاج والشبلى والنورى فإنه ليس قاصرا عليهم ولا محصورا فيما أثر عنهم بل يشمل صوفية آخرين غيرهم وهم يرون أن عبارات الشطح تظهر عن ضعف الحال وأن الذين كتموا أقوى حالا من الذين باحوا ومن باح بها منهم لم يكن فى حالة نفسية طيبة عند صدورها منه ومن ثم عذرهم من عذرهم .

وكان الصوفية أسبق من غيرهم فى رفض هذه الشطحات ولوم أصحابها وهجرهم أحيانا.

---

(١) الأعراف ١٨٨.

الشطح : دراسة نفسية

كثيرا ما تعزى تصرفات الإنسان وخاصة غير العادية منها إلى أسباب وحالات نفسية، وشطح الصوفية ودعاويهم مما يمكن أن يرجع عند بعضهم إلى هذه الأسباب والحالات وبالتالى فإنه ينبغى أن يخضع أصحابه لتحليل ودراسة نفسية وأن ينظر إلى ما يصدر عنهم من خلال تلك الدراسة والحالة النفسية لهم.

فابن الجوزى يعزو شطح بعض الصوفية ودعاويهم إلى قلة العلم لأن العلم يورث الخوف وطول الصمت قال عمر عند موته: الويل لعمر أن لم يغفر له، وقال ابن مسعود ليتنى إذا مت لا أبعث وقالت عائشة ليتنى كنت نسيا منسيا، ولما بعد عن العلم أقوام من الصوفية لاحظوا أعمالهم وإتفق لبعضهم من اللطف ما يشبه الكرامات فانبسطوا بالدعاوى(١). كما انبسط أبو يزيد البسطامى فقال: وددت أن قامت القيامة حتى أنصب خيمتى على جهنم فسأله رجل ولم ذاك قال أنى أعلم أن جهنم إذا رأتنى تخمد فأكون رحمة للخلق، وكما أنبسط الشبلى فقال: إذا كان يوم القيامة وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فأسأله أن يدخلنى النار حتى تعلم الخلائق أن بره و' فى النار مع أوليائه.

وهذا ناشئ -فى نظره- عن جهل وقلة علم بما عليه النار يوم القيامة ومالها من تغيظ وزفير ومع الجهل فإن فى قول هؤلاء تحقيرا لما عظم الله وأمر بإتقائه فى قوله: فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة(٢) وقوله: «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا»(٢).

---

(١) تلبيس ٢٤١.

(٢) البقرة ٢٤.

(٢) الفرقان ١٢.

أما ابن تيمية فيعزو مثل هذا الشطح إلى قلة العقل أو غيابه عندما يروى عن أحدهم أنه قال: أى مريد لى ترك فى النار أحدا فأنا منه برئ فقال الآخر: أى مريد لى ترك أحدا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برئ. فالأول جعل مريده يخرج كل من فى النار والثانى جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار وكأنما الأمر لقلة العقل دخل باب المزايدة واستعراض القدرات.

يعلل ابن تيمية ذلك بأنه إن لم يكن من الكذب عليهم فهو قد صدر عنهم فى حالة غيبة وسكر وفناء أى فى حالة ضعف العقل أو غيابه وفى هذه الحالة -يقول ابن تيمية - يسقط تمييز الإنسان أو يضعف حتى لا يدرى ما قال... ولهذا كان من بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام(١).

أما إذا لم تكن دواعى صدور هذه الأشياء منهم راجعة إلى الجهل أو ضعف العقل فلا يبقى إلا أن ترجع إلى قلة الدين وأن صدورها من بعضهم كان بسبب قلة تدينهم وضعف تمسكهم بالشريعة لحاجات فى نفوسهم، وعندئذ ينبغى أن يخضع الصوفية وتخضع دعاويهم معهم للتحليل والدراسة النفسية، لأن مثل هذه الاعتقادات لا تصدر عن نفس سوية.

وقد أشرنا آنفا إلى أن الوجد عند الصوفية يخضع لمزاج نفسى مركب من حزن وفرح، قبض وبسط ذلك المزاج الذى يولد حالة أشبه بما يسمى (المليودرامى) الجمع بين الانفعالات المختلفة المتضاربة الناتجة عن تأثيرات متناقضة.

---

(١) الفتاوى ١٠/٢٠٨.

وموضوع الدعاوى والشطحات لا يبعد كثيرا عن الوجد فى صدور كل منهما عن نفسية وقعت تحت تأثير ضغوط وطقوس معينة فعجزت عن رؤية الأمور على حقيقتها والتعبير عنها تعبيرا صحيحا فنطقت بعبارات أحيانا مفهومة وأحيانا غير مفهومة، أحيانا معقولة وأحيانا غير معقولة، وحدثت لها أوهام وخيالات من نوع ما يحدث لأصحاب المزاج غير السوى.

ولا نزعم أننا سنقوم هنا بدراسة نفسية لأصحاب الشطح وإنما فقط نريد أن نبين أهمية هذه الدراسة فى هذا المجال. وخاصة أن بعضا منهم كان رواد البيمارستانات وأن «الخانكاة» و «الرباطات» التى كانوا يعيشون فيها كانت قريبة الشبه بهذه البيمارستانات.

ومثل هذه الدراسة لا تقل أهمية من تلك التى قام بها بعض الصوفية عن الشطح والدعاوى وحاولوا فيها تبرير ما صدر منهم فى هذا الباب وتعليله وتوجيهه والاعتذار عن قائليه بأنهم قالوه فى حالة غيب أو أن ما قالوه صحيح ولكن أفهام الآخرين عجزت عن فهمه فالعيب فى هؤلاء الآخرين لا فى السادة القائلين.

وهذه الدراسة ليست سهلة وإنما تحتاج إلى جهد كبير وعمل شاق فلعلها تجد من الباحثين من يهتم بها(١).

وإذا أخضعنا واحدة مثل «رابعة العدوية» لمثل تلك الدراسة فسنجد أن تاريخ حياتها ونشأتها وظروفها الاجتماعية التى عاشت فيها -حسب ما تحدثنا به الكتب التى تناولت ترجمتها- لها أثر كبير فى تشكيل حياتها فيما بعد وما آل إليه أمرها فى التصوف وما نطقت به من دعاوى وشطحات.

---

(١) ربما تعتبر الدراسة التى قام بها الدكتور عبد الرحمن بدوى «شخصيات قلقه فى الإسلام» مقدمة لمثل تلك الدراسات المطلوبة.

وكأنها كانت فى زهدها وتصوفها وشطحاتها ودعاويها تريد أن تمحو كل أثر لماضى حياتها وأن تبتره من تاريخها. وكأنها عندما تقول عبدت الله لذاته لا خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته تريد أن تحرر العبادة من أسر الأغراض لتفاهة هذه الأخيرة بجانب شرف العبودية وصدق العبادة.

فحق عبادة الله وعبوديته يتنافى فى نظرها مع عبادة الهدف والغرض والعبودية لله، ومن عبد الله لغرض مهما سما هذا الغرض فقد عبد غرضه وما عبد ربه -ذهبت إلى ذلك وهى التى قضت شرخ شبابها أسيرة الأغراض وذاقت ذل العبودية لها. فهى فى عبارتها السابقة تصدر عن تجربة مريرة ونفس كليلة جعلتها تجنح فى الحكم وتغلو فى تقدير الأشياء. وإخلاص العبودية لا يتنافى مع وجود الهدف والغرض فى الإسلام والله طالبنا بالعبادة خوفا ورهبا ورجاء وطمعا وتكرر معنى قوله تعالى «جزاء بما كانوا يعملون» كثيرا فى القرآن الكريم وكثيرا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بالجنة ويستعيذ من النار.

والفضيل بن عياض كان شاطرا يقطع الطريق كان ذا نفس مليئة بالشر أمارة بالسوء يعشق الجوارى ويحب الخنا. عشق جارية وبينا هو يرتقى الجدران إذ سمع تاليا يتلو «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله»(١) فلما سمعها قال بلى يارب قد آن فرجع فأواه الليل إلى خربة فإذا بها سابلة فقال بعضهم نرحل وقال بعضهم حتى نصبح فإن فضيلا فى الطريق يقطع علينا. قال: فضيل ففكرت قلت أنا أسعى بالليل فى المعاصى وقوم هاهنا يخافونى وما أرى الله

---

(١) الحديد ١٦.

ساقنى إليهم إلا لارتدع. اللهم إنى قد تبت إليك وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام(١).

فانظر إلى هذه النفس التى عبت من الشر حتى طفح بها الكيل. ثم تحركت بذرة الخير فى اعماقها فنمت وترعرعت حتى تطرفت فى الخير كما تطرفت قبلا فى الشر وشخص مثل هذا ذو نفس مثل تلك جدير بدراسة نفسية متأنية.

وإبراهيم بن أدهم كان من أبناء الملوك والمياسير خرج للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته فترك طريقته فى التزين بالدنيا ورجع إلى طريقة أهل الزهد. إبراهيم بن أدهم والحالة هذه ليس أقل حاجة إلى تحليل دراسة نفسية من سابقه.

وقل مثل ذلك فى الحلاج والشبلى والنورى والسهروردي وغيرهم معهم. من يفتش فى تاريخ حياتهم فسيجد لديهم من العوامل(١) ما أدى بهم إلى ما صاروا إليه . وسيجد الدارس لحياة الصوفية أن الكثيرين منهم لهم طفولة غير عادية رسبت فى أعماق نفوسهم مشاعر وأحاسيس أثرت عليهم فيما بعد وخرجت بكثير من أقوالهم وتصرفاتهم عن حد السلوك السوى أو التحدى لبعض ما جاء به الدين فى مثل ماروى عن أبى الحسن على إبراهيم الحضرى أنه قال: إذا قرئ القرآن لاأستعيذ من الشيطان. وأقول الشيطان حتى يحضر كلام الحق.

ودعاوى الصوفية على قسمين: دعاويهم فى أنفسهم وهى تلك

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤٢١/٨.

(٢) قد تتمثل تلك العوامل فى الفقر المدقع أو العزلة الطويلة أو الظلم أو الوحشة من المجتمع أو الطفولة الصعبة أو غير ذلك.

الشطحات والدعاوى التى أوردنا الكثير منها وأدعاءاتهم على غيرهم وهو نوع آخر من الدعاوى.

يروى ابن تيمية عن الصوفية أنهم قالوا أن أهل الصفة قاتلوا النبى مع الكفار لما انهزم أصحابه وقالوا نحن مع الله من غلب كنا معه وأنه صبيحة الاسراء سمع منهم النبى ما جرى بينه وبين ربه فلما سأل النبى ربه يارب قلت لا تطلع على ذلك السر أحدا قال له ربه قلت لا تطلع أنت ولم أقل لا أطلع أنا عليه أحدا. ويقولون أيضا أن النبى تواجد فى السماء حتى وقع منه الرداء(١).

ويروى بعضهم أن الرسول قال يوما لأبى بكر أتدرى يوم يوم فقال أبو بكر نعم يا رسول الله لقد سالتنى عن يوم المقادير. وأنه قال له يوما يا أبا بكر أتدرى ما أريد أن أقول؟ فقال نعم هو ذاك، وأن عمر قال كان النبى وأبو بكر يتحدثان وكنت كالأعجمى بينهما. ويعلق ابن تيمية على ذلك فيقول: وهذا من الافك المختلق(٢).

ورموز الصوفية مجال خصب للدراسة النفسية التحليلة ولا يكفى فيها أن تعلل بمثل ما عللها به ابن عربى فى فتوحاته(٢) بقوله: الغاز الصوفية وإشاراتهم ومسمياتهم التى اصطلحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم وضعوها منعا للدخيل بينهم حتى لا يعرف ما هو فيه شفقة عليه أن يسمع شيئا لم يصل إليه فينكره على أهل الله فيعاقب على حرمانه ولا يناله بعد ذلك أبدا.

ومن عجب -والقول لابن عربى- أن المريد الصادق إذا دخل طريق القوم وما عنده خبر بما اصطلحوا وجلس معهم وسمع منهم

---

(١) الفتاوى ٢٨٥/١٠. (٢) الفتاوى ٥٤/١١ .
(٢) الباب الرابع والخمسون.

ما يتكلمون به من الاشارات فهم جميع ما تكلموا به حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح. يجد علم ذلك ضروريا لا يقدر على دفعه ولا يدرى كيف حصل له ذلك- هذا شأن المريد الصادق أما الكاذب فلا يعرف ذلك إلا بتوقيف.

نقول لا يكفى مثل ذلك التعليل وإنما يجب أن تخضع المسأله برمتها للدراسة والتحليل.

وللصوفية تفاسير للقرآن الكريم مليئة بهذه الرموز والاشارات، لابن عربى تفسيره وللقشيرى والتستري والسلمى ومن ليس له تفسير تعرض لكثير من آيات القرآن وسوره فى كلامه وكتبه بالتفسير والتأويل، وكانوا إذا ما سمعوا أحدا فى التفسير يقول أخبرنى فلان عن فلان يقولون لا تطعمونا القديد ولا تحدثوا إلا بفتحكم الجديد.

وسيان فى الخضوع للدراسة النفسية للصوفية من ادعى الدعاوى أو من قبلها منهم ورواها عنهم وهو راض عنها مثل الغزالى الذى جمع فى احيائه الكثير منها يرويها عنهم رواية متقبل لها مقدر لأصحابها يقول ابن الجوزى : أعجب من جميع هؤلاء عندى أبو حامد كيف حكى هذه الاشياء ولم ينكرها وكيف ينكرها وقد أتى بها فى معرض التعليم وكان أولى به أن يتجاوزها أو يحذر منها.

وهو لا يختلف فى ذلك عن أبى يزيد البسطامى حين يروى عنه أنه نصح رجلا أن هو أراد أن يكون مثله مكشوفا عنه الحجاب ألا يعبأ بالصلاة ولا بالصيام ولكن أن يذهب الساعة إلى الحمام ويحلق رأسه ولحيته وينزع عنه لباسه ويبرز عباءته ويعلق فى عنقه مخلاة يملأها جوزا ويجمع حوله الصبيان ويقول بأعلى صوته :

يا صبيان من يصفعنى صفعة أعطيه جوزة. فقال الرجل: يا أبا يزيد سبحان الله تقول لى لى مثل هذا. فقال أبو يزيد: قولك سبحان الله شرك. قال: وكيف؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها.

فصاحب هذه القصة وراويها سيان فى وجوب خضوعها للتحليل والدراسة.

وليس فى شرعنا -والحمد لله- شئ من هذا القبيل- الذى ورد فى القصة- بل فيه تحريم ذلك والمنع منه وقال صلى الله عليه وسلم: ليس للمؤمن أن يذل نفسه، ولقد فاتت الجمعة حذيفة فرأى الناس راجعين فاستتر لئلا يرى بعين النقص فى قصة الصلاة.

ومما ينبغى أن يخضع للدراسة أيضا عند الصوفية تسميتهم الأشياء بغير اسمائها الحقيقة كمصطلح الحقيقة والشطح والوقت والوجد والرباط قال ابن عقيل: عبرت الصوفية عن الحرام بعبارات غيروا لها الأسماء مع حصول المعنى فقالوا فى الإجتماع على الغناء أوقات وفى الطرب وجد وفى مناخ اللهو والبطالة رباط وفى المعشوقة أخت وفى المحبة مريدة. وهذا التعبير لا يباح(١).

وابن عقيل أن كان هنا يتكلم بلسان التجريح فإن الدراسة النفسية ستعيد الأمور إلى نصابها الصحيح وتكشف لنا عن الأسباب الحقيقة لما يقوم به بعض الصوفية.

وتغيير المصطلحات وتسمية الأشياء بغير أسمائها ربما يكون أهون من تغيير الأحكام والاستهانة بوعيد الله فيما يرويه السراج عن الشبلى أنه سمع قارئا يقرأ: «اخسئوا فيها ولا تكلمون»(٢) فقال

---

(١) تلبيس ٢٥٠.　　(٢) المؤمنون ١٠٨.

ليتنى كنت واحدا منهم. أى واحدا من أصحاب النار أهل الخسء.

ويسمع مرة أخرى رجلا يؤذن فلما بلغ الشهادتين قال لولا أنك أمرتنى ما ذكرت معك غيرك. وهذا جهل بالدين أو معصية فيه لأن الشهادتين من أصل الدين لا تتم إحداهما إلا بالأخرى.

وقريب من ذلك قول أبى الحسن النورى عندما سمع المؤذن: طعنة سم الموت وسمع نباح كلب فقال لبيك وسعديك. وأغرب من قوله هذا تعليله بأن الكلب يذكر الله بلا رياء ولا أجر «وإن من شئ إلا يسبح بحمده»(١) أما المؤذن فمراء ويأخذ الأجر مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «لو لم يجد الناس إلا أن يستهموا عليه لا ستهموا».

وقد يكون هذا كله أو بعضه مدسوسا على الصوفية ولكن تبقى أهمية الدراسة النفسية قائمة فى مجال التصوف لسبب أو لآخر.

وأنه خير من رده أو تأويله أو الاعتذار عن قائليه اخضاعه لدراسة واسعة مستفيضة وتحليل نفسى شامل.

فلكل صوفى طابع معين ولكلامه مذاق خاص لأنه خاضع لحالته النفسية الخاصة به أو لفتحه الجديد وهم وإن كانوا يسعون إلى هدف واحد وغاية لامذاهب فيها فإنهم يختلفون فى الشكل ويتفاوتون فى الطريق إليه. فالهدف واحد والطرق إليه متعددة تعدد نفوسهم وأنفاسهم وتفاوتها.

---

(١) الإسراء ٤٤.

القسم الثانى

أصول الملامتية وغلطات الصوفية

١ - دراسة وتحليـــــل .

٢ - تحقيق وتعليـــق .

أصول الملامتية وغلطات الصوفية : دراسة وتحليل

١ - الملامتية : الطائفة والمذهب :

الملامتيةطائفة من طوائف الصوفية اهتمت أكثر مااهتمت بالنفس، فحاسبتها محاسبة شديدة، واتهمتها فى كل خلجاتها وخطراتها ولامتها على جميع ما أظهرت من أنواع القرب والعبادات، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم فلامهم الخلق(١) على ظواهرهم، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم.

وقد ظهر هذا المذهب بنيسابور فى منتصف القرن الثالث الهجرى ومن أشهر رجاله حمدون القصار وأبو حفص النيسابورى.

والملامة أسلوب من أساليب تقويم النفس ومحاربتها وتطهيرها من شوائب العجب والرياء. وهى نسبة على غير قياس إلى اللوم. لوم الملامتى نفسه من جهة ولوم الناس له من جهة أخرى. والمراد بلوم الملامتى نفسه، أن الملامتى لا يرى لنفسه حظا على الاطلاق ولا يطمئن إليها لأنه يعتقد أن النفس شر محض، وأنها لا يصدر عنها إلا ما يوافق طبعها من رياء ورعونة. والمراد بلوم الناس أن الملامتى يرى أن معاملته مع الله سر بينه وبين ربه لا يصح أن يطلع عليه غيره فهو حريص على كتمان ذلك السر غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلته به.

والملامتية مصطلح مستمد مما جاء فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: «لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة(٢)»

---

(١) قد يتهم الملامتية هنا بأنهم يلاحظون الخلق فى أعمالهم أكثر مما يلاحظون الله تعالى.

(٢) أول سورة القيامة.

وقوله «يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم(١)» ، إذ تعلى الآيتان من شأن النفس التى تلوم صاحبها وتؤنبه وتحاسبه على كل ما يصدر منه، والنفس التى تخلص فى جهادها فى سبيل الله وتستميت فيه من غير اكتراث بلوم اللائمين أو مدح المادحين.

ويقوم المذهب الملامتى عموما على الجانب السلبى فى النفس ومحاربته أكثر مما يقوم على الجانب الايجابى وتزكيته. فالصفات التى يجب ألا يتصف بها الملامتى أكثر من الصفات التى ينبغى أن يكون عليها. والتعاليم التى يفرضها الملامتية على مريديهم لا تكاد تعدو سلسلة من النواهى فالملامتى مثلا مطالب بألا يظهر شيئا من عبادته أو ورعه، ولا من حلمه أو علمه، ولا من إخلاصه أو صدقه ولا يتكلم فى فضائل النفس وكمالاتها بقدر ما يتكلم فى عيوب النفس وآفاتها، ولا يطالب نفسه بما يقوم النفس ويزكيها بقدر ما يفرض على نفسه اتهامها وتحقيرها ومصادرتها فى جميع رغباتها ومطامعها. وهو يفضل الكلام عن نقائص الأعمال ومساوئها على الكلام عن مناقب الأعمال ومحاسنها.

ومع محاربة الملامتية للنفس التى يعدونها أعدى أعداء الإنسان حاربوا كل مظهر من مظاهرها ينبئ عن الرياء. فحرموا على أنفسهم وأتباعهم لبس المرقعة التى كان يلبسها كثير من الصوفية والفقراء، لما ينطوى عليه لبسها من ادعاء، وما عسى أن يجلب للابسها من مدح الناس واعجابهم وكذلك حرموا الظهور بين الناس بمظاهر الورع والتقـــوى والإيثار ونحو ذلك للسبب عينه . أو قل

(١) المائدة ٥٤ وقد وردت مادة اللـــوم فى القرآن الكريم أكثر من عشر مرات.

-إن شئت- إنهم حرموا الرياء فى الأعمال والأحوال والعلم وقالوا باتهام النفس فى كل ذلك ورؤية التقصير فى كل ما يصدر عنها من أعمال الطاعة(١). قيل لما دخل أبو بكر الواسطى نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان الحيرى بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا كان يأمرنا بالطاعات ورؤية التقصير فيها فقال: أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها(٢).

والكلام عن عيوب النفس وآفاتها ربما كان له ما يبرره وذلك لأن ـركية النفس وتربيتها لاتتأتى إلا بعد الوقوف على عيوبها ونقائصها. والتحلية -كما يقولون- مقدمة على التحلية. أو نستطيع أن نقول: أنه إذا عرف الإنسان عيوب نفسه ونقائصها وتجنب تلك العيوب، واقتلع تلك النقائص زكت نفسه تلقائيا أو كانت تزكيتها عليه أسهل وأهون. ومن هنا نرى القرآن الكريم يتحدث عما فى النفس الإنسانية من النقائص والعيوب أكثر مما يتحدث عما فيها من الفضائل والمحامد. «أن الإنسان خلق هلوعا(٣)» «وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء(٤)» «وخلق الإنسان ضعيفا(٥)» «وكان الإنسان عجولا»(٦)، «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى»(٧).

---

(١) أبو العلا عفيفى : التصوف ٢٨١.
(٢) الرسالة القشيرية ٣٢.
(٣) المعارج ١٩.
(٤) يوسف ٥٣.
(٥) النساء ٢٨.
(٦) الإسراء ١١.
(٧) النجم ٣٢.

وكثير من الفلسفات والديانات تركز على عيوب النفس أكثر مما تركز على محامدها. ورد فى كتاب الموتى للمصريين القدماء أن الروح تتلو اعترافاتها السلبية التى تثبت براءتها من الآثام وهى تتلخص فيما يلى:

لم أرتكب سلبا بإكراه، لم أسرق، لم أقتل رجلا ولا إمرأة، لم أسرق الحبوب ، لم أسرق القرابين، لم أسرق ممتلكات الاله، لم أكذب، لم أنطق اللعنة، لم أقترف جريمة الزنا، لم أقترف جريمة اللواط، لم أبك أحدا، لم أكن متشائما، لم أهاجم أحدا، لم أتسمع على الأبواب، لم أشنع على الناس بما ليس فيهم، لم أغضب بدون سبب، لم أعمل شيئا بتسرع، لم أكثر من الكلام عبثا، لم أرهب أحدا، لم أحدث اضطرابا فى النظام، لم أمنع الماء عن الجيران لم أحجر الخير عن الأطفال(١)».

فالسبب فى التركيز على معايب النفس أن من عرف عيوب نفسه سهل عليه أمر إصلاحها.

وربما يظهر الملامتى من نفسه للناس ما يجلب عليه منهم المذمة والسخط والازدراء والاتهام، ويرسل ألسنتهم بالسب والشتم والتأنيب وذلك خشية أن يتسرب الغرور إلى نفسه إذا ظهر أمام الناس بما يوجب مدحهم له(٢) ويشير إلى هذا المعنى قول بعضهم (الملامة ألا تظهر خيرا ولا شراً) وقول الآخر : (وأهـل الملامـة

---

(١) انظر: د. عبد الفتاح الفاوى: عقيدة المعاد٢١.

(٢) هكذا يظهر الملامتية من حيث يريدون أن يختفوا ويعرفون من حيث يريدون أن يستتروا.

أظهروا للخلق ما يليق معهم من أنواع المعاملات والأخلاق، وما هو نتائج الطباع، وصانوا ما للحق عندهم من ودائعه المكنونة.

وهكذا يقوم مذهب الملامتية على أصلين هامين :

أولهما : مقاومة النفس فى كل ما يصدر عنها من أفعال، وما يخطر بها من خواطر.

وثانيهما : اخفاء المظاهر التى تنم عن الحياة الروحية، وبخاصة ما يشير منها إلى الصلة بين العبد وربه. بل الظهور بين الناس بالمظاهر التى يبدو أنها لا تتفق مع ظاهر الشرع استجلابا لملامة الناس وتأنيبهم.

على هذين الأساسيين بني الملامتية نظاما فى التصوف العملى والنظرى انفردوا به، وامتازوا فيه عن غيرهم من الصوفية.

٢ - *الملامتية والصوفية* :

يفرق السلمى بين الصوفية والملامتية بأن الصوفية انقطعوا إلى الله وجعلوا همهم فيه فكانوا له وبه وإليه. أما الملامتية فأولئك هم الذين زين الله بواطنهم فلم يكن للافتراق إليهم سبيل. وقد غار الحق عليهم لئلا يعرف الخلق أحوالهم. فأظهر للخلق منهم صفاتهم الظاهرة التى تدل على معنى الافتراق لكى يسلم لهم حالهم معه تعالى. وجعل من أسنى أحوالهم ألا يؤثر باطنهم فى ظاهرهم لئلا يفتتن بهم الناس. فالصوفية مع الله أشبه بموسى عليه السلام لما ظهر أثر باطنه عندما كلمه ربه فلم يطق أحد النظر إليه. والملامتية مع الله أشبه بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يؤثر باطنه فى ظاهره بعد ما ناله من القرب والدنو عندمارفع إلى المحل الأعلى فلما رجع ألى الخلق تكلم معهم فى أمور دنياهم كما لو كان واحدا منهم وهذا أكمل العبودية.

ويصف ابن عربى الملامتية بأنهم رجال قطعهم الله إليه وصانهم صيانة الغيرة عليهم لئلا تمتد إليهم عين فتشغلهم عن الله «قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم طرفة عين، لا يعرفون للرياسة طعما لاستيلاء الربوبية على قلوبهم... وليس ثم من حاز مقام الفتوة والخلق مع الله دون غيره سوى هؤلاء(١)»

وبينما يرفع السلمى وابن عربى الملامتية إلى درجة أعلى من التصوف ينزل بهم السهروردى إلى درجة أدنى من التصوف. ويعلل ذلك بأن حال الصوفى أعلى من حال الملامتى، لأن حال الصوفى الفناء من كل ما سوى الله أما حال الملامتى فلا تزال تربطه بالخلق وبنفسه فهو يشعر بنفسه وبالخلق(٢) فغاية الصوفى فى نظر السهروردى الفناء فى الله ورؤية الخلق بعين الزوال، ومعاينة سر قوله تعالى كل شئ هالك إلا وجهه. وهذا هو المعنى الذى أشار إليه بعضهم بقوله «صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق»(٣)أما غاية الملامتى فهى الإخلاص فى الأعمال وتحريرها من كل معنى من معانى الرياء. وهذا يقتضى مراقبة دقيقة للنفس، وعدم الفناء عنها، وإلى ذلك يشير السهروردى بقوله «إن الملامتى أخرج الخلق من عمله وحاله، ولكنه أثبت نفسه فهو مخلص، والصوفى أخرج نفسه من عمله كما أخرج غيره فهو مخلص وشتان بين المخلص الخالص والمخلص(٤).

---

(١) الفتوحات ٢/٢٤٥.

(٢) عوارف المعارف ٥٤، ٥٥.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

ويوجز التسترى الفرق بين الصوفى والملامتى أو بين اخلاص كل منهما فيرى أن اخلاص الملامتى رؤية التقصير فى عمله، وأما اخلاص الصوفى فهو عدم رؤية الأعمال على الإطلاق أو بعبارة أخرى الفناء عن الأعمال.

ولكنا نعرف أن الملامتى يكره الدعاوى وينكرها لأن الدعاوى فى نظره جهل ورعونات فمن الطبيعى ألا يتكلم عن الفناء لأن الفناء من قبيل الدعاوى المذمومة فى مذهبه. ولهذا لم يترد الملامتية إلى القول بوحدة الوجود أو الاتحاد أو الحلول، أو ما شاكل ذلك من الأقوال التى شاعت على ألسنة بعض الصوفية لأن القول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود كان فى معظم الحالات من لوازم القول بالفناء.

على أن الصوفى إذ يدعى الفناء عن الخلق أو عن نفسه وأعماله فإنه يشعر بالاثنينية عندئذ ويلاحظها ملاحظة قوية وإلا لما ادعى الفناء وإذا كان لابدمن تفرقة فإننا نستطيع أن نقول أن جانب المعرفة فى التصوف أوضح بينما جانب السلوك فى الملامة أوضح. وبينما يرفع ابن عربى الملامتية إلى أعلى درجات السالكين(٢)، ويشيد بهم السلمى، ويضعهم السهروردى فى مقام دون الصوفية(٣) نجد ابن الجوزى يعيبهم فيصفهم بأنهم أسقطوا جاههم عند الله(٤).

ويصل الملامتية أنفسهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، فيرون أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل ظهور برهان الحق واتصال

---

(١) السابق.

(٢) الفتوحات ٣/ ٤٦.

(٣) عوارف المعارف ٥٤.

(٤) تلبيس ابليس ٢٦٣.

الوحى به طيب الاسم عظيم الذكر، وعندما ألبسه خلقة المحبة أطلق الخلق لسان الملامة فيه فقالت طائفة أنه كاهن، وقالت أخرى أنه شاعر، وقال فريق أنه كاذب، وقال آخرون أنه مجنون.

وذلك أن سنة الله قد جرت على إغراء الخلق بلوم الخلق وهذه علاقة بالله، وحفظ سر ذلك الملوم عن الانشغال بلوم الخلق وهذه غيرة الحق التى يحفظ بها أحباءه من ملاحظة الغير حتى لا تقع على جمالهم عين، ويحميهم من رؤيتهم لأنفسهم حتى لا يروا جمال أنفسهم ولا يعجبون بها، فإذا فعلوا الشر لامتهم أنفسهم عليه وإذا فعلوا الخير رمتهم فيه بالتقصير.

وينشأ أصل العيب فى النفس من شيئين : أحدهما طلب الجاه لدى الخلق ومدحهم، والاخر رضاه عن مدحهم له وثنائهم عليه، واعجابه بذلك.

وقد سد الله تعالى بفضله هذا الطريق على أحبائه حتى أن معاملتهم وإن تكن طيبة لا يرتضيها الخلق لانهم لايرونهم رؤية حقيقيــة ومجاهداتهم وإن تكن كثيرة فإنهم لا يرونها بحولهم وقوتهم(١) وقد ورد فى الأثر عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل «أوليائى تحت قبائى لا يعرفهم غيرى إلا أوليائى».

وطريق الملامة كطريق التصوف فيه المحق وفيه المبطل وفيه الأصيل وفيه الدعى. فمن كان طريقه الاستقامة، وعدم مزاولة النفاق والكف عن الرياء فلا خوف عليهم فى ملامة الخلق، وكذلك من كان طريقه القصد فى الملامة وترك الجاه والرئاسة.

---

(١) كشف المحجوب ٢٦.

وجد فى الحكايات أن الشيخ أبا طاهر الحرمى كان يركب يوما حمارا وقد أمسك واحد من مريديه بعنان الحمار، وكان يسير فى السوق فصاح رجل يقول : هذا الشيخ زنديق فلما سمع المريد ذلك القول أراد - بدافع غيرته على شيخه - أن يرجم الرجل وثار جميع أهل السوق أيضا. فقال الشيخ للمريد : إذا لزمت الصمت علمتك شيئا لتتخلص من هذه المحن فصمت المريد. ولما رجع إلى الخانقاه قال للمريد: أحضر ذلك الصندوق. فلما أحضره أخرج منه لفافات من الرسائل ووضعها أمامه وقال له أنظر: لقد أرسل كل شخص إلى رسالة وخاطبنى فيها كل بلقب، فواحد لقبنى بالشيخ الإمام، وآخر لقبنى بالشيخ الذكى وواحد لقبنى بالشيخ الزاهد، وآخر لقبنى بشيخ الحرمين، وأمثال هذا. وهى كلها ألقاب وليست أسماء ولست شيئا من هذا كله. وقد قال كل منهم كلاما على حسب اعتقاده، ولقبنى بلقب فلماذا آثرت كل هذا العداء(١).

كما روى عن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه أنه كان قادما يوما من بستان نخل - فى حال خلافته - وقد حمل على رأسه حزمة حطب وكان له أربعمائة غلام. فقيل له يا أمير المؤمنين: ما هذا؟ قال: «أريد أن أجرب نفسى» هذا حتى لا يمنعه جاهه بين الخلق عن أى عمل.

ويروى أيضا عن أبى يزيد أنه كان قادما من الحجاز فنودى فى المدينة أن أبا يزيد قد جاء فخرج الناس جميعا لاستقباله وأدخلوه المدينة بأكرام ولما انشغل بمجاملتهم تخلف عن الحق وتشتت فلما دخل السوق أخرج من كمه رغيفا وأخذ فى أكله - وكان هذا فى

---

(١) كشف المحجوب ٢٦٢.

شهر رمضان، فرجع الناس جميعا عنه وتركوه وحده وكان بصحبته مريد فقال له: ألم تر كيف أني تركت مسألة واحدة من الشريعة فردني الخلق جميعا(١).

أما من كانت طريقته الترك ومخالفة الشريعة دائما باختياره فذلك من الادعياء الدخلاء على الطريقة فإن أمثال هؤلاء مقصودهم من رد الخلق قبول الخلق، لأنه يجب أن يكون الشخص اولا مقبولا من الخلق حتى يطلب ردهم ويظهر بفعل يردونه به، إذ أن تكلف الرد لقبول لم يحصل يكون حيلة.

ويحكي الهجويري عن أحد من هؤلاء فيقول: اتفق لي ذات مرة أن أصحب هؤلاء الأدعياء المبطلين. فظهر يوما بمعاملة باطلة، وجعل الملامة عذرا لها. فقال له رجل: هذا ليس بشيء: فرأيته يزفر فقلت يا هذا. إذا كنت تسلك طريق الملامة وأنت صادق في هذا فإنكار هذا الرجل لفعلك تأكيد لمذهبك. وما دام هو يوافقك في طريقك فلم الخصومة والغضب وقصتك هذه أقرب إلى الدعوى منها إلى الملامة. وكل من يدعو الخلق يجب أن يدعوهم بأمر له برهان من الحق وبرهانه حفظ السنة. ولما كنت أرى منك ترك الفريضة ظاهرا وأنت تدعو الخلق فإن هذا الأمر يخرج من دائرة الأسلام(٢).

ولا يوجد عند الملامتية شيء أطيب من الملامة، إذ ليس عندهم لملامة الحبيب أثر على قلب الحبيب، وليس للأغيار حظر على قلب الحبيب لأن الملامة روضة العاشقين، ونزهة المحبين، وراحة المتنافسين وسرور المريدين. وهذه الطائفة من الثقلين مخصـوصون

---

(١) السابق والصفحة.

(٢) كشف المحجوب ٢٦٢.

بملامة الجسد من أجل سلامة القلب. ولم تكن هذه المرتبة لأحد من الأمم السابقة إلا لهذا الفريق من هذه الأمة.

وإذا كان هذا هو رأى الملامتية فى طريقهم فإن لغيرهم فى الملامة رأيا آخر يوضحه الهجويرى بقوله: إن طلب الملامة عندى عين الرياء والرياء عين النفاق لأن المرائى يسلك الطريق الذى يقبله الخلق والملامتى يسلك بالتكلف الطريق الذى يرده الخلق. وهذان الفريقان ظلوا فى الخلق ولا مخرج لهم منهم حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه المعاملة والأخرى خرجت بتلك. ولا يخطر على قلب الفقير غير حديث الحق وحين يقطع قلبه عن الحق يكون فارغا من هذين المعنيين ولا يقيده شئ(١).

ويروى أنه اتفقت له ذات مرة صحبة أحد الملامتية فسأله عن مراده فيما يقوم به من أفعال مشوشة: فقال: خلو الخلق منى فقال له هؤلاء الخلق كثير ولن تجد العمر والزمان والمكان لاخلاء الخلق منك فأخل أنت نفسك من الخلق لتتخلص من هذه المشاغل، ويوجد فريق منشغلون بالخلق ويظنون أن الخلق مشغولون بهم. أن أحدا لا يراك، فلا تر أنت نفسك. ثم ما شأنك بالغير؟

ونرى أن الملامة والملامتية إن وقفوا عند حد لوم أنفسهم على شرورها ورؤية التقصير فى كل ما تأتيه من خير فذلك جائز وصحيح وخلق إسلامى حميد فما منا إلا وهو مطالب بذلك ويجب على كل واحد منا أن يرى التقصير فى نفسه مهما سمت وزكت وأتت من خير، وقدوتنا فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن كثرة عبادته واستغفاره وقد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال: أفلا أكون عبدا شكورا !!

---

(١) كشف المحجوب ٥٦٢.

فالعبد مقصر مهما بالغ فى العبادات والطاعات، ومهما أتى من خير لأن طاعته وعبادته وخيريته لن يوفى بها شكر أقل نعمة من نعم الله عليه. فما بالك فيمن يطمع فى الجنة!!

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا حتى يتغمدنى الله برحمته.

فالملامة إن كانت بهذا المعنى وهى أن يأتى الطاعات والخير ويرى التقصير فهى صحيحة. أما أن يفعل المعاصى أو المنكرات كما فعل الحلاج عندما أفطر فى رمضان فليست من الإسلام فى شئ لأن طاعةالله لا تكون إلا بموافقة شرع الله وهذه الأعمال ليست من شرع الله لأنها من المعاصى ومحال أن تكون المعصية طاعة والمخالفة عبادة.

هذا بالنسبة للملامة فى جانب العبادة أما بالنسبة للأخلاق والمعاملة فكثير مما يقوم به الملامتية هو من قبيل التواضع المحمود ومعاملةالناس بالفضل لا بالعدل والمسلم مدعو إلى ذلك مع مراعاة عدم المهانة والابتذال الذى يتنافى مع كرامة المؤمن بل مع كرامة الإنسان التى من الله عليه بها فى قوله « ولقد كرمنا بنى آدم » فمنهج الملامتية فى مخالفة الشريعة ابتغاء اللوم مرفوض فى جملته أما منهجهم فى الأخلاق فمقبول فى معظمه(١).

---

(١) هذا وقد تغير الحال فى أيامنا هذه فمن أراد اللوم فى أيامنا هذه فما عليه إلا أن يأتى بالعبادات على وجهها ويزاول دينه كما ينبغى أو كما يقول الهجويرى إذا أراد رجل أن يلام فليؤد ركعتين طويلتين فإن الخلق جميعا سيصفونه بالمرائى والكذاب - كشف المحجوب ٢٦٣.

وقد تسمى الملامتية أحيانا القصارية أو الحمدونية نسبة إلى حمدون القصار، الذى يصفه السلمى بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور، وكان من أوائل مؤسسيها كما أن من مشائخهم أبو حفص النيسابورى وأبو عبد الله محمد بن منازل وسنخص كل واحد من هؤلاء بحديث حتى تتضح معالم المذهب وسيرة أعلامه قبل تحقيقنا لكتاب أصول الملامتية.

هذا وهناك صلة رحم وقربى بين الملامتية والفتوة فى المذهب والمنهج، والطريق والرجال. الأمر الذى يقتضى أن نتعرف معه على الفتوة لنتبين علاقتها بالملامتية.

٣ - الملامتية والفتوة :

الفتوة :اسم أطلق على مجموعة من الفضائل أخصها الكرم والسخاء والمروءة والشجاعة تميز المتصف بها عن غيره من الناس، وقوامها الإيثار.

والفتوة بهذا المعنى كانت موجودة قبل الإسلام وفى الصدر الأول منه، ولكنها كانت أمرا فرديا لاوجود له فى جماعة منظمة حتى جاء الصوفية وأخذوا تلك المعانى، وأضافوا إليها معانى أخرى تتصل بفكرة الإيثار مثل كف الأذى، وبذل الندى، وترك الشكوى،وأسقاط الجاه ومحاربةالنفس،والعفو عن زلات الآخرين.وظهر مذهب الفتوة، وتميزت طائفة الفتيان. ومن أهم رجال تلك الطائفة وأكبر شيوخهم الفضيل بن عياض(١) الذى يلقبه أحد الباحثين(٢) بشيخ الطائفة.

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر خراسانى مات ٢٧٧ من كلامه من جلس مع صاحب بدعة لم يؤت الحكمة.

(٢) د. على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى ٢/ ٥٦٥.

ويعرف الفضيل الفتوة فيقول : هى الصفح عن عثرات الإخوان(١) وقد أورد أبو نعيم فى حليته أن بعض الزهاد قال: وقفنا للفضيل بن عياض على باب المسجد ونحن شبان علينا الصوف فخرج علينا فلما رآنا قال: وددت أنى لم أركم ولم ترونى، أترونني سلمت منكم أن أكون ترسا لكم حيث رأيتكم وتراءيتم لى، لأن أحلف عشرا أنى مراء ومخادع أحب إلى من أن أحلف واحدة أنى لست كذلك.

وكان الفضيل بن عياض يأخذ بأيدى سفيان بن عينية وشعيب بن حرب ويذكرهما بأنه لا يوجد على الأرض من هو أسوأ منه ومنها.

وهكذا تتضح فى حياة الفضيل بن عياض روح الملامة اتضاح روح الفتوة بل نستطيع أن نقول أن الفضيل كان بلا منازع أول فتيان زهاد المسلمين كما كان أول ملامتى(٢).

وكما لقب الفضيل بن عياض بشيخ الفتيان لقب الحسن البصرى(٣) بسيد الفتيان مع أن الحسن البصرى نفسه يقول عن الفتو «كان الفتى إذا نسك لم نعرفه بمنطقه، وإنما نعرفه بعمله. وذلك العلم النافع»(٤).

ويهتم أهل الفتوة كما أهتم الصوفية والملامتية بتأصيل طريقتهم ونسبتها إلى الكتاب والسنة بإيجاد سند لها وأصل من الكتاب والسنة.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٧٣.

(٢) نشأة الفكر الفلسفى ٢/ ٥٦٧.

(٣) أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن الفقيه الزاهد كان لفضول الدنيا وزينتها نابذا ولشهوة النفس وتخونها واقذا روى أنه لما أخبر بموت الحجاج سجد وقال اللهم عقيرك وأنت قتلته فاقطع سنته.

(٤) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية ٢٥.

وقد وردت مادة الفتوة فى القرآن الكريم فى غير موضع منه فى مثل قوله تعالى: « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم »(١) ويفسر القشيرى قوله تعالى : « فجعلهم جذاذا » فيقول: وصنم كل إنسان نفسه فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة(٢).

ويورد أهل الفتوة حديثا عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه: ليأتي على الناس زمان تعدم فيه الفتوة وتنقضى فيه الأخلاق، ويستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فإذا كان ذلك فانتظروا العذاب صباحا ومساءا(٢).

ومن هنا يأتى اتصال الفتوة بالتصوف والملامة فى التقاء هذه الطرق جميعا عند الكتاب والسنة. ومما يزيد تلك العلاقة وضوحا موازنتنا بين تلك العبارات التى ذكرت عن الفتوة والتى أوردها القشيرى فى رسالته وبين ما جاء فى كتاب السلمى عن الملامتية يقول الإمام القشيرى: أصل الفتوة أن يكون العبد أبدا فى أمر غيره كما جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: لا يزال الله تعالى فى حاجة العبد مادام العبد فى عون أخيه المسلم، ويوضح الأستاذ أبوعلى الدقاق أن كمال الفتوة لا يوجد إلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كل أحد يوم القيامة يقول نفسى نفسى وهو صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى أمتى.

---

(١) الأنبياء ٦٠.

(٢) القشيرية ١٧٧.

(٢) نشأة الفكر الفلسفى ٢/ ٥٦٥ ، وانظر ابن المعمار : الفتوة ١٢٣، ١٢٤.

ويرى عمرو بن عثمان المكى(١) أن الفتوة حسن الخلق. وقد سبق أن سمعنا مثل هذا التعريف للتصوف، ويرى أبو بكر الوراق(٢) أن الفتى من لاخصم له.

وقيل لبعضهم ما الفتوة فقال: ألا يميز بين أن يأكل عنده ولى أو كافر. ويروى بعض العلماء أنه استضاف مجوسى إبراهيم الخليل عليه السلام فقال بشرط أن تسلم فمر المجوسى فأوحى الله تعالى إليه منذ خمسين سنة نطعمه على كفره فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه، فمضى إبراهيم عليه السلام على أثره حتى أدركه واعتذر إليه فسأله عن السبب فذكر ذلك فأسلم المجوسى(٣).

وقيل الفتوة فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها.

ومما يرونه أيضا من أخلاق الفتيان أن رجلا تزوج بامرأة ولكن ظهر الجدرى على هذه المرأة قبل دخوله بها فقال الرجل اشتكت عينى ثم قال عميت فزفت إليه المرأة ثم ماتت بعد عشرين سنة ففتح الرجل عينه فقيل له فى ذلك. فقال لم أعم ولكن تعاميت حذرا أن تحزن فقيل له سبقت الفتيان(٤).

وقد يتفاوت الفتيان فى فتوتهم فتسمو فتوة أحدهم على فتوة الآخر . ومما يرون فى ذلك أن فتى من نيسابور خرج إلى نسا

---

(١) عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص ينتسب إلى الجنيد فى الصحبة له علم بالأصول مات ببغداد ٢٩١ وروى الحديث ومن أقواله: «المروءة: التغافل عن زلل الإخوان».

(٢) هو محمد بن عمر الحكيم أصله من ترمذ وأقام ببلخ له كتب فى الرياضات والمعاملات والآداب «من أقواله صاحب العقلاء بالأقتداء والزهاد بحسن المداراة والحمقى بجميل الصبر.

(٣) الرسالة القشيرية ١٧٧.

(٤) السابق ١٧٨.

فاستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم فانقبض النيسابورى عن غسل اليد. وقال: ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال. فقال واحد منهم أنا منذ سنين أدخل هذه الدار لم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أم رجلا.

وقيل سأل شقيق البلخى جعفر بن محمد عن الفتوة. فقال ما تقول فقال شقيق أن أعطينا شكرنا وإن منعناه صبرنا قال جعفر: الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل. فقال شقيق يا ابن بنت رسول الله. ما الفتوة عندكم؟ فقال: أن أعطينا آثرنا وأن منعنا شكرنا(١).

وقد يأخذ الملامتية أنفسهم بصفات الفتوة. يذكر السلمى فى كتابه عن الملامتية قول أبى حفص الحداد لعبد الله الحجام «إن كنت فتى فيكون بيتك يوم موتك موعظة للفتيان» ويورد عن أبى عثمان الحيرى(٢) فى الصحبة: حسن الصحبة ظاهره أن توسع على أخيك من مال نفسك ولا تطمع فى ماله، وتنصفه ولا تطلب منه الانصاف... وتتحمل منه الجفوة ولا تجفوه، وذلك قريب مما يقوله الحارث المحاسبى من أن الفتوة أن تنصف ولا تنتصف.

ومن أجمع ما ورد فى رسالة الملامتية من الفقرات التى تشرح صفات الفتوة كما يفهمها الملامتية قول بعضهم وقد سئل عمن يستحق اسم الفتوة فقال: «من كان فيه اعتذار آدم، وصلاح نوح ووفاء إبراهيم

---

(١) القشيرية ١٧٩.

(٢) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل أصله من الرى صحب يحيى بن معاذ وشاه الكرمانى مات ٢٩٨.

وصدق إسماعيل وإخلاص موسى وصبر أيوب وبكاء داود وسخاء محمد صلى الله عليه وسلم ورأفة أبى بكر وحمية عمر وحياء عثمان وعلم على ثم هو مع هذا كله يزدرى نفسه ويحتقر ما هو فيه ولا يقع بقلبه خاطر مما هو فيه أنه شئ ولا أنه حال مرضى يرى عيوب نفسه ونقصان أفعاله وفضل أخوانه عليه فى جميع الأحوال.

فجوهر الفتوة والملامة والتصوف واحد وإن انفردت كل طائفة ببعض السمات والخصائص. ومن أمثلة ذلك الاختلاف ما يتضح من ذلك الذى دار بين حمدون القصار وكان من كبار الملامتية ونوح العيار وكان أحد المعرفين بالفتوة. قال حمدون كنت أسير فى حى من أحياء نيسابور فقلت لنوح: يا نوح ما الفتوة فقال: فتوتى أم فتوتك؟ فقلت: صف لى الاثنين. فقال: اخلع القباء والبس الخرقة وافعل الأفعال التى تليق بهذا الثوب لعلى أصبح صوفيا وأقلع عن المعاصى لما أشعر به من الحياء من الله، ولكنك تخلع الخرقة لكيلا يخدعك الناس وينخدعوا بك. ففتوتى فى اتباع ظاهر الشرع، أما فتوتك ففى تلبية نداء القلب. ففى هذه العبارة الوجيزة لخص نوح الفرق الجوهرى بين أسلوب الملامتية وأسلوب الصوفية فى فهم الحياة الدينية فى مظهرها وحقيقتها.

ومما يوضح تلك العلاقة والفرق أيضا بين التصوف والملامة والفتوة ما يرويه السلمى، سمعت عبد الرحمن بن الحسين الصوفى يقول: بلغنى أن مشايخ بغداد اجتمعوا عنده (عند أبى حفص) فسألوه عن الفتوة فقال الجنيد: الفتوة اسقاط الرؤية وترك النسبة. فقال أبو حفص: ما أحسن ما قلت ولكن الفتوة عندى أداء الانصاف وترك

مطالبة الاتصاف. فقال الجنيد: قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته(١).

ويروى أن أبا حفص لما أراد الخروج من بغداد شيعه من بها من المشايخ والفتيان فلما أرادوا أن يرجعوا قال بعضهم دلنا على الفتوة ما هى؟ فقال الفتوة تؤخذ استعمالا ومعاملة لا نطقا فتعجبوا من كلامه(٢).

ومما يدل على تلك العلاقة أن نجد السلمى يورد فى رسالته عن الملامتية كثيرا من أقوال الصوفية وأهل الفتوة فيورد أقوالا ليحيى بن معاذ الرازى وشاة الكرمانى وسهل التسترى ويورد كثيرا من أقوال أبى يزيد البسطامى حتى يخيل للقارئ أن أبا يزيد كان واحدا من الملامتية.

وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن كلا من مذهب الملامة والفتوة يمثل نزعة خاصة فى التصوف الإسلامى، واتجاها خاصا فى النظر إلى النفس الإنسانية وأعمالها وتقدير تلك الأعمال. وسيتضح ذلك أكثر عند عرضنا وتحليلنا لكتاب أصول الملامتية ودراستنا لأهم رجالهم وشيوخ طريقتهم.

٤ - أهم رجال الملامتية :

نشأت الملامتية أول ما نشأت بنيسابور، وكانت امتدادا لحركات التصوف التى سبقتها فى خراسان وغيرها من مدن العالم الإسلامى فى القرنين الثانى والثالث، لكنها لم تقف بعد نشأتها عند حدود نيسابور بل شقت طريقها إلى أوساط الصوفية فى كل مكان.

(١) طبقات الصوفية للسلمى ١١٧ وانظر الحلية ١٠/ ٢٢٠.
(٢) السابق والصفحة.

وترجع نشأة هذا المذهب إلى رجال من صوفية نيسابور أخذوا على عاتقهم مهمة توضيح ملامحه ومعالمه وتحديد أصوله ووضع قواعده. ومن أهم هؤلاء الرجال وأكثرهم أثرا فى نشأة هذا المذهب وانتشاره حمدون القصار، وأبو حفص النيسابورى، وعبد الله بن منازل.

ولعله ليس من نافلة القول أن نخص كل واحد من هؤلاء بسطور يتضح معها جهوده فى نشر المذهب وتتضح بالتالى خصائص هذا المذهب ومعالمه بشكل أفضل.

١ - حمدون القصار(١) :

أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار. درس الفقه وذهب فيه مذهب الثورى وأصبح على درجة عالية فيه، وله رموز رقيقة فى المعاملات، وكلام دقيق فى المجاهدات.

يروى أنه لما عظم شأنه فى العلم جاءه أئمة وكبار نيسابور وطلبوا منه اعتلاء المنبر ليعظ الناس فاعتذر بأن قلبه مازال متعلقا بالدنيا وجاهها. ولذلك فإن كلامه سيكون قليل التأثير فى ...وب والكلام الذى لا يؤثر فى القلوب يكون استخفافا بالعلم واستهزاء بالشريعة(٢). وعندما سئل: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال:

---

(١) وردت ترجمته فى طبقات الصوفية ١٢٣ - ١٢٩ والرسالة القشيرية ٣٠، ٣١ وطبقات الشعرانى ٦٧/١ وتذكرة الأنبياء ١/ ٢٢٠ ونفحات الأنس ٦٠، حلية الأولياء ١٠/ ٢٢١، وصفة الصفوة ١٠٠/٤ وغيرها من كتب التراجم.

(٢) يذكر هذا الموقف بموقف الإمام الغزالى من التدريس بالمدرسة النظامية وهو فى منطقة الزهو من التصوف يقدم فيه رجلا ويؤخر أخرى.

لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقول الخلق. فمن تكلم وفق مراد الحق تعالى كان لكلامه قهر وسطوة تؤثر على الأسرار، ومن تكلم وفق مراد نفسه عدم من كلامه التأثير وصار من الذلة والهوان بحيث يكون صمته خيرمن كلامه.

ويسأل حمدون القصار: متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس فيقول: إذا تعين عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى فى علمه أو خاف هلاك إنسان فى بدعة يرجو أن ينجيه الله تعالى منها.

تحدث عن الدنيا وعن تفاهتها وأوصى بالزهد فيها فقال من شغله طلب الدنيا عن الأخرة ذل أما فى الدنيا وأما فى الآخرة. وقال لا أحد أدون ممن تزين لدار فانية، ويتجمل لمن لا يملك ضره ونفعه. وينصح فيقول: تهاون بالدنيا حتى لا يعظم فى عينيك أهلها ومن يملكها. كما يقول أصل رفع الألفة بين الاخوان حب الدنيا.

ويدعو إلى العمل وكسب الرزق وأن لا يتنافى مع التوكل فيقول قعود المؤمن عن الكسب الحاف فى المسألة، وكفايتك تساق إليك باليسر من غير تعب وإنما التعب فى طلب الفضول.

ويحث على التمسك بالشريعة فيقول: من ضيع عهود الله عنده فهو لآداب شريعته أضيع لأن الله تعالى يقول: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا(١)».

ويوضح أهم مبادئ الطريق فيوصى بحسن الخلق «إن استطعت ألا تغضب لشئ من الدنيا فأفعل» كما يوصى بصحبة العلماء واحتمال

---

(١) الاسراء ٣٤.

جهل الجهلاء فيقول: أوصيكم بشيئين: صحبة العلماء والاحتمال عن الجهال.

ويدل مريديه على بعض أدواء النفس ويصف لهم الدواء فيرى أن من غفلة العبد أن يتفرغ من أمر ربه إلى سياسة نفسه وأنه لا يجزع من المصيبة إلا من يتهم ربه، وأن الكياسة تورث العجب، وأن من استطاع ألا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل.

وهكذا تحدد أقواله ونصائحه، معالم مذهب الملامتية. من ذم الدنيا والبعد عن الرياء، والدعوة إلى الكسب من غير تجاوز وشدة التمسك بالشريعة وعدم الاغترار بذلك، وحسن الخلق.

ثم أمر النفس الذى يعتبر محور هذا المذهب وقطب رحاه يقول: من رأيت فيه خصلة من الخير فلا تفارقه فإنه يصيبك من بركاته كما يقول: لاتفش على أحد ما تحب أن يكون مستورا منك.

ومما يحكى عنه فى ورعه وزهده أنه مات له صديق وهو عند رأسه فلما مات أطفأ حمدون السراج. فقالوا له: فى مثل هذا " قت يزاد فى السراج فقال: إلى هذا الوقت كان الدهن له. ومن هذا الوقت صار للورثة.

وهو من أشهر رجال الملامتية على الإطلاق وسيد طائفتهم والمؤسس الحقيقى لمذهبهم ويصفه السلمى بأنه شيخ الملامتية بنيسابور ومنه انتشر مذهب الملامة ويردد هذه العبارة القشيرى فى رسالته والشعرانى فى طبقاته حتى نسبت الملامتية إليه فعرفت أحيانا باسم الحمدونية وأحيانا باسم القصارية، توفى بنيسابور ٢٧١هـ تغمده الله برحمته.

٢ - أبو حفص النيسابورى(١) :

عمرو بن سلمة من قرية يقال لها (كورداباد) على مقربة من نيسابور.

من كبار رجال الصوفية وسادتهم، وممدوح مشايخهم. كانت له فى نفوسهم منزلة عظيمة، يذكر البغدادى(٢) أنه لما ورد أبو حفص بغداد اجتمع إليه من كان بها من مشايخ الصوفية وعظموه وعرفوا له قدره ومحله، وقال عنه الجنيد - وقد ذكر بين يديه - كان رجلا من أهل الحقائق، ولو رأيته لاستغنيت به وقد تكلم من غور بعيد. اجتمعت فيه خصال الصوفية والفتوة والملامتية. قال عن التصوف: التصوف كله آداب لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول(٣).

فالتصوف عنده ليس خرقة تلبس، ولا دعوى تدعى وإنما هو أدب وسلوك وعمل. قال: إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة. فاليد لا بد أن تعمل والقلب لا بد أن يشغل بذكر الله.

تحدث عن الدنيا فقال: من اهانة الدنيا أنى لا أبخل بها على أحد ولا أبخل بها على نفسى لاحتقارها واحتقار نفسى عندى.

وسئل عن البخل وعن الكرم فقال: البخل: ترك الإيثار عند

(١) انظر ترجمته فى حلية الأولياء ١٠/٢٢٩، صفة الصفوة ٤/٩٨ طبقات الشعرانى ١/٩٦، الرسالة القشيرية ٢٢، شذرات الذهب ٢/١٥٠ مرآة الجنان ٢/١٧٩.

(٢) تاريخ بغداد ١٢/٢٢١.
(٣) طبقات الصوفية ١١٩.

الحاجة إليه، والكرم طرح الدنيا لمن يحتاج إليها، والإقبال على الله لاحتياجك إليه. والإيثار هو أن تقدم حظوظ الاخوان على حظك فى أمر آخرتك ودنياك.

أخلى قلبه عن كل شئ وملأه بالله وقال: ما دخل قلبى حق ولا باطل مذ عرفت الله. كما قال: حرست قلبى عشرين سنة، ثم حرسنى قلبى عشرين سنة ثم وردت حالة صرنا فيها محروسين جميعا.

وتحدث عن الفتوة فقال: أداء الأنصاف وترك مطالبة الإنصاف فشهد له الجنيد أنه بهذا التعريف قد زاد على آدم وذريته. وسئل ما علامة الفتى؟ فقال: من يرى الفتيان، ولا يستحى منهم فى شمائله وأفعاله فهو فتى.

وكان إذا غضب تكلم فى حسن الخلق حتى يسكن غضبه ثم يرجع إلى حديثه والمعاصى عنده بريد الكفر كما أن الحمى بريد الموت.

وتكلم فى الشوق والمحبة فقال: من تجرع كأس الشوق يهيم هياما لا يفيق إلا عند المشاهدة واللقاء. وقال إذا رأيت المحب ساكنا هادئا فاعلم أنه على غفلة فإن الحب لا يترك صاحبه أبدا بل يزعجه فى الدنو والبعد واللقاء والحجاب.

ويرى أن أوجب واجبات الطريق التمسك بالسنن والابتعاد عن البدع. وقد سئل عن البدعة فقال: التعدى فى الاحكام والتهاون بالسنن وإتباع الأهواء وترك الاقتداء والإتباع. وسئل من هم الرجال؟ فقال القائمون مع الله تعالى بوفاء العهود: قال تعالى: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه[١]».

توفى ٢٧٠ هـ ويقال ٢٧٧ تغمده الله برحمته.

---

(١) الأحزاب ٢٣.

٣ - عبد الله بن منازل[1]:

أبو محمد عبد الله بن محمد بن منازل. شيخ الملامتية صحب حمدونا القصار وأخذ عنه طريقته. وأتقن علوم الشريعة وسلك طريق التصوف. يرى أنه لا خير فى طريقة لم تحقق فيها الشريعة. ولم يضيع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يبتل بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع.

ويحدد أصلا آخر من أصول الملامتية حين يرى أنه يجب على الأنسان فى نظره أن يرى تقصيره مهما علت قدمه فى الطريقة والحقيقة ويشير فى ذلك إلى أن الله تعالى عدد أنواع العبادات فقال: «والصابرين والصادقين والقانمين والمستغفرين بالأسحار[2]» فختم المقامات كلها بمقام الاستغفار ليرى العبد تقصيره فى جميع أفعاله وأحواله فيستغفر منها.

وتحتل النفس وملامتها ومعالجتها قدرا كبيرا من كلماته ومواعظه فيكشف لأصحابه عن بعض أسرار نفسه ونوازعها فيقول:

لو صح لعبد فى عمره نفس من غير رياء ولا شرك لأثرت بركات ذلك عليه إلى آخر الدهر. ويقول: من رفع ظل نفسه عن نفسه عاش الناس فى ظله.

ويبين أن النفس متقلبة وأن على الإنسان أن ينتهز أوقات خلوصها ونقائها فيغتنمها حين يقول: أفضل أوقاتك وقت تسلم فيـه

---

(١) انظر ترجمته فى حلية الأولياء ٢٢٩/١٠، صفة الصفوة ٩٨/٤ و٩٩، الرسالة القشيرية ٢٢ كشف المحجوب ٢٢٦ تاريخ بغداد ٢٢١/١٢، شذرات الذهب ١٥٠/٢ مرآة الجنان ١٧٩/٢، سير أعلام النبلاء ٨-٢٦٢.

(٢) آل عمران ١٧.

من هواجس نفسك ووقت تسلم فيه من سوء ظنك.

ويؤكد على أهم مبدأ من مبادئ الملامتية وهو بخع النفس فيقول من عظم قدره عند الناس يجب أن يحتقر نفسه عنده. ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لما اتخذه الله خليلا قال: «وجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام(١).

كما يحذر من الرياء والدعاوى فيقول: لا يجتمع التسليم والدعوى بحال. ويحذر من التكلف والتزيد فيقول: من ألزم نفسه شيئا لا يحتاج إليه ضيع من أحواله مثله مما يحتاج إليه ولا بد له منه. ويقول عبر بلسانك عن حالك ولا تكن بكلامك حاكيا أحوال غيرك.

ويجب على الملامتية أن يكونوا مثلا وقدوة فى ابتغاء الكسب الحلال لغيرهم فيقول: لاخير فيمن لم يذق ذل المكاسب. كما يقول كل فقر لا يكون عن ضرورة لا يكون فيه فضيلة، والتفويض مع الكسب خير من خلوه عنه.

ويوصى بمراعاة حرمة المشايخ واغضاء الطرف عن عيوبهم فيقول من احتجت إلى شئ من علومه فلا تنظر إلى عيوبه فإن نظرك يحرمك بركة الانتفاع بعلمه(٢).

ولقد كان لعبد الله بن منازل فضل فى نشر المذهب الملامتى الذى وضعه استاذه حمدون القصار بالإضافة إلى بعض الاتجاهات الخاصة التى انفرد بها.

وتوفى بنيسابور ٣٢٩هـ، هذا وستنمو معرفتنا بهؤلاء الأعلام وبغيرهم من أعلام الملامتية مع تقدمنا فى هذا البحث وعند دراستنا وتحقيقنا لكتاب الملامتية.

---

(١) إبراهيم ٣٥.

(٢) انظر مقدمة هذا الكتاب.

وأخذ عنه طريقته(١).

وكان والد أبى عبد الرحمن السلمى من تلاميذ أبى عثمان الحيرى كما صحب عبد الله بن منازل وأبى على الثقفى. وعكف على جمع أقوال شيوخ الصوفية وكان السلمى يسمع فى بيت أبيه كثيرا من أقوال الصوفية وأرائهم وسيرهم وأخبارهم مما هيأ ومهد السبيل له إلى سلوك طريق الصوفية.

وكانت والدته سيدة فاضلة تغلب عليها نزعة صوفية واضحة ولا غرابة فى ذلك فهى سليلة بيت علم وزهد، وحسبها أنها ابنة الشيخ أبى عمرو بن نجيد. وزوج أبى محمد الحسين بن موسى(٢).

واختلف فى تاريخ ميلاد السلمى والراجح أنه ولد فى رمضان سنة ٣٣٠ هـ .

ولا تحدثنا المصادر بشئ عن طفولة السلمى ولكن يبدو أنه كان بكر والديه، وأن والده رزقه على كبر، فقد فرح بولادته أيما فرح، وجمع ما عنده من المال فتصدق به. ولا ندرى أرزق والداه غيره من الولد أم ظل أبو عبد الرحمن وحيدهما(٣).

---

(١) يروى أن أبا عثمان الحيرى طلب شيئا من المال لبعض الثغور فلم يجد فضاق صدره وبكى على رؤوس الناس فأتاه أبو عمرو بن نجيد (جد مؤلفنا) بعد العتمة بكيس فيه الفا درهم ففرح أبو عثمان ودعا له. ولما جلس فى مجلسه قال يا أيها الناس أن أبا عمرو قد ناب عن الجماعة فى ذلك الأمر وحمل كذا وكذا فجزاه الله خيرا. فقام أبو عمرو وقال إنما حملت ذلك من مال أمى وهى غير راضية فينبغى أن ترده على لأرده عليها فأمر أبو عثمان بذلك الكيس فأخرج إليه وتفرق الناس. فلما جاء الليل جاء إلى أبى عثمان وقال: «يمكن أن تجعل هذا فى مثل ذلك الوجه من حيث لا يعلم به غيرنا فبكى أبو عثمان وكان يقول إنى أخشى من همة أبى عمرو» طبقات الشافعية ١٩٠/٢ وهذه القصة تشير إلى أصل من أصول الملامتية وهو اخفاء الأعمال وعدم التعرض لمدح : الملامتية : أبو العلا عفيفى ٧٢ هامش.

(٢) طبقات الصوفية المقدمة ص ١٨. (٣) السابق ١٩.

وأكثر ما عرف به السلمى مؤلفاته فى التصوف، فقد وصفه الحافظ ابن عبد الغفار فقال: «شيخ الصوفية فى وقته، الموفق فى جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف، وصاحب التعاريف المشهورة العجيبة فى علوم القوم[١]. وفيه أيضا يقول الهجويرى صاحب كشف المحجوب أنه كان من أوائل من كتب فى طبقات المشايخ وسيرهم وروى أقوالهم وبحث طرقهم وسلوكهم وآدابهم ومعاملاتهم وصحبتهم، وألف فى أصول بعض فرقهم[٢]، ودافع عن تعاليمهم وتقاليدهم بالأدلة الشرعية فى الكتاب والسنة. كما كتب السلمى أيضا فى التفسير والحديث فقد حدث -على حد قول السبكى- أكثر من أربعين سنة املاء وقراءة.

ويدل عدد تلاميذ السلمى على أنه كان موضع الاحترام والاجلال عند معاصريه ذا مكانة ومنزلة فى دوائر علماء الصوفية وشيوخها ومن تلاميذه المشهورين. القشيرى والبيهقى.

وتوفى أبو عبد الرحمن السلمى يوم الأحد ثالث شعبان من سنة ٤١٢ هـ وله بنيسابور دويرة معروفة يسكنها الصوفية وفيها قبره[٣].

السلمى بين الجرح والتعديل :

ومع هذه الحياة الحافلة بالعلم والعبادة نجد بعض العلماء يجرحون السلمى ويتهمونه بوضع الأحاديث. وأول من رماه بذلك محمد بن يوسف القطان وهو من أهل نيسابور ، معاصر لأبى

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٢/٦٠.

(٢) لعله يقصد الملامتية.

(٣) المنتظم لابن الجوزى ٨/٦.

عبدالرحمن السلمى ولكنه لم ينل منزلته(١) فقد ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخه: «وقال لى محمد بن يوسف بن القطان النيسابورى، كان أبو عبد الرحمن السلمى غير ثقة، ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئا يسيرا، فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه وكان يضع الأحاديث للصوفية(٢)».

لكن السبكى ينقل فى طبقاته عن الخطيب البغدادى (مع ما أورده سابقا) قوله: «قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك مجودا صاحب حديث» ثم يعلق عليه بقوله: قول الخطيب فيه هو الصحيح وأبو عبد الرحمن ثقة، ولا عبرة بهذا الكلام فيه(٣).

على أن الذهبى فى سيره ذكر أن فى حقائق التفسير أشياء لا تسوغ أصلا عدها بعض الأئمة من زندقة الباطنية وعدها بعضهم عرفانا وحقيقة نعوذ بالله من الضلالة ومن الكلام بالهوى(٤).

كما ذكر فى تذكرته أن السلمى ألف حقائق التفسير فأتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية ونسأل الله العافية(٥). وأورد فى تاريخه أن ما فى هذا الكتاب تحريف وقرمطة(٦).

ومع هذا فالسبكى فى طبقاته أورد للذهبى رأيا متناقضا فى السلمى فقال: «وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبى كان -يعنى السلمى-

---

(١) طبقات الصوفية: المقدمة ٤٥.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/٢٤٨.

(٣) طبقات الشافعية للسبكى ٢/٦٠.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ورقة ٥٦.

(٥) تذكر الحافظ للذهبى ٢/٢٢٢.

(٦) تاريخ الإسلام ٢١/٢٢١.

وافر الجلالة له أملاك ورثها عن أمه وورثتها هى من أبيها، وتصانيفه يقال إنها ألف جزء. وله كتاب سماه حقائق التفسير، وليته لم يصنفه فإنه تحريف وقرمطة فدونك الكتاب فسترى العجب.

ويرد السبكى عليه بقوله قلت لا ينبغى له أن يصفه بالجلالة ثم يدعى فيه التحريف والقرمطة، وكتاب حقائق التفسير المشار إليه قد كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات ومحامل للصوفية ينبو عنها ظاهر اللفظ(١)».

ويعتبر السيوطى أن السلمى من المبتدعة لأن تفسيره -على حد قوله- غير محمود(٢) .

أما حاجى خليفة فقد قال: لكن المفسرين من أهل الظاهر تكلموا فيه على ما هو رأيهم فى أمثاله(٣).

ويشارك الدكتور أبو العلا عفيفى فى هذا التجريح بقوله: على أننى لا أستبعد وضعه بعض الأحاديث فحسب بل لا أستعبد وضعه كثيرا من عبارات الصوفية على ألسنة القوم بما يتناسب مع مشاربهم ونزعاتهم فإن اللفظ فى معظم المناسبات له والمعنى والنزعة لهم. ومع ذلك فقد رجع مناقضا نفسه لينصف السلمى قائلا على أن هذا ليس بقادح فى تأليف السلمى ولا فيقيمتها ومنزلتها العالية فى تاريخ التصوف. فإن السلمى سيظل بالرغم من كل هذا أستاذ مؤرخى هذا العلم غير منازع. ويكفى أن يشهد له ويدافع عنه رجال لهم خطرهم

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٦٠/٢.
(٢) طبقات المفسرين للسيوطى ٣١.
(٣) كشف الظنون ٧٩/٢.

فى تاريخ التصوف أمثال أبى القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى وأبى نعيم الأصبهانى وغيرهما(١).

كما وصفه الإمام عبد الغافر الفارسى الحافظ قائلا: أبو عبد الرحمن شيخ الطريقة فى وقته. الموفق فى جميع علوم الحقائق ومعرفة طرق التصوف وصاحب التصانيف المشهورة فى علوم القرآن وقد ورث التصوف عن أبيه وجده، وجمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه فى غيره حتى بلغ فهرست تصانيفه المائة أو أكثر حدث أكثر من أربعين سنة املاء وقراءة وكتب الحديث بنيسابور ومرو والعراق والحجاز وتتلمذ عليه الحفاظ الكبار.

وقال عنه الخشاب : وقد كان مرضيا عند الخاص والعام والموافق والمخالف والسلطان والرعية فى بلده وفى سائر بلاد المسلمين ومضى إلى الله كذلك(٢).

كما سبق دفاع السبكى عنه وقول الخطيب فيه ومدح الذهبى له مع مؤاخذته اياه. على أنه لم يبلغ أحد مبلغ الحاكم أبى عبد الله فى تزكيته له عندما قال: «إن لم يكن أبو عبد الرحمن من الأبدال فليس لله فى الأرض ولى(٣)».

هذا هو السلمى بين أقلام المدح والثلب شانه شأن غيره من عظماء العلماء الذين تختلف حولهم الآراء وتتضارب فيهم الأقوال من غير أن يغض ذلك من شأنهم أو يقلل من قيمتهم لأن قيمة الإنسان فيما تركه من أعمال لا فيما تسطره عنه بعض الأقلام.

وننتقل الآن إلى تحقيق كتاب الملامتية.

---

(١) المنتخب من كتاب السباق ٥٠.
(٢) سير أعلام النبلاء جـ ١١ ورقة ٥٥.
(٣) مرآة الزمان لسبط الجوزى جـ ١١ حوادث سنة ٤١٢هـ .

٢ - أصول الملامتية وغلطات الصوفية

تحقيـق وتعليـق

أصول الملامتية وغلطات الصوفية

تأليف

الشيخ الإمام العالم العارف

السيد أبى عبد الرحمن السلمى

رضى الله عنه وجعل الجنة مثواه بمنه وكرمه

آمـــــــين

(أصول الملامتية)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين.

والحمد لله الذى اختار من عباده عبادا جعلهم أئمة فى بلاده فزين ظواهرهم بعبادته، ونور باطنهم بمعرفته ومحبته، ودلهم على معرفة نفوسهم(١)، ومكنهم من تذليلها، وعرفهم بمكرها، وأعانهم على تصغيرها وتحقيرها. فهم العلماء بالله وأحكامه، والقائمون بأوامره والعارفون بإنعامه، والله يختص برحمته من يشاء. أما بعد.

وفقنى الله وإياك فإنك سألتنى أن أبين لك طريق أهل الملامة وأحوالهم. فأعلم أنه ليس للقوم كتب مصنفة ولا حكايات مؤلفة(٢)، وإنما هى أخلاق وشمائل ورياضات وأنا أذكر(٣) من ذلك بقدر وسعى وطاقتى طرقا يستدل بها على ما وراءها من سيرهم وأحوالهم بعد أن أستعين بالله فى ذلك، واستهديه، وهو حسبى ونعم الوكيل.

---

(١) معرفة النفس منشود كل طالب للمعرفة، وهى الطريق الموصل إلى معرفة الحق تعالى، وإثبات وجوده، قال تعالى: «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات٢١) وقال: «سنريهم آياتنا فى الافاق، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (فصلت ٥٢).

(٢) نستطيع أن نقسم الصوفية من حيث التأليف إلى قسمين أو مدرستين: مدرسة اهتمت بالتأليف والتدوين واتخذت من الكتب منابر لبيان دعوتها، وشرح رسالتها، ونشر علومها وأذواقها ومعارفها ومعارجها، وجعلت من صفحات هذه الكتب معاهد لتخريج الرجال، وخزائن خالدة تحفظ للاجيال. وكان على رأس هؤلاء أبو نصر السراج الطوسى.

وأخرى عزفت عن التأليف، واتخذت من المساجد منابر لدعوتها، وجعلت من حلقاتها وعابر كلماتها معاهد لتخريج الرجال، وعلى رأس هؤلاء طائفة الملامتية الذين تجد أقوالهم مبثوثة فى كتب الصوفية دون أن يقوم واحد منهم بالكتابة أو التأليف . انظر مقدمة اللمع ص ٧.

(٣) لا نعرف -على مبلغ علمنا- احدا جمع أقوال الملامتية فى مؤلف قبل السلمى، وكل من كتب عنهم بعده كانوا عالة عليه.

اعلم وفقك الله للرشاد أن أرباب العلوم والأحوال على طبقات ثلاث:

طبقة منهم ندبوا إلى علوم الأحكام، والاشتغال بمنافع العوام من حفظ المسائل وجمعها ودرسها ونشرها والمعاشرة مع عوام الخلق فى الدنيا على جمعها وبذلها وعطائها. ولا يخبرون عما عليه الخواص من أحوال المعاملات والمنازلات والمشاهدات وهم علماء الظواهر، وأرباب الاختلافات والمسائل. الذين يحفظون أساس الشريعة، وأصول الدين، وإليهم المرجع فى تصحيح المعاملات وتقييدها بالكتاب والسنة. فهم علماء الشريعة(١) وأئمة الدين ما لم يخلطوا أعمالهم بطمع، أو يدنسوا أنفسهم بشئ من حطام هذه الدنيا الفانية فحينئذ سقط عنهم محل الاقتداء فلا يكونون من أهله.

---

(١) تلقيب علماء الشريعة بأنهم علماء الظاهر فيه اجحاف بالشريعة وعلمائها إن أريد بذلك أن الشريعة وعلماءها تقف عند اصلاح ظاهر الإنسان فقط وتقصر عن اصلاح باطنه، لأن الشريعة لم تشرع لإصلاح الظاهر فحسب. بل هى كفيلة -إن صحت وخلصت- باصلاح ظاهر الإنسان وباطنه والعبادة التى يقف أثرها عند ظاهر الإنسان غير مقبولة شرعا. والرسول صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يعبث بلحيته أثناء صلاته فقال: أما أن هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه.

أما أن أريد من ذلك أن علماء الشريعة لا يعرفون من الشريعة إلا المعانى الظاهرة القريبة وأن الصوفية هم الذين يدركون بواطن معانى الشريعة وبعيد مراميها فذلك غير مسلم للصوفية لأن معرفة الباطن غير متحقق من صحته والله تعبدنا بظاهر الشريعة لا بباطنها كما أنه قد يكون غير ممكن لقوله تعالى: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (الروم ٧) فمعرفة باطن أمور الدنيا وظاهر أمور الآخرة وباطنها غير وارد بالنسبة للبشر.

والطبقة الثانية منهم هم الخواص الذين خصهم الله تعالى بمعرفته، وقطعهم عما فيه الخلق من جميع الأشغال والارادات فشغلهم بالله، واراداتهم له، ولاحظ لهم فيما فيه الخلق من أسباب الدنيا، ولا لهم همة فيما هم فيه من جميع جهاتهم. بل همتهم مجتمع الهمة له وعليه. فلا لهم مع الخلق قرار، ولا لغيرهم إليهم سبيل بحال. بل هم الخواص الذين خصهم الله بأنواع الكرامات(١) وقطع أسرارهم عن المكونات ، وكانوا له وبه وإليه وهنا بعد أن كملوا طريق المعاملات وحفظوا على أنفسهم السر والمجاهدات. فأسرارهم إلى الحق ناظرة، وإلى الغيوب متطلعة، وجوارحهم بزينة العبادات مزينة لا تخالف ظواهرهم شيئا من سير الشرع ولا تغيب بواطنهم عن ملاحظات الغيب. وهم الذين قال النبى صلى الله عليه وسلم فيهم: من جعل الهم هما واحدا كفاه الله سائر همومه. فهؤلاء أهل المعرفة بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) الكرامة : أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدى، ولا خال عن الاستقامة ولا مستند للاسباب يظهره الله تعالى على يد من أراد اختصاصه من أهل طاعته فى البداية أو فى النهاية أو بينهما (حكم ابن عطاء ٢٩٥، الرسالة القشيرية ٦٦٠/٢ تحفة المريد ٨٣).

وكلمة كرامة عربية المبنى والمعنى. ويرى «أسين بلاسيوس» أنها ذات علاقة وثيقة من الناحية المعنوية بالكلمة اللاتينية Gharisma التى أدخلها القديس بولس (اصحاح ١٢ جملة ٩) للدلالة على المواهب والافضال الاستثنائية التى يشرف الله بها النفوس الممتازة. والكلمة العربية «كرامة» مرادفة لكلمة «موهبة وعطية».

والفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تقع عن قصد النبى وتحديه أما الكرامة فتقع عن غير قصد ولا تحد وقد نازع بعضهم فى وقوع الكرامة للأولياء والصحيح ثبوتها لما قصه الله علينا منها فى القرآن الكريم كنقل صرح ملكة سبأ على يد الذى عنده علم من الكتاب (آصف بن برخيا) وتواتر الحديث عنها تواترا لا يمكن معه نفيها.

والطبقة الثالثة: هم الذين لقبوا بالملامتية وهم الذين زين الله تعالى بواطنهم بأنواع الكرامات(١) من القربة والزلفة والانس والاتصال، وتحققوا فى سرهم معانى الغيب بحيث لم يكن للافتراق عليهم سبيل بحال. فلما تحققوا بالرتب السنية وأثبتوا فى أهل الجمع والقربة والانس والوصلة غار(٢) الحق عليهم أن يجعلهم مكشوفين للخلق. فأظهر للخلق منهم ظواهرهم التى هى فى معنى الافتراق من علوم الظواهر، والاشتغال بأحكام الشرع وأنواع الادب وملازمة المعاملات ليسلم لهم حالهم مع الحق فى جمع الجمع والقربة. وهذا من سنى الأحوال التى لا يؤثر الباطن فيها على الظاهر. وهذا شبيه بحال النبى صلى الله عليه وسلم لما رفع إلى المحل الأعلى من القرب والدنو. وكان قاب قوسين أو أدنى ثم لما رجع إلى الخلق تكلم معهم فى الأحوال الظاهرة . ولم يؤثر من

---

(١) يقسم الصوفية الكرامات إلى قسمين: حسية وهى تلك الأمور المعروفة والمروية عن الاولياء، والتى لا تعرف العامة عنهم سواها. ومعنوية -وهى أن يحفظ الله على العبد آداب الشريعة فيوفق لفعل مكارم الاخلاق واجتناب رذائلها، وأن يحافظ على أداء الواجبات والسنن فهذه عند المحققين هى الكرامات التى لا يدخلها مكر ولا استدراج. يقول التسترى: أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود. وكبار الصوفية ليس لهم حرص على إظهار الكرامات الحسية بل كانوا يحقرون من شأنها ولا يدعونها لأنفسهم لأنهم يرون فيها مجالا للفتنة والغرور، وسبيلا إلى الرياء. قال يحيى ابن معاذ إذا رأيت الرجل يشير إلى الكرامات فطريقه طريق الأبدال.

(٢) ورد فى صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله. وعن أبى هريرة قال رسول الله عليه وسلم: إن الله تبارك وتعالى يغار وأن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم عليه. رواه البخارى ومسلم وقد اختلف العلماء فى كيفية إثبات الغيرة لله تعالى يقول البيهقى:والغيرة من الله الزجر والله غيور بمعنى زجور يزجر عن المعاصى(الأسماء والصفات٤٨٢).

حال(١) الدنو والقرب على ظاهره شئ. والحال التى تقدم ذكرها كحال موسى عليه السلام من أنه لم يطق أحد النظر إلى وجهه بعد ما كلمه الله عز وجل. وذلك شبيه بحال الصوفية وهم الطبقة الثانية ممن تقدم ذكرنا لهم وهم الذين تظهر عليهم أنوار أسرارهم(٢). وأهل الملامة إذا صحبهم المريدون دلوهم على ما يظهرون لهم من الأقبال على الطاعات واستعمال السنن فى جميع الأوقات وملازمة الآداب ظاهرا وباطنا فى كل الأحوال، ولا يمكنونهم من الدعاوى ولا الاخبار عن آية أو كرامة، ولا الاستناد إليه بل يدلونهم على تصحيح المعاملات، وادامة المجاهدات فيأخذ المريد فى طريقهم ويتأدب بآدابهم فإذا رأوا منه عيبا فى أحواله وأفعاله بينوا له عيوبه ودلوه على اسقاط ذلك العيب لئلا يستحسنون شيئا من أحوالهم وأفعالهم ولا يتكلون عليها. ومتى ادعى المريد عندهم حالا ورأى لنفسه مقاما صغروا ذلك فى عينه حتى يتحقق لهم صدق ارادته واظهار الأحوال عليه فيدلونه على ما هم فيه وعليه من ستر الأحوال وإظهار الآداب واتباع الاوامر وترك النواهى فيكون تصحيح المقامات كلها عليه فى

---

(١) يجهد الصوفية أنفسهم فى إيجاد أصل من الكتاب أو السنة لأحوالهم ومقاماتهم. وها هم يحاولون أثبات الأحوال للرسول صلى الله عليه وسلم واختلافها فحال قاب قوسين أو أدنى غير حاله قبلها أو بعدها كما يذكرون فى ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: «إن لى أوقاتا لا يسعنى فيها إلا ربى».

(٢) يفرق السلمى هنا بين الصوفية والملامتية فى أن الصوفية تؤثر أحوالهم على ظواهرهم ومثلهم فى ذلك مثل موسى عليه السلام بعد أن كلمه ربه أثرت حاله على ظاهره فلم يطق أحد النظر إلى وجهه. أما الملامتية فلا تؤثر أحوالهم على ظواهرهم ومثلهم فى ذلك كمثل محمد صلى الله عليه وسلم عندما كان فى حال القرب والدنو رجع إلى قومه ولم يظهر على ظاهره من حاله شئ. وبذلك يكون فضل الملامتية على الصوفية كفضل محمد صلى الله عليه وسلم على موسى عليه السلام.

حال الإرادة (فبصحة الارادة عندهم تصح المقامات كلها عليه(١)) والانتهاء إلى مقام المعرفة والمريد إذا تأدب بغيرهم أطلقوا له الدعاوى فى حال الارادة فيأخذ أحوال الأئمة سترا لنفسه ويدعى بها فلا يزيده مرور الأيام عليه إلا ادبارا أو بعدا عن سبيل الحق وطريقه. ولذلك كان شيخ هذه الطائفة أبو حفص النيسابورى يقول: مريدو أهل الملامة متقلبون فى بخل نفوسهم لا تخطر لأنفسهم ولا لما يبدو منها عليهم إلى مقامهم سبيل لأن ظواهرهم مكشوفة وحقائقهم مستورة ليتنافر الخلق عنهم.

ومريدو الصوفية يظهرون من رعونات الدعاوى والكرامات ما يضحك به عليهم كل محقق لكثرة دعاويهم وقلة حقائقهم. سمعت أحمد بن عيسى يقول سمعت أبا الحسن القناد(٢) يقول: سئل أبوحفص ما هذا الاسم الذى تسميتم به من أهل الملامة؟ فقال: أهل الملامة قوم قاموا مع الله تعالى على حفظ أوقاتهم، ومراعاة أسرارهم ولاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب من الصلاة وغيرها وكتموا محاسنهم عن الخلق، وأظهروا لهم قبائح ما هم فيه فلامهم الخلق على ظواهرهم ولاموا أنفسهم على ما يعرفون من بواطنهم، فأكرمهم الله تعالى بكشف الأسرار، والاطلاع على أنواع الغيوب وتصحيح الفراسة فى الخلق، واظهار الكرامات عليهم فأخفوا ما كان من الله تعالى إليهم باظهار ما كان منهم فى بدء الأمر من ملامة النفس ومخالفتها ليتنافر الخلق عنهم ويسلم لهم حالهم مع الله تعالى فهذه طريقة أهل الملامة قال: وسمعت أحمد بن أحمد الملامتى

---

(١) مثبت بالهامش.

(٢) أبو الحسن على بن عبد الرحيم الواسطى القناد توفى سنة ٣٠٩ هـ روى عن أبى حفص وعن الحلاج وروى عنه البقلى.

يقول: سمعت إبراهيم القناد يقول: سألت حمدون(١) القصار عن طريق الملامة فقال: ترك التزين للخلق بكل حال، وترك طلب رضاهم فى نوع من الأخلاق والأفعال، وألا يأخذك فيما عليك لله لومة لائم بحال.

وسمعت أحمد بن محمد الفرا يقول: قال عبد الله بن منازل حين سئل عن الملامة فقال: هم قوم لم يكن لهم فى الظاهر مراءات للخلق ولا لهم فى باطنهم دعوى مع الحق وسرهم الذى بينهم وبينه لا تطلع عليه أفئدتهم ولا قلوبهم. وسمعت جدى إسماعيل بن نجيد يقول: لا يبلغ الرجل شيئا من مقام هؤلاء القوم حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء، وأحواله كلها عنده دعاوى وسئل بعض مشايخهم عن أصل طريقتهم فقال: تذليل النفس وتحقيرها ومنعها عما تسكن إليه، أو يكون لها فيه راحة وإليه ركون، وتعظيم الخلق وحسن الظن لهم، وتحسين قبائحهم وتحقير النفس وتذليلها وسوء الظن بها وتقبيح محاسنها. قال: أبو حفص أخبر الخلق عن الوصول والقرب، وعن المقامات العالية، وإنما سؤالى إلى الله تعالى أن يدلنى على الطريق إلى الحق ولو بخطوة واحدة. وقال أبو يزيد البسطامى: الخلق يظنون أن الطريق إلى الله تعالى أظهر من الشمس وأبين من القمر. وهو عندى خفى. إنما سؤالى منه أن يفتح لى طريقا إليه. ولو بمقدار رأس ابرة.

وكذلك كان سادات مشايخهم كلما كان حالهم مع الله سبحانه أصح وأعلى كانوا أكثر تواضعا وأشد ازدراء بأحوالهم وأنفسهم وذلك لتأدب المريد بهم. وتصحيح ما بينهم وبين الحق سبحانه ألا يلتفتوا إلى شئ سواه فيحرموا ذلك المقام. وسئل بعضـــهم فقيل ما بالكم قل

---

(١) هكذا على لغة من يلتزم فى الأعلام نطق العامة لها وإلا فإن صحتها نحويا بالتنوين «حمدونا».

ما تقع منكم الدعاوى. فقال: وهل الدعاوى إلا رعونات وسخرية!! إذا رجع صاحبها إلى نفسه رآها خالية مما أظهر بعيدة مما ذكر فهل هو إلا كما قيل:

وفى نظر الصادى إلى الماء حسرة   إذا كان ممنوعا سبيل الموارد

وسألت محمد بن الفراء: فقلت ما أصل الملامة؟ فقال: كلما كان حال أحدهم مع الله تعالى أصح كان أكثر التجاء وتضرعا وألزم لطريق الخوف والرهبة. خوفا من أن الذى هو فيه محل استدراج.

كما وصف الله تعالى أصحاب نبى من أنبيائه فقال: «وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا(١)» فوصفهم بهذه الصفة ثم أخبر الله تعالى بما أظهروه من أنفسهم مع ما تقدم لهم من الأحوال فقال: «وما كان قولهم ألا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فيأمرناوثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين(٢)» وقال النبى صلى الله عليه وسلم إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد. ومما يشبه هذا الحال ما سمعت عن ابن بندار أنه قال: سمعت أبا حفص يقول: منذ أربعين سنة ~" مع الله تعالى أنه ينظر إلى نظرة أهل الشقاوة، وعملى دليل شقاوتى.

وكل طريقة أبى حفص وأصحابه فى هذا أن يرغبوا المريدين فى الأعمال والمجاهدات، ويظهروا لهم مناقب الأفعال ومحاسنها ليرغبوهم فى دوام المعاملة والجاهدة والملازمة على ذلك. وكانت طريقة حمدون القصار وأصحابه تحقير المعاملات عند المريدين ودلالتهم على عيوبها لئلا يعجبوا بها، ويقع ذلك عندهم موقعا متوسطا سـلكه أبو عثمان رحمه الله، وأخـذ طريقا بين طريقين

---

(١) آل عمران ١٤٦.

(٢) آل عمران ١٤٧.

وقال: كلا الطريقين صحيح. ولكل واحد منهما وقت فأول ما يجب أن ندل المريد عليه هو تصحيح المعاملات ليلزم العمل ويستقر عليه، فإذا استقر عليه، وداوم فيه، واطمأنت نفسه إليه حينئذ تنكشف له عيوب معاملاته لعلمه بتقصيره فيها ولعلمه أنها ليست مما يصلح لله سبحانه حتى يكون مستقرا على عمله غير مغتر به. وإلا فكيف ندله على عيوب الأفعال، وهو خال من الأفعال وإنما يكشف له عيب الشئ إذا لزمه وتحقق به. وهذا أعدل الطرق إن شاء الله.

وسئل بعضهم ما طريق الملامة؟ فقال: ترك الشهوة فيما يقع به التمييز من الخلق فى اللباس والمشئ والجلوس والكون معهم على ظاهر الأحكام والتفرد عنهم فى السر بحسن المراقبة فلا يخالف ظاهره ظاهرهم بحيث يتميز منهم ولا يوافق باطنه باطنهم فيساعدهم على ما هم عليه من العادات والطبائع.

وسمعت محمد بن محمد بن إسماعيل يقول: سمعت أبا نصر الصفار يقول لما سألته عن الملامة فقال: هى ألا يظهر خيرا ولا يضمر شرا. قال: وسمعت محمد بن أحمد يقول سمعت أحمد بن معروف يقول سمعت أبى يقول سئل عن الملامة فقال: من تبعها يكون معه خوف القدرية(١)، ورجاء المرجئة(٢). وسئل بعضهم

---

(١) القدرية: طائفة يزعمون أن الله لا يقدر الشر، وأن الخير من الله والشر من أبليس، وأن الله قد يريد الشئ فلا يكون ويكره كون الشئ فيكون، وأن العبد أو الشيطان قد يريد شيئا خلاف مراد الله فيكون مراده ولا يتم مراد الله (طبقات الصوفية ٢/٢٤٧).

(٢) المرجئة طائفة من القدرية يؤخرون العمل عن الإيمان يقول ابن حزم أن فرق المقرين بملة الإسلام خمسة: وهم أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج. وأقرب فرق المرجئة إلى أهل السنة من ذهب مذهب أبى حنيفة إلى أن الإيمان هو التصديق باللسان والقلب معا. أما غلاة المرجئة =

ما بالكم لا تحضرون السماع(١)؟ فقال: ليس تركنا مجالس السماع كراهية ولا إنكارا، ولكن خشية أن تظهر علينا من أحوالنا ما نسره وذلك عزيز علينا. وإنما أحبوا حضور مجلس السماع للمتمكنين الذين لا يظهر عليهم من السماع شئ، وإن داموا عليه.

ومن أصولهم أيضا أن الأذكار أربعة :

ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالسر، وذكر بالروح فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر وذلك ذكر المشاهدة. وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان والنفس -وهى الروح- عن الذكر وذلك ذكر الآلاء والنعماء. وإذا صح ذكر القلب سكت اللسان عن الذكر وذلك ذكر الحضور والقرب. وإذا سكت القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر. وذلك ذكر العادة.

ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة؛ فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه، وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه أو طلب ثواب، أو تظن أنك تصل إلى شئ من المقامات. وأقل الناس فيمه من

= فطائفتان: احداهما تقول: أن الإيمان عقد بالقلب فقط وأن أظهر الكفر والتثليث بلسانه. والطائفة الثانية تقول أن الإيمان هو القول باللسان وإن أعتقد الكفر بقلبه. انظر الفصل ١١٢/١١١/٢ جـ٤ ص٢٠٤ كشف المحجوب ٢٦٤.

(١) سئل ذو النون المصرى عن السماع فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق فمن اصغى إليه بحق تحقق، ومن اصغى إليه بنفس تزندق. وسئل الشبلى عنه فقال: السماع ظاهره فتنه وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلبلة (اللمع ٢٤٢) وكره قوم السماع للمريدين لعظم ما فيه من الخطر أن إستلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحل عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزيمتهم ويركنون إلى شهواتهم ويتعرضون للفتنة، ويقعون فى البلية. اللمع ٢٧٢.

يريد إظهاره للخلق وإقبال الخلق عليه بذلك أو بشئ منه. وهو أخس الطبع وأدونه.

وقال بعضهم خلق الله الخلق فزين من شاء منهم بلطائف أنواره ومشاهدته وموافقته وسابق عنايته، وجعل بعضهم فى ظلمات نفوسهم وطبائعهم وشهواتهم فممن زينهم بالزينة أهل التصوف ولكنهم أظهروا ما منحهم الله من أنواع الكرامات للخلق وابتذلوها بالتزين والإخبار عنها، والكشف عن أسرار الحق إلى الخلق. وأهل الملامة أظهروا للخلق ما يليق بهم من أنواع المعاملات والأخلاق وما هو من نتائج الطبع. وصانوا ما للحق عندهم من ودائعه المكنونة، ولم يجعلوا لأحد إليها نظرا، ولا لأحد عليها سبيلا. مخافة أن يكرموا عليها أو يعظموا بها ومع ذلك غاروا على جميع أخلاقهم ومحاسن أفعالهم فخافوا أن يظهروها، وعلموا ما للنفس فيها من المراد فأظهروا للخلق ما يسقطهم عن أعينهم وما يكون فيه تذليلهم وردهم، وما لا قبول لهم معها ليخلص لهم ظاهرهم وباطنهم(١).

---

(١) اظهار العبادة واخفاؤها ذكره الله تعالى فى قوله: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا» الاسراء ١١٠.

وقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى إليه. «ولا تجهر بصلاتك» فيسمع المشركون فيسبون الله عدوا بغير علم، «ولاتخافت بها» فلايسمع أصحابك «وابتغ بين ذلك سبيلا».

كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة وكان أبو بكر يخفى صوته بالقراءة فى صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر لم تخفى صوتك؟ فقال: أناجى ربى وقد علم حاجتى. وقال لعمر: لم ترفع صوتك؟ فقال: ازجر الشيطان واوقظ الوسنان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا وعمر أن يخفض صوته قليلا... انظر تفسير الرازى ٥/٦٧٠.

وقال بعضهم طريق الملامة اظهار مقام التفرقة للخلق واضمار التحقيق بعين الجمع(١) مع الحق.

ومن أصولهم مخالفة النفس فى كل حال حتى أن أحدهم ليسلم على من يرد عليه بالكراهيــة ويترك(٢) الســلام على من يرد عليه

---

(١) لفظ الجمع والتفرقة يجرى فى كلام الصوفية كثيرا. والجمع مأخوذ من جمع الهمة على الحق تعالى والتفرقة مأخوذة من تفرقتها فى الكائنات مع الخلق والجامع والمفرق فى الحقيقة هو الله. وكان الأستاذ أبوعلى الدقاق يقول:الفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب عنك. وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق وما يكون من قبل الحق من ابداء معان واسداء لطف واحسان فهو جمع. فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع. فإثبات الجمع من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع ولا بد للعبد من الجمع والفرق، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له فقوله إياك نعبد إشارة إلى الفرق وقوله وإياك نستعين إشارة إلى الجمع وجمع الجمع فوق هذا. فمن كان مختطفا عن شهود الخلق مصطلما عن نفسه مأخوذا بالكلية عن الاحساس بكل غير بما ظهر واستولى عليه من سلطان الحقيقة فهو فى جمع الجمع.

فالتفرقة شهود الأغيار لله عز وجل والجمع شهود الاغيار بالله. وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل انظر الرسالة القشيرية ٦٠.

(٢) السلام فضيلة إسلامية أوجبها الإسلام، وأمرنا بها الله تعالى فقال: فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله (النور ٦١) ونصحنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسلم عند القدوم وعند الانصراف. فليست الأولى أحق من الثانية. وقال تعالى: «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها» (النساء ٨٦) وقد روى أن صحابيا مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم فرد الرسول: السلام عليكم ورحمة الله. ثم مر آخر: فقال: السلام عليكم ورحمة الله فرد الرسول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم مر ثالث فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد الرسول. وعليكم. فلما سئل عن ذلك قال لم يترك لنا شيئا نزيده -أو كما قال- فرد الملامتية-

طوعا، ويترك مجالسة من يبره ويقبل على مجالسة من يهينه، ويسأل من يمنعه ولا يسأل من يعطيه، ويقبل على من يعرض عنه ويعرض عمن يقبل عليه، ويعطى من لا يحبه ولا يعطى من يحبه، وينزل عند من يكرهه ولا ينزل عند من يهواه، ويعاشر من يبغضه ولا يعاشر من يوده، ويأكل ما يعافه ويدع ما يشتهيه، ويسافر إذا أراد المقام ويقيم إذا أراد السفر. وهكذا فى جمع الأحوال يختارون مخالفة النفس ويدعون ما للنفس فيه راحة بحال، أو لها إليه سكون. ويجتهدون غاية الجهد فى إسقاط الجاه، ونظر الخلق إليهم بعين التعظيم ويركبون من مظاهر الأمور ما يلامون عليه، وإن كان ذلك مباحا فى ظاهر العلم مثل صحبة من ليس هو من طبقتهم من الناس والقعود فى مواضع تشينهم.

كل هذا لسترأحوالهم وصون أوقاتهم عن أن يعترضهم فيها معترض بل ابتذلوا الظواهر للمعانى والتذلل والرد والاسماع وصانوا سرائرهم وأحوالهم بذلك عن الاطلاع عليها وهذا هو من وصية مشايخهم لهم .

ومن أصولهم أنهم رأوا التزين بشئ من العبادات فى الظاهر شركا، والتزين بشئ من الأحوال فى الباطن أرتدادا.

ومن أصولهم ألا يقبلوا ما يفتح لهم بعز ويسألوا بذل حتى أن أحدهم سئل عن ذلك فقال فى السؤال ذل وفى الفتوح عز وأنا لا آكل إلا بذل، لأنه ليس فى العبودية تعزز. وأصلهم فى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد فإن قيل هذا مخالف لظاهر العلم فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب : ما أتاك الله تعالى فى هذا المال من غير مسألة ولا اشـــراف نفس فاقبله . قيل أن عمر رضى الله عنه رأى فى رد ذلك

= السلام على من يكرهون محمدة أما تركهم السلام على من يرد عليه طوعا فمذمة وليس من الدين.

عزا لنفسه فقال النبى صلى الله عليه وسلم وحثه على ذلك مخالفة لنفسه واسقاطا لذلك التعزز عنه: ما أتاك الله تعالى من هذا المال من غير مسألة ولا اشراف نفس فاقبله ولا تتعزز برده فإن الرد حظ النفس وتكبر يحدث فيها.

ومن أصولهم قضاء الحقوق فى الباطن، وترك اقتضائها فى الظاهر.

ومن أصولهم محبة استخراج الشئ منهم بالجهد وإن كانوا يحبون اخراجه بضد الجهد، وإنما فعلوا ذلك اسقاطا لحظ رؤية النفس منهم فيستخرج ذلك منه كرها، وإن كان مراده فى اخراجه إليهم حتى بلغنى عن بعض المشايخ منهم أنه كان يؤخذ ماله منه فيقول لهم هذا حرام لا يحل لكم والقوم يأخذونه. فقال إنما يأخذون مالهم ليس لى فيه شئ ولكن هكذا مستخرج الحق من البخيل. وأصلهم فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم «إن النذر لا يغنى من الحق شيئا وإنما يستخرج به من البخيل».

ومن أصولهم أن الغفلة هى التى أطلقت للخلق النظر فى افعالهم وأحوالهم ولو عاينوا أمانا من الحق لاستحقروا ما يبدو منهم فى جميع الأحوال واستصغروا مالهم فى جنب ما عليهم.

ومن أصولهم مقابلة من يحقرهم بالاحتمال والحلم والخضوع والاعتذار والإحسان دون مقابلتهم بمثل أو قريب منه. وأصلهم فيه قوله تعالى: «ادفع بالتى هى أحسن السيئة(١)».

ومن أصولهم ترك الانتصار للنفس والانتقام لها وبذل النفس لمن يهينها. وأصلهم فى ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم إنه ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله.

---

(١) المؤمنون ٩٦ .

ومن أصولهم اتهام النفس فى جميع الأحوال أقبلت أم أدبرت أطاعت أم عصت ، وترك مدحها والميل إليها بحال.

ومن أصولهم أن ما ظهر من أحوال الروح للسر صار رياء فى السر، وما ظهر من أحوال السر إلى القلب صار شركا فى السر، وما ظهر من القلب للنفس صار هباء، وما أظهره الإنسان من أحواله، وأفعاله فهو رعونة الطبع ولعب الشيطان به. والذى يكون محظوظا فى أحواله يكون فى زيادة لا يزال ترتقى به الأحوال حتى يدنو حال السر إلى حال الروح والقلب لا يشعر بذلك، ويترقى فى حال النفس إلى حال القلب والطبع لا يشعر بذلك فحينئذ يكون مكاشفا ينظر بعينه إلى ما يشاء فيشهده على ما هو عليه وبه ينظر بقلبه فيخبر عن مواضع الغيب، والروح والسر حصلا فى المشاهدة فليس لهما إلى القلب والنفس رجوع بحال. ومع هذا فظاهره ملازم للعلم مظهر للتهمة مخاطب لنفسه بأنه فى حالة الاغترار والاستدراج لئلا يألفه افتخارا بعمله فيسقط من درجات الصديقين.

وسئل بعضهم ما صفة أهل الملامة فقال: دوام التهمة فإن فيها دوام المحاذرة أو من قويت محاذرته سهل عليه رد الشبهات وترك السيئات.

وسمعت محمد بن أحمد الفراء يقول سمعت عبد الله بن محمد يقول سمعت أبا عمرو بن نجيد وسألته: هل للملامتى صفة؟ فقال: نعم. ألا يكون له فى الظاهر رياء، ولا فى الباطن دعوى، ولا يسكن إلى شئ، ولا يسكن إليه شئ. وسمعته يقول وسألته أن يخبرنى بهذا الاسم وما صفته فقال: التزام ما وصف به خلق الإنسان عجولا هلوعا ضعيفا. إن النفس لأمارة بالسوء أيمدح من يوصف بهذه الأوصاف أو يذم. فهذه صفة أهل الملامة.

وأحب مشائخهم التزيى بزى الشطار، واستعمال عمل الأبرار وأحبوا أيضا لأصحابهم ملازمة الأسواق بالأبدان، والفرار منها بالقلوب والأسرار. وسمعت جدى يقول سمعت أبا محمد الجوينى يقول: الزم السوق والكسب، وإياك أن تأكل من كسبك وانفقه على الفقراء، واسأل من الناس ما تأكله أنت(١) ففعلت ذلك. وكنت إذا سألت الناس يقولون لى: هذا الطموع الشده يعمل طول نهاره ثم يسأل الناس حتى أظهر الله لهم ما أمرنى به أبو حفص فكانوا يبرونى، فقال لى أبو حفص: اترك الكسب والسؤال جميعا فتركتهما.

وحضر بعض المشايخ مع حمدون فى مجلس فجرى فيه ذكر بعض اخوانهم فقيل أنه كثير الذكر فقال حمدون لكنه دائم الغفلة. فقال له من حضر من أوتى سرا(٢) يجب عليه شكر ما أنعم الله به عليه واطلاق لسانه بالذكر فقال حمدون. أولا يجب عليه رؤية تقصيره فى غفلة القلب عن الذكر.

---

(١) أما قيام الصوفية والملامتية بالعمل والكسب فهذه محمدة وفضيلة لأن العمل عبادة. وأما عدم أكلهم من عملهم وكسبهم وسؤال الناس فى ذلك ففيه نظر لأنه يروى أن نبى الله داود سأل جبريل عن مكانته عند ربه فقال خير مكانة. لولا أنك لا تأكل من عمل يدك. فأخذ يعمل وأكل من عمل يده.

«ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد. أن أعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا» سبأ ١٠،١١.

والسؤال نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلالثلاث لذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع أو لذى دم موجع وإلا أتت المسألةنكتةسوداءيوم القيامة.أما تعلل الصوفيةفى السؤال بذل النفس فشئ غير مشروع والغاية لاتبرر الوسيلة.

(٢) السر عند الصوفية لطيفة مودعة فى القلب كالارواح، وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة، كما أن الارواح محل للمحبة، والقلوب محل للمعارف. وقالوا: السر مالك عليه اشراف، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير الحق وعند القوم على موجب مواضعاتهم ومقتضى أصولهم السر الطف من الروح والروح أشرف من القلب.

ورأيت فى كتاب كتبه أبو حفص إلى شاه الكرمانى(١): أعلم يا أخى أنه من لم يعرف آفة نفسه وعجزه فى جميع ما يبدو منه من الطاعات فهو يشوبها بالرياء، ومن لم يستعمل الترقى ويجعله زماما لنفسه فى جميع الأحوال، ثم يعلم أن النفس وإن لانت هى الأمارة بالسوء لا تنقاد إلى الطاعة إلا ويضمر فيها خلافا فيقابلها بالملامة فى جميع أحواله وأوقاته، ولا يدعها تستقر فى حالة من الأحوال.

وحكى عن يحيى بن معاذ أنه قال: من أخلص لله فليكتم طاعته (ولا يحكى قوله)، وسئل عن أحوال القوم فقال هم قوم تولى الله حفظ أسرارهم(٢)، وأسبل على أسرارهم شر الظاهر فهم مع الخلق من حيث الخلق لا يفارقونهم فى أسواقهم ومكاسبهم، ومع الله سبحانه من حيث الحقيقة والتولى. فباطنهم يلوم ظاهرهم على الإنبساط مع الخلق والكون معهم برسوم العوام. وظاهرهم يلوم باطنهم بأنه ساكن فى مجاورة الحق، وغافل عما فيه الظاهر من معاشرة الأضداد. وهذا من أحوال الأئمة السادة.

- ويقولون: الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والإطلاق. ويطلق لفظ السر على ما يكون مصونا مكتوما بين العبد والحق سبحانه فى الأحوال وعليه يحمل قول من قال و: «أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم. ويقولون صدور الأحرار قبور الاسرار انظر الرسالة القشيرية ٧٦.

(١) شاه بن شجاع أبو الفوارس كان من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشبى وكان من أجلة الفتيان مات قبل الثلثمائة ويقال إن أصله من مرو من أقواله: «اعملوا الطاعات أنزه ما يكون وانظروا إليها أقذر ما يكون ومن أقواله أيضا: لأهل الفضل فضل ما لم يروه فإن رأوه فلا فضل لهم ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها فإن رأوها فلا ولاية لهم.

(٢) أنشدوا للجنيد فى معنى الجمع والتفرقة:

وتحققتك فى سـرى فناجاك لسانى   فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعانى
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى   فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

وقيل لأبى يزيد: ما أعظم آيات العارف؟ فقال: أن تراه يؤاكلك ويشاربك ويمازحك ويبايعك ويشاريك وقلبه فى ملكوت القدس. هذا أعظم الآيات. وقال أيضا: من صدق فى عين الجمع بالحرية كان لازما بجوارحه على آداب العبودية، وسره فى مشاهدات الحق. ومن كان فى عين الافتراق فإنه يجمع جهة المجتهدين فى عبوديته ويكون ذلك كالهباء.

وسمعت عبد الله بن محمد بن جسعون يقول: سألت عبد الله الخياط عن الملامة فقال: من يفرق بين ملامة نفسه وملامة الناس له ويتغير الحال والوقت عنده فى ذلك فهو فى رعونة الطبع، ولم يبلغ درجة القوم.

وسئل بعضهم ما أضر شئ يحل بأهل هذه الطريقة؟ فقال: قلة بصيرته بعيوبه، ورضاه من نفسه بما هو فيه. وسئل بعض مشائخهم من يستحق اسم الفتوة عندكم فقال: من كان فيه اعتذار آدام، وصلاح نوح، ووفاء إبراهيم، وصدق إسماعيل، وإخلاص موسى، وصبر أيوب، وبكاء داود، وسخاء محمد صلى الله عيه وسلم وعليهم أجمعين، ورأفة أبى بكر وحمية عمر، وحياء عثمان، وعلم على رضى الله عنهم أجمعين. ثم مع هذا كله يزدرى(١) نفسه ويحتقر ما هو فيه، ولا يقع فى قلبه خاطر مما هو فيه أنه شئ أو أنه حال مرضى. بل يرى عيوب أفعاله ونقصان نفسه، وفضل اخوانه عليه فى جميع هذه الأحوال.

وقال أبو حفص لبعض أصحابه رآه وهو يذم الدنيا وأهلها فقال له: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه . لا تجالسنا بعد هذا ء.

---

(١) المقصود بهذا أن يكون الصوفى أو الملامتى أو الفتى أخذا نفسه بهذه الفضائل كلها. وليس فى ذلك شئ من تفضيل الولى على النبى كما يحاول البعض أن يفهم ذلك.

ولا تصاحبنا. وسمعت أبا أحمد بن عيسى يقول سمعت أبا زكريا السنجى يقول الأحوال أمانات عند أهلها فإذا أظهروها فقد خرجوا من حدود الأمناء. وأنشد محمد بن الحسين العلوى لبعضهم فى معناه:

من ساررره فأبدى كلما ستروا ... ولم يراع اتصـــالا كان غشاشـــا
من لم يصـن سر مولاه وسيده ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقبـوه على ما كان من زلل ... وأبدلوه مكان الأنـــس ايحاشـــا
وجانبـــوه فلم يصلح لقربهم ... لما رأوه عن الأســـرار نباشـــا
من أطلعوه على ســـر فنم به. ... فذاك مثلى بين النـاس طياشـــا
هم أهل أسرار وللأسرار قد خلقوا ... لا يصبرون على ما كان فحاشـــا
لا يتركون مذيعا فى مجالسهم ... ولا يحبون سرا داو وشـــواشا
لايصطفون مضيعا بعض سرهم ... ولا يحبـونهم حاشاهم حاشا(١)

سمعت أبا طاهر أحمد بن طاهر يقول سمعت محفوظا يقول كان أبو حفص يكره لأصحابه الأسفار من غير عوض حج أو غزو أو رؤية شيخ أو طلب علم. فأما الاسفار على المراد فكان يكرهها. ويقول الرجولية البصر فى مواضع الارادة. فقال له حمدون القصار معارضـا أو ليس قال الله تعالى : «أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا (٢)» فقال أبو حفص : إنما يسير فى الأرض من لا ينظر إلا بالمسير ومن فتح عليه الطريق فى المقام فسيره ترك للطريق وذلك إضلالا له.

---

(١) أورد محى الدين بن عربى فى كتابه محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار ٢٤٠/٢ بعض هذه الأبيات وذكر قصة من أنشدها وأنه فتى من أتباع ذى النون المصرى غاب عن أستاذه زمنا فلما حضر سأله ذو النون عما اكسبته خدمة الله من المواهب وما منحه اجتهاده فى العبادة من المنح فقال: يا أستاذ هل رأيت عبدا اصطنعه الله واصطفاه ثم أسر إليه سرا. أيحسن به أن يفشى ذلك السر؟ ثم أنشد هذه الأبيات. انظر الملامتية د/أبو العلا عفيفى ص٩٢.

(٢) الرو فاطر ٤٤، غافر ٢١.

وسأل عبد الله الحجام حمدون القصار فقال أعلى مطالبة فى ترك الكسب؟ فقال له الزم الكسب لأن تدعى عبد الله الحجام أحب إلى من أن تدعى عبد الله الزاهد، أو عبد الله العارف. وسئل بعض مشايخهم عن الخشوع وهل هو إلا على ظاهر البدن؟ فقال آه من فهوم قعدت عن حقائق المعانى. بل الخشوع هو أن يطلع الله على الأسرار فتخشع بذلك فيتأدب الظاهر بنور ذلك الاطلاع ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى إذا تجلى على شئ خضع له؟ هل التجلى إلا على الأسرار فإذا خشعت الأسرار بالتجلى ورثت الظاهر حسن الأدب.

وقال بعضهم أفضل مصحوب الإنسان العلم لأنه اقتداء لا حظ للنفس فيه بحال، وشر مصحوب الإنسان نسكه لأنه لا ينفك من التزين والإخبار عنه ورؤية التكبر والتفطيم فيه ألا ترى أن الملائكة لما كان مصحوبهم الطاعات سالموا رؤيتهم بقولهم: «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»(١) فلما بلغوا مقام العلم قالو «لاعلم لنا إلا ما علمتنا» فأفضل مصحوب الإنسان العلم وشر مصحوب الإنسان النسك. وقيل لأبى يزيد متى يبلغ الرجل مقام الرجال فى هذا الأمر؟ فقال: إذا عرف عيوب نفسه وقويت تهمته لها . وقال بعضهم من أراد أن يسقط عنه الافتخار بما هو فيه، والنظر إلى ما هو عليه فليعلم من أين جاء؟ ومن أين هو؟ وكيف هو؟ ومن هو؟ وإلى أين هو؟ فمن صح له العلم بهذه المقامات لم ير لنفسه حظا ولا لما يظهر منها خطرا بحال بل يراها مذمـــومة الكون ساقطة الأفعال لا يبقى له من ظاهره افتخار، ولا من باطنه اغترار. وقال بعضـــهم لايبلغ العبد ذروة الإيثار حتى لايفكر فى شئ مما مضى ، ولا فى

(١) البقرة ٣٠.

شىء مما يأتى، ويكون فى وقته على مشيئة مليكه. وهذا هو العون على اسقاط التكليف. وعندهم أن الكامل فى حاله من يبقى ظاهره للمريدين على حد أدب العبودية للاقتداء به، والأخذ عنه ويبقى سره وحاله لمن يقصده فى سياسات الأحوال وآداب المشاهدات فيكون السر مشاهدا للحق فى جميع الأوقات يتلاشى فيه من يقصده وهو مشرف على الخلق وناظر إليهم فسره أمام تصحيح أحوال العارفين، وظاهره أمام آداب المريدين. وهذه أحوال الأئمة الصادقين. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: تنام عيناى ولا ينام قلبى. أخبر عن الظاهر بأحوال النوم وهو الإغفاء وأخبر عن السر بالتيقظ الدائم والمشاهدة والقرب.

وسئل بعضهم: لم استوجبت النفوس منكم الملامة على دوام الأوقات فقال لأنها كف من عجب فى قالب ظلمة مربوط بشواهد العامة ولأنها كف من جهل فى قالب رعونة مربوط بحبل الأطماع فدواؤها الإعراض عنها وتأديبها بمخالفتها، وصيانتها بملامتها وقال بعضهم لقد أسقط الله رؤيا الأعمال حتى عن الأنبياء والرسل عليهم السلام. ألا ترى الكليم موسى عليه السلام لما قال: «كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا (١)» قال له: ولقد مننا عليه مرة أخرى أى كيف يجوز أن تعد على تسبيحك وتكبيرك، وتنسى ما كان منى إليك من أنواع الفضل فى قوله: «واصطنعتك لنفسى» وأنت تعد تسبيحك على.

وسئل بعضهم لم أذللتم أنفسكم، وأظهرتم منها ما لامكم عليه الخلق فقال: لأن النفس خلقت مهـانة(٢) من ماء مهين ، ومن حمـأ

(١) طه ٣٣.

(٢) لعل الذى خلق من ماء مهين هو الجسم أما النفس فمختلف فى جوهرها وطبيعتها.

مسنون فأورثت فيها مخاطبة الحق معها عزا فتعززت بذلك ولم نعلم أن العزيز فيها ما هو مستودع بها لا ما هى مجبولة عليه فان تركت النفس فى تعززها تداعت وخرجت عن حدها ورسخت فى طبعها فالموفق من العباد من أراها قيمتها وأعلمها أن كل ما يتصل بها من أحوالها وأفعالها مذموم لئلا تسكن إلى شىء ولا تفتخر بشئ لأن العزيز منها ما لله فيها من كريم ودائعه، وجميل نظره وفوائده. وقال بعضهم: من أراد أن يعرف رعونة النفس وفساد الطبع فليصغ الى مادحه فإن رأى نفسه خرجت عن الحد بأقل قليل فليعلم أنه لا سبيل لها إلى الحق بحال لأنها تسكن إلى مالا حقيقة لمدحه، وتضطرب من ذم ما لاحقيقة لذمه. وإذا قابلها فى الأوقات بما يستحق من التذلل، ولم يؤثر فيه مدح مادح ولم يسكن إلى ذم ذام فحينئذ يدخل فى أحوال الملامة. قال أبو يزيد (١) أقمت اثنتى عشرة سنة حداد نفسى، وخمس سنين كنت مرآة قلبى وسنة كنت أنظر فيما بينهما فنظرت فإذا فى وسطى زنار ظاهر للخلق فعملت فى قطعه خمس سنين فانقطع فكشف لى فنظرت إلى الخلق فإذا هم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات وصليت، قال الله تعالى «أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون »(٢) فهذا من رسوم القوم وأخلاقهم وأبو يزيد فى جلالته يخبر عن نفسه حتى يرى الخلق بعين الفناء(٣) فتسقط عنه رؤيتهم والتزين لهم. فهـــذا من جليـــل

---

(١) يكثر السلمى من أقوال أبى يزيد البسطامى وكأنه واحد من الملامتية مع أنه ليس منهم وفى هذا ما يدل على أن رسالة السلمى عن الملامتية ليست كلها من كلام الملامتية بل فيها من أقوال غيرهم ما يوافق مذهبهم.

(٢) النحل ٢١.

(٣) الفناء والبقاء من مصطلحات الصوفية. ويقصدون بالفناء سقوط الأوصاف المذمومة وبالبقاء قيام الاوصاف المحمودة ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة... فمن استولى عليه سلطان الحقيقة -

مقاماتهم. وقد قال تعالى: «أو من كان ميتا فأحييناه» (١) قالوا فيه ميتا بنفسه ونظره الى الخلق فأحييناه بنا وباسقاط رؤية الخلق عنه. وقال أبو يزيد أشد الناس حجابا عن الله ثلاثة عالم بعلمه وزاهد بزهده وعابد بعبادته فالعالم لو علم ماذا علم وأن الخلق كلهم وما أخرجه الله تعالى إلى الخلق لا يكون سطرا من اللوح المحفوظ ثم ماذا علم من جملة العلوم التى أخرجها الله تعالى إلى الخلق لعلم أن التكبر بذلك والتزين به خطأ محض. والزاهد لو علم أن الله تعالى سمى الدنيا بأسرها قليلا(٢) فكم ملك هو من ذلك القليل وفى كم زهد فيما ملك لعلم أن زهده هذا ليس مما يجب الافتخار به والعابد لو عرف منة الله تعالى فيما أهله له من عبادته لذابت رؤيته لعبادته فى جنب ما تزين به من منن الله تعالى.

وسئل بعض مشايخهم كيف يعمل الإنسان العمل ولا يقع له ولا به مطالبة؟ قال ذلك إذا شغله فرحه بالأمر وأنه مأمور به من جهة الحق سبحانه، ويقع على قلبه هيبة الأمر فتشغله عن النظر إلى شئ مما يظهر عليه، وما يبدو منه.

وسئل بعضهم ما بال هؤلاء لم يتحققوا لأنفسهم حالا ولم يظهر لها طاعة ولم ينسبوا إليها شيئا فقال وكيف يتحقق لها شيء وهى

- حتى لم يشهد من الأغيار ولا أثرا ولا رسما ولا طللا يقال أنه فنى عن الخلق وبقى بالحق (الرسالة ٦٢) ويعد صاحب اللمع القول بالفناء من أغلاط الصوفية ويرى أن من يقولون بالفناء أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤديهم إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى فى المسيح عليه السلام (اللمع ٥٢٢) ويرى أن الله لا يحل فى القلوب ولكن يحل فى القلوب الإيمان به والتوحيد له، والتعظيم لذكره بمعانى التحقيق والتصديق.

(١) الأنعام ٦.

(٢) فى قوله تعالى «قل متاع الدنيا قليل» النساء ٧٦.

لا شيء وما كان لها من شيء فهو للغير مستودع فيها والعوارى لا يتزين بها العقلاء ألاترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العارية مؤداة. فإذا تحقق العطاء لا يحتاج إلى إظهاره فان الحقيقة ناطقة عنه وإن كتمها. قال بعض السلف: كاد وجه المؤمن ينطق بما فى قلبه. وأكثر مشائخهم حذورا أصحابهم أن يجد أحدهم لذة طعم حلاوة العبادة والطاعة فإن ذلك عندهم من الكبائر لأن الأنسان اذا استحلى شيئا واستلذه فتطمه أو نظر إليه بعين الرضا سقط عن درجة الأكابر ولقد سمعت عبد الواحد بن على السيارى رحمه الله يقول سمعت القاسم بن القاسم السيارى يقول سمعت محمد بن موسى الواسطى يقول: إياكم ولذة الطاعات فإن لها سمومات قاتلات.

ومن أصولهم تعظيم الله عندهم من جميع الوجوه وتصغير ما يبدو منهم من ألوان الموافقات والطاعات وملازمة من هم مع الله تعالى من غير تعد من انبساط فى قول، أو إظهار ما يجب كتمه من الأحوال. كما حكى عن محمد بن موسى الفرغانى أنه قال خلق الله تعالى آدم بيده (١) ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته.

(١) جاءت اليد فى القرآن الكريم فى ثمانى آيات بلفظ الواحد فى أربعة ومثناة فى موضعين ومجموعة فى موضعين. وردت مفردة فى الفتح والحديد والملك وآل عمران ومثناه فى المائدة وص ومجموعة فى الأعراف ويس. كما وردت فى احاديث كثيرة. وقد اختلف فى نسبة اليد إلى الله تعالى فالسلف فوضوا المراد منها إلى الله تعالى. بعد تصديقهم بها وتنزيههم أن تكون مثل أيدى المخلوقين وأما غير السلف فمنهم من أول اليد بمعنى يليق بالله تعالى حسب ما يدل عليه السياق ومنهم من جعلها صفة لله بلا كيف. ويرى الإمام البيهقى أن حملها على الصفة واجب فى قوله تعالى لابليس «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى» ص٧٥ وفى الخبر الذى جاء فيه أن الله خط التوراة بيده وخلق جنة عدن بيده. وإنما وجب حملها على الصفة فى هذه المواضع لأن حملها على غيرها غير سائغ لما فيه من نفى المعنى الذى جاءت من أجله فى هذه المواضع وهو تخصيص تعلق هذه الأمور بتلك الصفة التى هى اليد فلم يبق إلا حملها على الصفة انظر الاسماء والصفات ٢١٩، ٢٢٠، والاعتقاد ٢٩، ٣٠.

وعلمه الأسماء كلها. ثم قال «إن لك ألاتجوع فيها ولا تعرى (١)» عرفه قدره لئلا يتعدى طوره. وحكى عن بعض المشايخ أنه قال من قام بنفسه ظهر فيه القصور واعترض عليه الفتور.

وسمعت منصور بن عبد الله الأصفهانى يقول سمعت عمى (٢) البسطامى يقول سمعت أبا يزيد يقول: من لم ينظر إلى شواهده بعين الاضطرار، وإلى أوقاته بعين الاغترار، وإلى أحواله بعين الاستدراج وإلى كلامه بعين الافتراء، وإلى عبادته بعين الاجتراء، وإلى نفسه بعين الازدراء فقد أخطأ النظر.

وكتب محمد بن الفضيل إلى أبى عثمان يسأله عما يخلص للعبد من الأفعال والأحوال فأجابه: أعلم يا أخى كرمك الله بمرضاته أنه لا يخلص للعبد من الأفعال والأحوال الا ما أجراه الله تعالى عليه من غير تكلف له فيه أو ما سقط عنه رؤيته ورؤية الناظرين إليه وليس له من الأحوال إلا حال السر الذى لا يطلع عليه أحد إلا محى القلوب قال الله تعالى: «ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب (٣)» وعندى والله أعلم أن المعظم لشعائر الله هو المتبع لكتابه وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم يعظم ذلك فى قلبه حتى لا يجد لغير الاقتداء أو ترك الاختيار سبيلا وهذا من علامة الصادقين.

وذلك الذى كان يأمرنا به شيخنا رضى الله عنه وعلى ذلك يدل كلام أكابر أصحابه.

---

(١) طه ١١٨.

(٢) لعله موسى بن عيسى المعروف بعمى كما ورد فى رسالة القشيرى ص٦،٤ ، ١٦، ٢٦، وقارن أيضا اللمع للسراج ص١٠٢، ١٠٤، ٢٢٤ وانظر الملامتية د/عفيفى ١٠٦.

(٣) الحج ٣٢.

سمعت محمد بن عبد الله الطبرى يقول: كنت واقفا على حلقة الشبلى رضى الله عنه فجاء شيخ فقال له: يا أبا بكر أرفق بى أسألك عن مسألة فقال: سل يا شيخ فقال: ما أفضل الأعمال فأشد الشبلى وجعل يقول:

إذا محاسنى اللاتى أدل بها　　كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

قال وسمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت عمى البسطامى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبا يزيد يقول: لو صفت لى تهليلة ما باليت بعدها بشىء. وحكى عن أبى حفص أنه قال: العبادة الظاهرة سرور، وفى الحقيقة غرور لأن المقدور قد سبق فلا يسر بفعله بعدها الا مغرور. وقال خلقت النفس مريضة ومرضها طاعتها فجعل دواؤها الاستناد إلى مسبوق القضاء فلا يزال العبد يتقلب فى الطاعات وهو منقطع عنها. ولقد رأيت لرويم بن أحمد رضى الله عنه فصلا فى كتاب دليل العارفين يقرب من طريقتهم. وقال حين سئل كيف يبرأ من السكون والحركة من جعل ساكنا متحركا أو يخلو من الاختيار من جعل مختارا مميزا؟ فقال يبرأ من ذلك حين تكون حركته لا به وسكونه لا إليه، ويخلو من الاختيار حين وافق اختياره اختيار الحق فيه وله فيحصل له سكون وحركة فى الظاهر ولا حركة ولا سكون فى الحقيقة. ويجعل له اختيار ولا اختيار له لأن اختياره اختيار الحق له. وهذا من المقامات السنية وهو قريب مما يضمره القوم من خفى علومهم دون ما يبدونه.

وما يشبه أصولهم ما بلغنى عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال: ليس للمؤمن نفس. قيل له وأين نفسه قال: ذهبت بالمبايعة. قال الله تعالى «أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (١)».

---

(١) التوبة ١١١ .

ومن أصولهم ما سمعته من عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الرازى قال سمعت أبا عبد الله الجرجانى يقول: حسن الظن بالله غاية المعرفة وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها. وسمعت أبا عثمان يقول قال رجل لأبى حفص: أوصنى. قال لا تكن عبادتك لربك سبيلا لأن تكون معبودا. واجعل عبادتك له إظهار رسم العبودية والخدمة عليك فإن من نظر إلى عبادته فأنما يعبد نفسه. وقال بعضهم من رجع إلى الخلق قبل الوصول فقد رجع من الطريق فيورثه ما تقدم من رياضه حب الرياسة وطلب الاستعلاء على الخلق ومن رجع إلى الخلق بعد الوصول إلى التمكين صار إماما ينتفع به المريدون. وسمعت أبا عمرو بن محمد بن حمدان يقول سمعت أبى يقول: كان أبو حفص إذا دخل البيت يلبس المرقعة والصوف وغير ذلك من ثياب القوم، وإذا خرج إلى الناس لبس الحسن ويخرج إليهم بزى أهل السوق. ويرى لبس القوم وزيهم فيما بين الناس رياء وشبهة وتصنعا.

ومن أصولهم التأدب بإمام من أئمة القوم والرجوع فى جميع ما يقع له من المعلوم والأحوال إليه. وسمعت الشيخ أبا يزيد محمد بن أحمد الفقيه يقول سمعت إبراهيم بن شيبان يقول: من لم يتأدب بأستاذ (١) فهو بطال وكره أكثر مشايخهم أن يظهر الإنسان نفسه بشىء من العبادات كالصوم الدائم والأوراد الظاهرة من الصلاة وغيرها حتى يعرف بذلك ويذكر. وسمعت قريبا من هذا محمد بن عبد الله البزاز يقول سمعت عبد الله بن حمدون يقول سمعت عبد الله المغازلى يقول سمعت بشر الحافى(٢) يقول: أتيت إلى باب المعافى بن عمران فدققت الباب فقيل من ذا فقلت بشر وحول على لسانى الحافى. فقالت لى بنية من داخل الباب: لو اشتريت نعلا بدانقين

(١) من أقوال الصوفية فى ذلك من لا شيخ له فشيخه الشيطان.
(٢) كذا ... ولعل الصواب بشرا.

لسقط عنك هذا الاسم. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الشهرتين. وقال: كفى بالمرء شرا أن يشار إليه فى أمر الدنيا أو الآخرة.

وكره أكثر مشايخهم القعود للناس على وجه التذكير والموعظة وقالوا فى ذلك: إخراج أحسن ما عندك إلى الخلق فماذا يتبقى لك مع الحق (١) إن كلمتهم بأحوالك أفسدتها، وأن كلمتهم بأحوالهم فعلمك بأحوالهم جهل ولعلك مما لا يكون لك حد الاسراف(٢) . وأن كلمتهم بأحوال السلف ظلمتهم، حيث طرقت لهم السبيل إلى الدعاوى. وكذلك سمعت أبا عمرو بن حمدون يقول سمعت أبا حفص يقول لأبى عثمان: القعود مع الخلق هو الرجوع عن الله إلى الخلق فانظر أى رجل تكون.

ومن أصولهم أن كل عمل وطاعة وقعت عليه رؤيتك واستحسنته من نفسك فأعلم أنه باطل. وأصلهم فى ذلك ما حدثنا أبوعبدالله بن حسن قال: قال الحسين بن على كل شىء من أفعالك اتصلت به رؤيتك فذاك دليل على أنه لم يقبل منك وما انقطع عنه نظرك من أفعالك فذاك دليل على قبوله.

ومن أصولهم رؤية تقصير أنفسهم ورؤية عذر الخلق فيما هم فيه. كذلك سمعت عبد الله بن محمد المعلم يقول سمعت أبا بكر الفارسى يقول خير الناس من يرى الخير فى غيره ويعلم أن الطريق إلى الله كثيرة غير الطريق الذى هو عليه فإذا رأى ذلك رأى تقصير نفسه فيما هو فيه ولم ينظر إلى أحد بعين التقصير. وسمعت جدى

---

(١) كذا... والمقصود أن الإنسان إذا أخرج أحسن ما عنده إلى الخلق لا يتبقى له مع الحق شئ فى نظر الصوفية.

(٢) كذا... ولعلها الاشراف أى العلم بأحوالهم.

إسماعيل بن نجيد يحكى على من شاه الكرمانى أنه قال: من نظر إلى الخلق بعينه طالت خصومته معهم ومن نظر إليهم بعين الحق عذرهم فيما هم فيه وعلى أنهم لا يستطيعون غير ما جبروا عليه.

ومن أصولهم حفظ القلب مع الله سبحانه بحسن المشاهدة وحفظ الوقت مع الله بحسن الأدب وكتمان ما يظهر عليه من الموافقات إلا ما لا بد من اظهاره. وكذلك قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه لما قال: وقتك(١) أعز الأشياء عندك فاشغله بأعز الأشياء عليك. وقال أبو عبد الله المزنى ليس فى الدنيا شئ أعز من قلبك ووقتك فإن ضيعتهما فقد ضيعت أعز الأشياء عليك.

ومن أصولهم أن أصل العبودية شيئان: حسن الافتقار إلى الله تعالى وهو من باطن الأحوال، وحسن القدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو الذى ليس للنفس فيه نفس ولا راحة.

ومن أصولهم أن الإنسان يجب عليه أن يكون خصما على نفسه غير راض عنها من الأحوال. كذلك سمعت أبا بكر بن شاذان يقول سمعت على بن داود العكى يقول المريد خصم الله على نفسه فى جميع أفعاله وأحواله وأقواله وأذكاره.

---

(١) تحدث الصوفية عن الوقت قال ابو على الدقاق: الوقت ما أنت فيه إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى. وإن كنت بالسرور فوقتك السرور وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن. يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان. ويقولون: الصوفى ابن وقته يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به فى الحال قائم بما هو مطالب به فى الحين وقيل الفقير لا يهمه ماض وقته وآتيه بل يهمه وقته الذى هو فيه. وقيل الاشتغال بفوات وقت ماض تضييع وقت ثان وقد يريدون بالوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم. ويقولون فلان بحكم الوقت أى أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير إختيار له. وهذا فيما ليس لله تعالى عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع إذ التضييع للشرع واحالة الأمر فيه على التقدير خروج عن الدين. الرسالة القشيرية ٥٢.

ومن أصولهم أن الافتخار بالعمل والعجب به والنظر إليه قلة العقل ورعونة الطبع كيف تفتخر بما ليس لك فيه شئ وهو يجرى من الغير عليك. نسب ذلك اليك نسبة عارية وفى الحقيقة ليس لك معه نسبة لأنك مدبر فيه ومجبور عليه، وهل الافتخار بمثل هذا إلا قلة العقل ورعونة الطبع؟ وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: المتصنع بما لم يعط كلابس ثوبى زور.

وسمعت محمد بن عبد الله يقول سمعت محمد بن على الكنانى يقول: كيف يعجب عاقل وهو يعلم أنه لا يقدر على شئ من عمله؟

ومن أصولهم ترك الكلام والمباهاة بالعلم واظهار أسرار الله تعالى منه عند غير أهله. كذلك سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت عبد الله بن محمد المزين النيسابورى يقول: قلت لأبى حفص ما بالكم لا تتكلمون كما يتكلم البغداديون وغيرهم من الناس، وما بالكم أخترتم الصمت فقال: لأن مشايخنا صمتوا بعلم، ونطقوا على الضرورة فوقع لهم محل الأدب فى الكلام فلم يتكلموا إلا بعد ما عقلوا عن الله فصاروا أمناء الله فى أرضه، والأمين حريص على حفظ أمانته.

ومن أصولهم أن السماع إذا عمل عمل فيمن يتحقق فيه أن هيبته تمنع الحاضرين عن الحركة والقيام لتمام هيبته عليهم. سمعت محمد بن الحسن بن الخشاب يقول: سمعت على بن هارون الحصرى يقول: السماع الحقيقى إذا حل مكانا من قلب متحقق زينه بأنواع الكرامات، وحقيقة مصاحبة السماع منه أن يغلب وقته أوقات الحاضرين، ويقهرهم فهم تحت قهره وأسره.

ومن أصولهم أن الفقر سر الله عند عبده إذ العبد أمين عليه فإذا

ظهر فقره أو أشياء منه فقد خرج من الأمناء، والفقير[١] عندهم فقير ما لم يعلم بفقره أحد، إلا من يكون افتقاره إليه فإذا علم به غيره فقد خرج من حد الفقراء إلى حد الحاجة. والمحتاجون كثير، والفقر عزيز، وأصلهم فى ذلك ما سمعت محمد بن أحمد بن إبراهيم يقول: سمعت طلحة السلمى يقول كان شاه الكرمانى يقول: الفقر سر الله عند العبد فإذا كتمه كان أمينا، وإذا أظهره سقط عنه اسم الفقر والأمانة.

ومن أصولهم ترك تعيير الناس، والكون مع الناس على ظاهر ما هم عليه، والاجتهاد فى اصلاح السر. وأصلهم فى ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم.

ومن أصولهم. ترك الاشتغال بعيوب الناس شغلا بما يلزمهم من عيوب أنفسهم، ومحاذرة شرها. وأصلهم فى ذلك قول الله عز وجل «إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى»[٢] قيل فى تفسيره إلا من ذللها الله لصاحبها، وأظهره عليهـــا بدوام مخـــالفتها وقودها من

---

(١) يروى الصوفية أن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فابى أن يقبلها. وقال تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم. ويروون أن فقيرا قام فى مجلس يطلب شيئا، وقال إنى جائع منذ ثلاث، وكان هناك بعض المشايخ فصاح عليه وقال كذبت. إن الفقر سر الله وهو لا يضع سره عند من يحمله إلى من يريد، وروى عن حمدون القصار أنه قال: إذا اجتمع أبليس وجنوده لم يفرحوا بشئ كفرحهم بثلاثة أشياء رجل مؤمن قتل مؤمنا، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر. وقال الجُنيد: يا معشر الفقراء: أنكم تعرفون بالله تعالى، وتكرمون لله تعالى. فانظروا كيف تكونون مع الله تعالى إذا خلوتم به. انظر: القشيرية ٢١١.

(٢) يوسف : ٥٣.

طريق المخالفة إلى طريق الموافقة(١) له وما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

ومن أصولهم أن المعطى يجب عليه ألا يرى عطاءه شيئا لأنه يعطى ما لله لأهل الله ويوصل الحقوق إلى مستحقيها فإذا أعطى حق الفقير كيف يعظم ذلك عنده؟ وليس فيه شئ. وأصلهم فى ذلك حديث أبى موسى الأشعرى حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم مع الأشعريين فطلبوا منه أن يحملهم فحلف ألا يحملهم ثم لبث يسيرا فحملهم. فقالوا نسى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه فأتوه، فقالوا حلفت ألا تحملنا فحملتنا. فقال: ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم وقال عليه السلام إنما أنا قاسم والله المعطى، فإذا عرف العبد حقيقة ذلك سقطت عنه رؤية بذله.

ومن أصولهم. أن أقل العبيد معرفة بربه عبد ظن أن فعله أو طاعته تستجلب العطاء، وأن طاعته تقبل فضله، ولا يصح للعبد

---

(١) اختلف الحكماء حول حقيقة النفس الأمارة بالسوء فمنهم من ذهب إلى أن النفس الإنسانية شئ واحد ولها صفات كثيرة فإذا مالت إلى العالم الالهى كانت نفسا مطمئنة وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء، وكونها أمارة بالسوء أكثر من كونها مطمئنة لأن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات، والتذت بها وعشقتها فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه فذلك لم يحصل إلا نادرا للواحد بعد الواحد.. فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسدانى وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادرا لا جرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء.

ومن الفلاسفة من زعم أن النفس المطمئنة هى النفس العقلية النطقية وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية. انظر تفسير الرازى ٢٠٥/٥.

عندهم شيء من مقام المعرفة(١) حتى يعلم أن كل ما يرد عليه من ربه من جميع الوجوه فضل من غير استحقاق، وأصلهم فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم: لا يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى برحمته.

ومن أصولهم أنهم كرهوا أن يخدموا أو يقصدوا أو يعظموا وقالوا: ما للعبد وهذه المقامات إنما هى للأحرار، وأصلهم فى ذلك ما سمعت من محمد بن أحمد الفراء. يقول: سمعت عبد الله بن أحمد ابن منازل يقول سمعت حمدون وقد سئل من العبيد؟ قال: الذى يعبد ولا يحب أن يعبد، وقال أبو حفص لا تكن عبادتك لربك سببا لأن تكون ربا يستعبد عبيده.

ومن أصولهم فى الفراسة أن الإنسان يجب عليه أن يتقى فراسة المؤمنين فيه، ولا يدعى لنفسه فراسة وهذا قول أبى حفص رضى الله عنه.

---

(١) روى الصوفية بسندهم عن عائشة رضى الله عنها عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه قال: إن دعامة البيت أساسه، ودعامة الدين المعرفة بالله تعالى، واليقين والعقل القامع: فقالت بأبى أنت وأمى ما العقل القامع؟ قال الكف عن معاصى الله والحرص على طاعة الله عز وجل. وعند الصوفية. المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ثم تنفى عنه اخلاقه الردينة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه فحظى الله تعالى بجميل اقباله، وصدق الله تعالى فى جميع احواله، وانقطع عنه هواجس نفسه.. فإذا صار من الخلق اجنبيا، ومن آفات نفسه بريا، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته وحق فى كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى ذلك عارفا، وتسمى حاله معرفة، وفى الجملة بمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل. انظر (القشيرية ٢٤١، ٢٤٢).

ومن أصولهم ما سمعت محمد بن أحمد الفرا يقول سمعت عبد الله بن منازل يقول سمعت أبا صالح يقول: المؤمن يجب عليه أن يكون بالليل سراجا لاخوانه، وبالنهار عصابهم(١) فسألت محمدا عن تفسير هذه الحكاية ومعناها فقال: يكون راعيا لهم بالخير بالليل وقائما بأشغالهم بالنهار.

ومن أصولهم ما حكى أبو عثمان عن أستاذه أبى حفص أنه قال من كثر علمه قل عمله، ومن قل علمه كثر عمله. قال أبو عثمان فرجعت إلى أبى حفص فسألته عن معنى كلامه هذا فقال: من كثر علمه استقل كثير عمله لعلمه بتقصير فيه، ومن قل علمه استكثر قليل عمله لقلة الغيب والتقصير فيه.

ومن أصولهم أن سماع الأذن يجب ألا يغلب مشاهدة البصر ومعناه ألا يغلب سماع ما يسمعه فى الثناء بالظن بما يتحققه من آفات نفسه ويشاهده وأول هذا الفضل لأبى حفص رضى الله عنه وأصلهم فى ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: ليس الخبر كالمعاينة وقول عمر رضى الله عنه: المغرور من غررتموه.

ومن أصولهم ترك الكلام فى دقائق العلوم والاشارات وقلة الخوض فى ذلك والرجوع إلى حد الأمر والنهى وأصلهم فى ذلك ما سمعت عبد الله بن على يقول سمعت إسحاق بن إبراهيم بن شيبان يقول كتب محمد بن القاسم الحلوانى إلى أبى كتابا أكثر فيه الاشارات فكتب إليه أبى: بسم الله الرحمن الرحيم. من العبد إبراهيم بن شيبان. يا أخى إن اتبعت الأمر والنهى فأنت بخير. وسمعت جدى يقول سمعت أبا عياض يقول: إذا نزع من باطن الإنسان الخير أطلق لسانه بالدعاوى العظيمة ودقائق العلوم.

---

(١) كذا... ولعل المقصود عصا لهم أو عصيا لهم.

ومن أصولهم فى التوكل(١) ما سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت عمى البسطامى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبا يزيد يقول حسبك من التوكل ألا ترى ناظرا غيره، ولا لرزقك جالبا غيره ولا لعملك شاهدا غيره.

ومن أصولهم كتمان الآيات والكرامات(٢) والنظر إليها بعين الاستدراج والبعد عن سبيل الحق كذلك سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول سمعت أبا عمرو الدمشقى يقول كما فرض الله تعالى على

---

(١) التوكل من صفات المؤمن الحق كما جاء فى قوله تعالى: «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم اياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقا» (الأنفال ٢،٣) والتوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب. وقال التسترى : التوكل حال النبى صلى الله عليه وسلم والكسب سنته فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته وقيل التوكل أن يستوى عندك الاكثار والتقلل. ويروى أنه جاء رجل إلى الشبلى يشكو إليه كثرة العيال فقال: ارجع إلى بيتك فمن ليس رزقه على الله فاطرده عنك. والتوكل: الثقة بما فى يد الله تعالى واليأس عما فى أيدى الناس. والتوكل غير التواكل لأن التواكل مذموم ومنهى عنه.

(٢) يعارض بعضهم فى اثبات الكرامات للأولياء ولكن الصحيح أثباتها لحديث القرآن عن بعضها ولتواتر وقوعها. ويرى أكابر الصوفية أن أعظم كرامات الولى موافقته للكتاب والسنة ومتابعته لهما، والفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة مبناها على التحدى والإشهار أما الكرامة فليس فيها تحد ومبناها على الإخفاء كما أن المعجزة ضرورية للنبى أما الكرامة فغير ضرورية للولى.

واختلفوا هل كل ما كان معجزة لنبى يمكن أن يكون كرامة لولى. فمنهم من ذهب إلى ذلك ومنهم من جعل كرامات الأولياء دون معجزات الأنبياء وغاية كرامة الولى موافاة ماء فى صحراء لا ماء فيها أو تكثير طعام أو ما إلى ذلك ولا تبلغ كرامة الولى إحياء الموتى ولا شق القمر.

الأنبياء إظهار الكرامات والمعجزات كذلك فرض على الأولياء كتمان كراماتهم لئلا يغتر بها الناس.

ومن أصولهم ترك البكاء عند السماع والعلم وغير ذلك وملازمة الكمد فإنه أحمد للبدن وأصلهم فى ذلك ما سمعت أبا بكر بن عبد الله يقول إن أبا بكر بن عبد العزيز المكى قال لرجل بكاء فى مجلسه: يا أخى تلذذك بالبكاء ثمن البكاء، وأطلق أبو حفص لأصحابه من البكاء(١) بكاء الأسف. وقال: هو محمود، وخالفه عثمان فى ذلك. وقال: بكاء الأسف يذهب بالأسف، ومداومة الأسف أحمد عاقبة من التسلى عنه بالبكاء إلا أن يكون البكاء بكاء ذوبان الروح فتكون الدمعة من ذلك البكاء تهد البدن وتفنيه، وأنشدوا فى معناه:

وليس الذى يجرى من العين ماؤها ولكنها روحى تذوب فتقـــطر

ومن أصولهم أنهم قالوا: يجب أن يكون الواعظ منك بيتك يوم موتك لا أن تظهر الفقر طول حياتك فإذا مت كان بيتك كأحد بيوت من سلف من ارباب الفقر. وقالوا يجب على الفقير أن يكون مظهرا للغنى والاستغناء أيام حياته فإذا مات ظهر فقره ببيته بعد موته. فيكون بيته راحة للماضين وموعظة للباقين وأصلهم فى ذلك ما قال أبو حفص لعبد الله الحجام إن كنت فتى فإن يوم موتك(٢) يكون بيتك موعظة للفتيان.

---

(١) البكاء عن خشية وخضوع ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم. لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا. وامتدح الله رهبان النصارى بأن أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. وكان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كلما قرئ القرآن إذا تليت عليهم آية ثواب استبشروا وإذا سمعوا آية عذاب بكوا وورد إذا لم تبكوا فتباكوا.

(٢) مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى.

ومن أصولهم ترك الرجوع إلى أحد من المخلوقين(١) والاستعانة بهم لعلمهم أن من استعان بمخلوق فقد استعان بمحتاج مضطر مثله ولعله أشد حاجة واضطرارا منه وهو لا يشعر، وأصلهم فى ذلك ما سمعت منصور بن عبد الله يقول، سمعت أبا على الثقفى يقول سمعت حمدون القصار يقول استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون(٢).

ومن أصولهم أنهم إذا رأوا لأنفسهم اجابة دعوة حزنوا واستوحشوا وقالوا: هذا مكر واستدراج، كما حكى الدقى عن أبى نصر الرافعى عن أبى عثمان النيسابورى قال خرجنا مع أبى حفص إلى بعض الجبال فقعد يكلمنا فبينما هو كذلك إذ جاءه ظبى فبرك بين يديه فبكى أبو بكر وتغير عليه وقته فقلنا له ما بالك؟ فقال وقع فى قلبى أنه لو كان لنا شاة لاجتمعنا عليها فما استحكم هذا الخاطر من قلبى حتى جاء هذا الظبى فبرك بين يدى فما يؤمننى أن أكون كفرعون أجيب لما سال وهو ممن ختم الله له بالشقاوة.

ومن أصولهم قبول الرزق إن كان فيه ذل(٣)، ورده إن كان فيه شره طبع أو عزة نفس سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول: سمعت الحسن بن الدمشقى يقول وجه عصام البلخى إلى أبى حاتم شيئا فقبله منه فقيل له لم قبلته فقال وجدت فى أخذه ذلا لى وعزا له وفيرده عزا لى وذلا له فاخترت عزه على عزى وذلى على ذله.

---

(١) يقصد فى حاجة من حوائج الدنيا أما فى علم أو فقه أو حاجة من أمور الدين فلا بأس.

(٢) لأن كليهما محدود القدرة والحركة.

(٣) الذل يتحدث عنه الملامتية هنا ليس استحسانا واستعذابا له بقدر ما هو تأديب للنفس وتهذيب لها.

ومن أصولهم فى الصحبة ما سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الرازى يقول سمعت أبا عثمان سعيد بن إسماعيل يقول لما سئل عن الصحبة: حسن الصحبة ظاهره أن توسع على أخيك من مال نفسك ولا تطمع فى ماله، وتنصفه ولا تطلب منه الأنصاف، وتكون تبعا له ولا تطلب أن يكون تبعا لك وتتحمل منه الجفوة ولا تجفوه، وتستكثر قليل بره وتستقل ما يتصل منك إليه من ذلك.

ومن أصولهم ما سمعت شيخ الطريقة محمد بن أحمد الفراء يقول سألنى الأحدب غلام القناد. ما أهل الملامة وما كلامهم؟ فقلت ليس لهم مرسوم علم ولا مكتوب كتب. ولكن كان لهم شيخ يقال له حمدون القصار. قال الملامتى: لا يكون له من باطنه دعوى ولا من ظاهره تصنع ولا مراءاة وسره الذى بينه وبين الله تعالى لا يطلع عليه غيره فكيف الخلق قال محمد الفرا: بلغنى أنه حكى الحاجب للشيخ أبى الحسن الحصرى ببغداد فقال له: لو جاز أن يكون فى هذا الزمان نبى لكان منهم.

قال أبو عبد الرحمن رحمه الله بينت فى هذه الفصو' التى تقدم ذكرها من منشور كلام مشايخهم وأئمتهم وظاهر أحوالهم ما نسأل الله تعالى ألا يحرمنا بركاته. وفى ذلك ما يستدل به من وفقه الله تعالى لفهمه على ما وراء ذلك من أحوالهم وعبادتهم. ونحن نرغب إلى الله عز وجل أن يوفقنا لمرضاته ويعيننا على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة بفضله ورحمته.

فصل

فى غلطات الصوفية رضى الله عنهم

قال المؤلف أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه الشطح(١) للخرسانين(٢) لأنهم يتكلمون عن أحوالهم وعن الحقائق، وأهل العراق يصفون أحوال غيرهم وليس الواصف بشاطح، والغلط الذى وقع للقوم وذلك لبلوغهم إلى محل من العلم والحال ودرجة سقطوا عنها بالتفاتة كما قال: أبو على الروذبادى رحمه الله بلغنا فى هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف فإن قلنا كذا ففى النار، وإن قلنا كذا ففى النار وذلك لدقة المقام ودقة الحال، وإنما بنى هذا الأمر وأسس على

---

(١) تناول كثير من الصوفية موضوع غلطات الصوفية وشطحاتهم وعلى رأس هؤلاء الطوسى فى لمعه، وما أثبته السلمى هنا معظمه مأخوذ مما جاء فى اللمع للطوسى. وقد تجاوز السلمى فى نقله من الطوسى أخذ المعنى إلى أخذ اللفظ والعبارة وسنشير إلى ذلك فى موضعه.

(٢) ظهرت حركة التصوف فى خراسان على يد إبراهيم بن أدهم العجلى ١٦٠هـ ثم تولاها تلاميذه من بعده ومن أهمهم شقيق البلخى ١٩٤هـ وتتميز حركة التصوف فى خراسان ببعض المعانى كالمراقبة التى أخذت معنى أدق من مجرد التأمل أو التفكير فى النفس والكمد الذى أحله ابن أدهم محل الحزن، والخلة التى أصبح معناها رضا الله الدائم عن العبد. وتوغلوا في التوكل الذى ترتب عليه القول بترك الكسب لأن كل المكاسب مسممة. كما تتميز مدرسة خراسان ونيسابور بلوم النفس وظهور الملامة (انظر الملامتية ٢٢ تحقيق د. أبو العلا عفيفى) وكانت بلخ من دون مدن خراسان بلد العباد الأول. خرج منها الرواد الأوائل للتصوف، وكان عطاء بن مسلم الخراسانى ١٣٥ أول من أعطى للخرسانيين فكرة قيام الليل. كان يحيى الليل كله صلاة فإذا ذهب من الليل ثلثه نادى وهو فى فسطاطه قوموا فتوضئوا وصلوا فإن قيام هذا الليل وصيام هذا النهار أيسر من شرب الصديد ومقطعات الحديد. الوحا الوحا. النجا النجا. (انظر نشأة الفكر الإسلامى ٥٤٢/٢ د. النشار).

ثلاثة أشياء أولها اجتناب المحارم، والثانى أداء الفرائض والثالث ترك الدنيا لأهلها. والغلط وقع فى ثلاثة أوجه:

طبقة غلطت فى الأصول(١) لقلة أحكامهم أصول الشرع وضعف فهمهم وإخلاصهم كما قال الجنيد رحمة الله عليه إنما منعوا من الوصول لتضييع الأصول.

وطبقة غلطت فى الفروع من الآداب والأخلاق والمقامات وذلك لقلة معرفتهم بالأصول واتباعهم حظوظ النفس والدنيا ولم يتأدبوا بمن يروضهم ويجرعهم المرارات ويدلهم على المنـاهج(٢) ويعرفهـم

---

(١) أصول الدين هى الأسس التى يقوم عليها من حيث العقيدة والعبادة والمعاملة والحدود، ويقوم كل أساس من هذه الأسس على خمسة أركان فتكون جملة أركان الدين عشرين ركنا. خمس من حيث العقيدة هى الإيمان بالله وبالرسل وبالكتب وبالملائكة وباليوم الآخر، وخمس من حيث العبادة هى الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، وخمس من حيث المعاملة هى المعلومات كالبيع والاجارة، والمناكحات كالتزوج والطلاق والمخاصمات كالدعاوى والبينات والأمانات كالودائع والعوارى والتركات كالوصايا والمواريث، وخمس من حيث الحدود وهى حد قتل النفس كالقود والدية وحد أخذ المال كالقطع والصلب وحد هتك الستر كالجلد والرجم وحد ثلب العرض كالجلد مع الت[illegible] وحد خلع البيضة كالقتل عند الردة. وإنكار أركان العقيدة والعبادة يؤدى إلى الكفر أما إنكار أركان المعاملات والحدود فلا يؤدى إلى الكفر فى أصح الآراء.

(١) وهو الشيخ الذى يشترطه الصوفية فى سلوك الطريق فالمريد يحتاج إلى شيخ حاجة قد تطول مدتها وقد تقصر حسب استعداد المريدين. ويحددها الهجويرى بثلاث سنوات يستمر فيها خضوع المريد لشيخه وتلقيه العلم عنه وقبوله الإرشاد منه وكل سنة من هذه السنوات الثلاث إنما هى بمثابة المرحلة التى تخصص بضرب من ضروب الخدمة بحيث لا ينتقل المريد من هذه المرحلة إلى المرحلة التى تليها إلا بعد أن يكون قد استوعب كل ما يطالبه الشيخ باستيعابه من المعارف وما يأمره بالخضوع له من المبادئ فى المرحلة السابقة. ويقول الصوفية فى ضرورة الشيخ للمريد أن من لا شيخ له فشيخه الشيطان.

النفس وعيوبها فتسقط عنهم حظوظها فمثل هؤلاء مثل من يدخل بيتا مظلما بغير سراج يريد أن يطلب فيه شيئا فمشى يجد ما يطلب ويفسد فى تلك الظلمة أكثر مما يصلح.

وطبقة غلطهم زلة أو هفوة فإذا تبين لهم ذلك عادوا إلى سبيل الرشد ومكارم الأخلاق ومعالى الأحوال وقبلوا النصح وتركوا العناد وأذعنوا للحق فلا ينقص بتلك الهفوة من مراتبهم شئ.

وطبقة غلطت فى ألفاظ الفقر والغنى فقوم فضلوا(١) الغنى على الفقر وإنما أشاروا بذلك إلى الغنى بالله عز وجل لأن الغنى به أجل من الافتقار إليه، ولم يشيروا بقولهم الغنى إلى الغنى بأعراض الدنيا.

وطائفة أخرى توهمت أن هؤلاء إنما فضلوا الاستغناء بهذه الأعراض الدنيوية ويجعلون لها تأويلات ورووا فيها روايات واحتجوا فى ذلك تحجيجات وهذا بعيد من مراد القوم.

وطبقة تكلموا فى الافتقار إلى الله وحقيقته فتوهمت طائفة أخرى وقالوا إنما يفضلون هؤلاء قله الشئ وشدة الحاجة والصبر على الضرر. وقالت طائفة أخرى من أهل الدعاوى أن الفقير المحتاج الذى يعدم الصبر والرضا لا فضيلة له ولا ثواب على فقره وغلطوا فى ذلك ولم يعلموا أن للفقير المضطر المحتاج المعدوم للصبر والرضى درجة على الغنى الذى يكون غناه بالدنيا. وزعمت طائفة أن الفقروالغنى حالان لايجب للعبد أن يسكن إليهما بل يعبرهما ولايقف

---

(١) سئل الجنيد عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى فقال إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل فقد صح الاستغناء بالله تعالى وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به فلا يقال أيهما أتم الافتقار أم الغنى لأنهما حالتان لا تتم أحداهما إلا بالأخرى ، انظر القشيرية ٢١١.

معهما وهذا لا يكون إلا عند أهل الحقائق(١) وتوهم قوم أن هذه مساواة بين الفقر والغنى(٢) وليس كذلك، وإنما المحقق فى الأحوال يستوى عنده الأضداد فى حاله وليستا بمستويتين فى أصولهما بل حاله يجعلهما عنده شيئا واحدا(٣).

وطبقة توهمت أن المراد بالفقر العدم وقلة الشئ فقط فاشتغلوا بذلك ولم يطلبوا حقائق الفقر وخفى عليهم أن رؤية الفقر فى الفقر حجاب الفقير عن حقيقة الفقر، وليس فى الفقر حالة أقل من العدم وقلة الشئ لأن ذلك يشركه فيه المعدمون والسؤال، وليسوا بمحمودين فى ذلك ولا رتبة لهم فى الفقر الحقيقى.

وطبقة غلطت فى التوسع فى الدنيا وترك التوسع فيها. والتكثر فيها لا يكون إلا لنبى أو صديق(٤) لأنه يعرف الإذن: ينفق إذا أذن له فى الإنفاق ويمسك إذا أذن له فى الإمساك، ولا يعرف ذلك إلا نبى أو ارباب النهاية من الأولياء وعلامتهم أنهم لا يسكنون إلى ما فى أيديهم ولا هم يطلبون الزيادة عليه ويكون القليل والكثير عندهم واحداً ولا يستلذ أحدهم بالعطاء ولا بالإمساك ويعرف وجوه الحقوق فيها فيضعها بأمر ويمسكها بأمر.

---

(١) انظر اللمع للطوسى ٥٢١ فالكلام يكاد يكون منقولا بنصه.

(٢) روى أن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها. وقال تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم.

(٣) النص كما هو موجود فى اللمع: فظنت طائفة أن الذى قال ذلك قد ساوى بين الفقر والغنى. وقالوا: لا فرق بين الفقر والغنى فى معنى الحال فيقال لهم: قد رأيناكم كارهين الفقر ، وما رأيناكم كارهين للغنى فإن كانا حالين مستويين فأين إستواؤهم فى المساكنة إليهما والإحتراز منهما والمعاذقة لهما: فقد تبين غلطهم فى ذلك. اللمع ٥٢١.

(٤) لأنهم يكونون فى الأشياء لغيرهم ويقومون فى الأسباب بحقوقها لا بحظوظها.

وطبقة غلطوا فى التقشف والتقليل وظنوا أن الرفق بالنفس وتناول المباح واسترواح النفس بحال يسقط العبد عن درجته وذلك غلط لأن العلة فى ذلك كالعلة فى التوسع والترفه سواء. وليس للعبد أن يعمل ذلك إلا فى وقت إبتداء أو رياضة أو شدة مجاهدة أو عند سوء أدب يظهر من النفس ثم إذا شاء ثبت على ذلك وإن استحلى ملاحظة الخلق له ترك ذلك وعمل فى الانقلاع عنه والرجوع إلى طريق المساواة مع الخلق فى المطعم والملبس.

وطبقة من المتقدمة عملوا فى الكسب وأمروا به وأنكروا على من لم يكتسب وقد غلطوا لأن الكسب رخصة وإباحة لمن لم يطلق حال التوكل(١) فإن التوكل حال النبى صلى الله عليه وسلم والكسب سنته فمن لم يطلق حاله رد إلى سنته. والمؤمنون كلهم مأمورون بالتوكل قال الله تعالى: « وعلى الله فتوكلوا أن كنتم مؤمنين ». والتوكل هو الثقة بما وعد الله فمن خرج عن هذه الدرجة رد إلى حال السنة من الكسب وللكسب شرائط منه: ألا يشغل عن أداء الفرائض فى أوقاتها ومنها ألا يعتمد على كسبه ومنها أن يتعلم من العلم ما لا يتناول معه حراماً وألا يأخذ من كسبه شيئاً بالرخص والتأويلات، وأن يعين إخوانه العاجزين عن الكسب ويتفقدهم من كسبه فهذه بعض شرائط الكسب.

وطبقة من المريدين غلطوا فى حال الفترة وذلك أنهم لما سمعوا مجاهدة من كان قبلهم من المشايخ الأبرار والسادة المتقدمين لما سماهم الله بذلك ورفع قدرهم عند خلقه اجتهدوا وعملوا فى

---

(١) التوكل لاينافى الكسب والرسول صلى الله عليه وسلم وأن كان حاله التوكل كما يتولون فإنه كان يعمل ويكسب ويحث على العمل. كان يعمل قبل البعثة فى الرعى والتجارة وبعدها بتدبير شئون المسلمين. وروى عنه أنه ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده.

الاجتهاد مدة فلما طال بهم الأمر طمعت نفوسهم فى الكرامات فلم يجدوها فلما رأوا ذلك كسلوا عن مجاهداتهم فسموا ذلك الكسل فترة فكانت فترتهم رجوعا عن المجاهدة لأن الفترة تكون استرواحا لقلوب المجتهدين وأبدانهم وقتا دون وقت ثم يعودون إلى حال الاجتهاد كما حكى عن أبى على الروزبارى أنه قال النهاية كالبداية والبداية كالنهاية فمن ترك فى نهايته شينا مما كان يفعل فى بدايته فهو مخدوع.

وطبقة غلطوا فى سياحتهم(١) وأسفارهم فجعلوا أسفارهم لأنفسهم وللقاء المشايخ تكبرا على أبناء جنسهم ممن لم يسافروا سفرهم وهذا غلط. ما لهذا سافر القوم وإنما سافروا لتستبين لهم أخلاقهم فيعلمون ما لا يصلح فى درجاتهم فيبدلونه وليلقوا المشايخ ومن كان قصده فى لقاء المشايخ أن يأخذ منهم كلامهم فيروج به على العامة فهو متعن فى سفره وقصده الافتخار بأنه راى فلانا أو فلانا فهو راو مراء، ومن كان قصده التأدب بهم والأخذ عنهم والانتمار بأمرهم واعتقاد الحرمة لهم فأولئك هم المسافرون(٢)

---

(١) الزهاد فى خرسان -موطن الملامتية- أكثر اهتماما بالسياحة من سائر الصوفية فى أى بلد اسلامى آخر. ويحاول بعض المستشرقين ارجاع تلك الفكرة إلى أصول أجنبية من أهمها السياحة الهندية. ومما ينبغى أن نشير إليه هنا أن القرآن الكريم ذكر كلمة السياحة فى قوله تعالى: «التائبين والعابدين والسائحين والركع السجود». وأول السائحين فى الإسلام لم يكونوا زهادا بل كانوا محدثين جمعا للحديث وتحريا لصحة روايته.

(٢) سئل رويم عن أدب المسافر فى سفره إذا أراد أن يسافر. فقال: لا يجاوز همه قدمه، وحيث ما وقف قلبه يكون منزله، وقالوا يحتاج المسافر فى سفره إلى أربعة أشياء وإلا فلا يسافر : علم يسوسه وورع يحجزه، ووجد يحمله،وخلق يصونه،وقيل إنما سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجل.

الظافرون، ومن طلبت منه نفسه إقبال شيخ عليه أو كرامة له فإن سفره كسفر من انتقل من العلم إلى الجهل ولا ينتفع بذلك أبدا(١).

وطبقة غلطوا فى الإنفاق(٢) وتوهموا أن المراد من الإنفاق هو البذل والخلق والسخاء وليس مراد القوم ذلك ولكنهم رأوا أن التعلق بالأسباب قطع عن المسبب.

وطبقة غلطوا فى المباحات، ولم يتكلفوا مراعاة الأوقات وقالوا ليس لنا معلوم. أى شئ وجدنا أكلنا وقتنا، وذلك غلط لأن الوقت إذا فات ليس يدرك. وليس الوقت الذى يكون معمورا بالإرفاق. إنما الوقت ما يكون معمورا بالذكر والإخلاص والرضا وعمارة الوقت بالإرفاق وما لا تهوى الأنفس من نزغات الشيطان، وعمارته بالذكر من مراد الرحمن.

وطبقة غلطوا فى ترك الطعام والعزلة(٣) وتوهموا أن النفس إذا كسـرت بترك الطعام انكسرت وذلت ويؤمن شرها، وذلك غلط إنما

---

(١) يقول صاحب اللمع: ليس من آدابهم أن يسافروا للدوران والنظر إلى البلدان وطلب الأرزاق ولكن إلى الحج والجهاد ولقاء الشيوخ وصلة الرحم ورد المظالم وطلب لعلم... اللمع ٥٥١.

(٢) يقول صاحب اللمع: إن الله تعالى جده لم يفرض عليهم الزكاة لأنه سبحانه قد زوى عنهم من أموال الدنيا مايجب عليهم فيه الزكاةوالصدقة.قال الشاعر:

وما وجبت على زكاة مـال ... وهـل تجب الزكاة علـى كريـم

وسئل الشبلى كم فى خمس من الابل قال شاة فى واجب الأمر وفيها يلزمنا نحن كلها وأمامنا فى ذلك أبو بكر حيث خرج من ماله كله قائلا خلفت لعيالى الله ورسوله.

(٣) حكى عن أبى القاسم الجنيد أنه قال تنزل الرحمة على الفقراء يعنى الصوفية فى ثلاثة مواطن عند أكلهم الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند طلب العلم فإنهم لا يتكلمون إلا فى أحوال الصديقين والأولياء، وعند السماع فإنهم لا يسمعون إلا من حق. اللمع ٢٤٢.

يؤخذ طريق تذليل النفس وكسرها من المشايخ والأستاذين حتى لا يكون على صاحبها مما يريده من الخير شر. فإن الشر إذا تولد من طريق الخير لا يمكن تداركه، والإنسان إذا ترك الطعام أياما أداه ذلك إلى خلل يقع فى الفرائض، وتقصير يقع فى فريضة أضر على المريد من تمادى النفس فى كل وقت، ويجب على العبد ألا يأكل من الطعام ما يقويه على طلب الشهوات ولا يتركه حتى يضعف عن الفرائض بل يستعمل السنة فى ذلك وهى ما قال النبى صلى الله عليه وسلم ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس.

والثلث الذى هو للنفس هو لأنفاس العبادة والفهم عن الله سبحانه والرجوع إليه.

وطبقة غلطت فى العزلة وتوهمت أن العزلة والسكن فى الكهوف والانفراد فى الجبال والفلوات يؤمنهم من شرور أنفسهم ويوصلهم الانفراد والخلوة إلى ما وصل إليه الاولياء وغلطوا فى ذلك لأن المشايخ دعاهم إلى العزلة والانفراد داعى العلم وقوة الحال. وذلك جذب من الحق سبحانه جذبهم إليه فأغناهم به عن كل من [illegible]اه فمن لم يكن مصحوبه قوة الحال وغلبة الوارد ثم تكلف الانفراد والعزلة فقد ظلم نفسه(١) وأدخل بذلك على نفسه ضررا عظيما وأصله حال النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا دنا منه أوان الوحى يذهب إلى حراء فيخلو فيه الأيام ذوات العدد وذلك من غلبة الوارد عليه من الوحى لما دنا وقته.

وطائفة غلطوا فى أنهم [illegible]وا على وجوههم فى البرارى

---

(١) حكى ابو يعقوب السوسى أنه قال: الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء من الرجال ولأمثالنا الاجتماع أنفع يعلمون بعضهم برؤية بعض.

والجبال بلا زاد ولا ماء ولا آلة للطريق وتوهموا أنهم يصلون بذلك إلى منازل الصادقين فى حقيقة التوكل، وغلطوا لأن القوم الذين عملوا هذا كانت لهم بدايات ورياضات(١).

وطائفة غلطوا فى لبس الصوف والمرقعات(٢) من غير ضرورة وأخذ الركاء والأباريق وتعلموا شيئا من اشارات القوم وعلومهم فظنوا أنهم إذا فعلوا ذلك كانوا منهم وليس التحلى والتشبه من الحقيقة بشئ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس الإيمان بالتمنى ولا لى وقال أيضا: المتشبه بما لم يعط كلابس ثوبى زور.

وطائفة أخرى أحرزوا قوتهم وجمعوه ثم عمدوا بعده إلى الصوم والصلاة وقيام الليل واستماع الورع ولبس الخشن وأكل الخشن وأكثروا البكاء والتضرع وظنوا أن ذلك هو المقصود من الأمر وليس

---

(١) قال رجل لحاتم الأصم من أين تأكل فقال ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يهتدون. وكان إبراهيم الخواص مجردا فى التوكل يدقق فيه وكان لا تفارقه ابرة وخيوط وركوة ومقراض فقيل له يا أبا إسحاق لم تحمل هذا وأنت تمتنع من كل شئ فقال مثل هذا لا ينقص التوكل لأن الله تعالى فرض علينا فرائض والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد فربما ينخرق ثوبه. فإن لم يكن معه ابرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه صلاته. وإذا لم يكن معه ركوة تفسد عليه طهارته. فإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا أبرة ولا خيوط فاتهمه فى كمال صلاته: القشيرية ١٢٢.

(٢) دخل جماعة على بشر بن الحارث وعليهم المرقعات فقال لهم بشر يا قوم اتقوا الله ولا تظلموا هذا الزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له فسكتوا كلهم فقام شاب من بينهم فقال الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له والله لنظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله. فقال له بشر أحسنت يا غلام. مثلك من يلبس المرقعة.

بعده شئ وغلطوا لأن بداية التصوف هو الخروج من المعلومات والأكل من الغيب والأخذ منه.

وطائفة توهمت أن التصوف هو القول والرقص وسماع(١) النغم والقصائد واتخاذ الدعوات والتكلف للاجتماعات لما رأوا من بعض الصادقين انبساطا فى السماع فى بعض الأوقات وغلطت فى ذلك ولم تعلم أن كل قلب تلوث بشئ من الدنيا، وكل نفس فيها شئ من البطالة والغفلة لا يصح لها السماع. بل لا يحل لها السماع والآخر أصح. قال الجنيد رضى الله عنه لبعض من سأله عن السماع إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فى نفسه بقية من البطالة.

وطائفة غلطت فى اسم الحرية والعبودية وتوهمت أن الحرية أجل من العبودية ولم يعلموا أن اسم الحرية إنما أطلقه من أطلقه بشيئين أحدهما أنه قال لا يكون العبد على الحقيقة عبدا حتى يكون عما سوى الله حرا وهذه طريقة صحيحة. ومنهم من أبقى الحرية وهجنها وقال: إن الحر إذا عمل عمل لطلب جزاء وعوض ولا تخلو معاملة الأحرار عن طلب الأعواض. والعبد ليس له طلب جزاء ولا عوض من سيده لكن إذا أعطاه أعطاه متفضلا وإن لم يعطه لـ تحق عليه شيئا. فغلطوا فى هذا القول.

---

(١) السماع فى حد ذاته لا شئ فيه فهو من قبيل التذكرة والموعظة الحسنة. أما ما يصاحبه من حركة رقص ووجد وما إلى ذلك فغير محمود سئل بعضهم عن الحركة عند السماع وتخريق الثياب فقال بلغنى أن موسى عليه السلام قص فى بنى إسرائيل فمزق واحد قميصه فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام: مزق لى قلبك ولا تمزق ثيابك، وقد حكى عن الجنيد إنه قال لايضر نقصان الوجد مع فضل العلم. وإنما يضر فضل الوجد مع نقصان العلم. ومعنى ذلك أن فضل العلم يوجب ضبط الجوارح عن الحركات عند السماع. يقول صاحب اللمع: وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه لهو وإن تلفت نفسه فيه وذهب روحه ٢٤٧.

وطائفة توهمت أن العبد بينه وبين الله بعد باسمه عبدا فإذا صار حــرا وسقطت عنه العبودية قرب منه. وهذا غلط كبير فإن اسم العبودية أتم لأن الله تعالى سمى أولياءه عباده (١). وسمى ملائكته عباده(٢)، وسمى أنبياءه عباده(٣). وقدم النبى صلى الله عليه وسلم العبودية على النبوة فى التشهد فقال: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ولا مقام أبلغ من مقام النبى صلى الله عليه وسلم . وكان يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له فى ذلك فقال: أولا أكون عبدا شكورا.

وطبقة غلطوا فى الإخلاص(٤) فظنوا أنه قلة المبالاة، وأن يخرج العبد عن رؤية الخلق ولا يوافقهم فى جميع ما يريد أن يعمله حقا كان أو باطلا وإنما وقعوا فى هذا لأن طائفة من مشايخ القوم سئلوا عن الإخلاص فقالوا لا يصفو لأحد الإخلاص حتى لا يبقى عليه شئ من رؤية الخلق والكون فغلطت هذه الفرقة. وتوهمت أن ذلك يصح بالدعاوى وترك الأدب والتقليد فتركوا الأدب وتجاوزوا الحد وغلبتهم النفوس والهوى ولم يعلموا أن العبد المطلوب بالإخلاص هو المهذب المؤدب الذى اجتنب السيئات وأقبل على الطاعات ونازل الأحوال والمقامات حتى أداه ذلك إلى صفاء الإخلاص فأما من ضيع البدايات كيف يصل إلى حقائق الرعايات؟

---

(١) فى قوله تعالى: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» الفرقان ٦٣.

(٢) فى قوله تعالى: «عباد مكرمون» الأنبياء ٢٦.

(٣) فى قوله تعالى: «واذكر عبادنا» ص ٤٥.

(٤) الإخلاص أفراد الحق سبحانه فى الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب الى الله سبحانه دون شئ آخر من تصنع مخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى. وقيل الإخلاص تصفية القلب عن ملاحظة المخلوقين. وقيل الإخلاص التوقى عن ملاحظة الأشخاص وقال الجنيد الإخلاص سر بين الله والعبد لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله (القشيرية ١٦٢).

وطبقة غلطت فى النبوة والولاية(١) وزعمت أن الولاية أعلى وأتم من النبوة وذلك لأنهم نظروا إلى قصد موسى للخضر صلوات الله عليهما فى قوله تعالى فوجدا عبدا من عبادنا إلى قوله صبرا فتوهمت هذه الطائفـــة أن حال الولاية أفضـــل من حال النبـــوة(٢)

---

(١) حصر الصوفية الولاية والأولياء فى أنفسهم وفيمن يليهم ويسير على نهجهم وإن كان ليس للأولياء حقيقة شئ يتميزون به عن الناس لا فى نسب ولا فى مظهر ولا فى طريقة تند عن طريق الكتاب والسنة فلا يتميزون بلباس دون لباس كما نقل «كم من صديق فى قباء وكم من زنديق فى عباء» بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور فيوجدون فى أهل القرآن والعلم وفى أهل الجهاد بالسيف وفى التجار والصناع والزراع... الخ فهم بإيمانهم وأعمالهم موجودون فى أى مكان وفى أية طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

(٢) النبى عبد مصطفى موحى إليه أما الولى فهو عبد وفق للعمل بشريعة النبى. فالولى تابع والنبى متبوع. والنبى ذو طبيعة أنقى وأطهر حيث الاتصال بالسماء يقتضى ذلك والولى طبيعته عادية استطاع أن يظهرها ويزكيها بالعمل فى طاعة الله. والهبة فى النبوة أمر يكاد يجمع عليه الصوفية، أما الولاية فكسبية: «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس» الحج ٧٥ فكما يصطفى الله الأنبياء قولا بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق.

ومهما كانت الولاية كما يرى الصوفية أساس المراتب الروحية كلها فإن الولى يستمد ولايته من نور النبوة ومن اتباع شرع نبيه فالأنبياء أفضل من الأولياء لأن الولاية لا تنال إلا بإرث الأنبياء والسير على دربهم.

وينبغى هنا أن نسجل أن أى مسلم صوفى كان أو غير صوفى لم يصرح ولا يستطيع أن يصرح بأن الولى أفضل من النبى -هكذا مطلقا- لأن العقيدة التى تحملها مثل هذه العبارة تتنافى مع الد[illegible] نعم: قد يذهب البعض إلى القول بان الولاية أفضل من النبوة أو أن للولى خصائص ليست للنبى. ومثل هذه العبارات وإن كانت لا تليق إلا أنها أقل خطراً من سابقتها فالنبى أفضل من الولى فضل عليه بشرعه وتكليفه، وفضل عليه بأنه متبوع والولى تابع، وفضل عليه بأنه وصل إلى الله والولى ما زال على سفر إليه، لأن الانبياء وصلوا ثم

لرجوع موسى صلوات الله عليه إليه، و؛ ـعموا أن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء. خص الأنبياء بالمعجزات على الدوام ثم خص مريم بقوله: وهزى إليك بجذع النخلة.. الآية. ولم يكن هذا لأحد من الأنبياء ولم تكن نبية ولا هى أفضل من نبى، وآصف بن برخيا كان(١) عنده علم من الكتاب وأتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد

= عادوا برسالاتهم لدعوة الناس وتعليمهم والواصل إلى نهاية الطريق أفضل من السالك الذى لا يزال يسير ألا ترى أن المشاهدة أول درجات الأنبياء وهى آخر درجات الأولياء.

(١) تحدث الصوفية بافاضة عن علاقة الإلهام بالوحى وإنهما من جنس واحد لان كليهما من السماء. فكلاهما يأخذ من الله مباشرة أو من الملك الموكل بالوحى. غير أن الهام الأولياء تابع للوحى وليس ندا له لأنه لا يمنح للأولياء إلا بعد اتباعهم وحى الأنبياء وشرائعهم. وعندما يتحدث الصوفية عن علم الحقيقة فليس قصدهم بذلك مخالفة ما جاء به الشرع أو ما نزل به الوحى على الأنبياء وإنما مرادهم الفهم الجديد الذى فتح الله به عليهم فى بعض ما جاء به الشرع. وليس بعزيز على الصوفية بعد ذلك أن يروا مؤلفاتهم وكلامهم كله أو بعضه ما هو إلا وحى يوحى بهذا المعنى (معنى الفهم الجديد الذى فتح الله به عليهم).

ويفرق الصوفية عموما بين الأنبياء والأولياء فى الوحى والالهام بأن الأولياء يشاهدون تنزل الأرواح على قلوبهم لكن لا يرون الملك النازل بخلاف الأنبياء أو الرسل. فإن شاهد الولى الملك لا يشاهد القاءه عليه حال شهوده. وإن شاهد هذا الالقاء لايشاهد الملك. يعلم أنه من الملك من غير شهود له. فلا يجمع بين رؤية الملك والقاء منه إليه إلا نبى أو رسول وبهذا يفرق بين النبى والولى.

كما أن وحى الأنبياء لا يكون إلا على لسان جبريل يقظة ومشافهة وأما الهام الأولياء فيكون على لسان ملك الالهام.

وقد يفرق الصوفية بين الوحى والهام بأن تنزل الوحى على النبى يكون على قلبه وعلى صدره لكون نبوته مشهودة له، وأما تنزله على الأولياء فيكون بين جنبيهم من وراء حجبهم لأن نبوتهم مستورة عنهم.

أما الغزالى فيرى أن الفرق بين الوحى والالهام نزول الملك فإن الولى الملهم لا ينزل عليه ملك قط. والنبى يأتيه الوحى عن طريق نزول الملك به يقول: «ولم يفارق الوحى فى شئ من ذلك بل فى مشاهدة الملك» الأحياء ١٩/٢.

إليه طرفه ولم يكن هذا بنبى، ولا يدل على أنه أفضل من سليمان بهذا وقال النبى صلى الله عليه وسلم. أفرضكم زيد وأعلمكم بالحلال معاذ وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر. وهذه تخصيصات ولا تدل على الفضائل أجمع.

وذكروا أن الأنبياء يوحى إليهم بواسطة والأولياء يتلقون علمهم من الحق سبحانه وذلك غلط لأن الأنبياء عليهم السلام لهم رسالة بالواسطة والتلقف معا وأنها بعيدة من الاغترارات. والاغترارات وقعت فى أحوال الأولياء لا فى أحوال الأنبياء والولاية والصديقية إنما تمامها بأنوار النبوة، ولو ألقى على الخضر ذرة مما شاهد موسى من سماع وكلام أو رؤية النور لامتحق الخضر عليه السلام حتى لا يبقى منه شئ، وحجب علم الخضر عن موسى تهذيبا لا تعليما.

وطبقة غلطت فى الاباحة والحظر وزعمت أن الأشياء مباحة فى الأصل(١) ، وإنما وقع الحظر للتعدى فما لم يقع تعد فالأشيـــاء

---

(١) الأصل فى الأشياء الحل ومن هنا ضاقت دائرة المحرمات فى شريعة الإسلام وأتسعت دائرة الحلال لان النصوص الصريحة التى جاءت بالتحريم قليلة جدا. وما لم يجئ نص بحله أو حرمته فهو باق على أصل الاباحة وفى دائرة العفو الالهى. وفى هذا ورد الحديث «وما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فأن الله لم يكن لينسى شينا وتلا وما كان ربك نسيا -مريم٦٤- رواه الحاكم وعن سلمان الفارسى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفراء فقال: الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو ما عفا لكم (رواه الترمذى وابن ماجه) وقال النبى صلى الله عليه وسلم أن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها رواه الدار قطنى وحسنه النووى (الحلال والحرام ٢٠، ٢١ د. يوسف القرضاوى).

على أصلها واستدلت بقوله عز وجل «فأنبتنا فيها حبا وعنبا إلى قوله متاعا لكم ولأنعامكم(١)» هذا على الجملة غير مفصل، وطمعت نفوسهم بأن المحظور على المسلمين مباح لهم ما لم يتعدوا فى تناوله،وإنما أداهم إلى ذلك ماسمعوا من بعض المتقدمين مع اخوانه فى دخوله فيداره والأكل فيها والأخذ من كيسه يريد به ادخال السرور عليه والانبساط معه وما حكى عن بعضهم أنه كان لا يصحب من يقول نعلى وقميصى وثوبى(٢)، وإنما كان ذلك لئلا يرى لنفسه ملكا يختص به دون من يحضره من اخوانه حتى أنه إذا احتاج إليه أخوه أخذه ولبسه ولم ير له عليه فضلا. وليس من يدعى أن أصل الأشياء على الإباحة بأولى ممن يدعى أنها على الحظر فيمتنع من ذلك كله.

وطبقة تكلمت فى الحلول(٢) ولم نسمع هذا إلا حكاية، وما شاهد أحد منهم متكلما بذلك وإنما هم اخترعوا ذلك من أنفسهم فقالوا إن الله تعالى اصطفى نسما حل فيها بمعنى الربوبية فأزال عنها معانى البرية فمن قال به أو تحقق فيه أو ظن أن التوحيد بدا له بما أشار من هذه المقالة فهو كافر حقا. وإنما أخطأت الحلولية إن صح عندهم مقالتهم لأنهم لم يميزوا بين القدرة التى صفة القادر وبين الشـــواهد

---

(١) عبس ٢٧.

(٢) جاء فى الحديث أن الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والكلأ والنار وحكى عن الجنيد أنه قال لا يصح لأحد الأخذ حتى يكون الإخراج أحب إليه من الأخذ وروى الطوسى عن الزقاق أنه قال: استقبلنى يوسف الصايغ بمصر ومعه كيس فيه دراهم فأراد أن يناولنى فرددت يده إلى صدره فقال خذها ولا تردها على، فلو علمت أنى أملك شينا أو أنى أعطيك شينا ما أعطيتك هذا. اللمع ٢٦٢.

(٢) القول بالحلول يؤدى إلى أن الله مجانس لما حل فيه والله تعالى بائن عن الأشياء والأشياء بائنة منه بصفاتها وما أظهر فى الأشياء فذلك آثار صنعته ودليل ربوبيته.

التى دلت على قدرة القادر وصنعة الصانع فضاعت عقولهم وافترقوا فى قولهم. فمنهم من يقول بالأنوار ومنهم من يقول بالنظر إلى الشواهد المستحسنات بجهل منهم، ومنهم من قال أنه حال فى المستحسنات وغير المستحسنات ومنهم من قال أنه حال فى المستحسنات فقط، ومنهم من يقول هذا على الدوام، ومنهم من يقول وقتا دون وقت وكل هذا كفر وإفك وضلال.

وطبقة غلطت فى فناء البشرية فتوهمت فناء البشرية حتى تكلم القوم فى الفناء والبقاء فوقعت لهم عند ذلك وساوس فتركوا الطعام والشراب وتوهموا أن البشرية والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها (١) وتوهمت هذه الطبقة أنه يجوز أن يكون العبد موصوفا بالصفات الألهية وإنما الذى ذكر القوم فناء صفات البشرية وذلك أن سلطان أنوار الحق إذا بدا على البشرية أزال من الصفات رعونتها مثل رؤية الأعمال واستحسان الطاعات والرجوع من الجهل إلى العلم إلى الذكر. وطبقة من أهل الشام ادعوا أنهم يرون الله تعالى بالقلوب فى دار الدنيا كما يرونه فى الأخرة وقد ذكر أبو سعيد الخوارزمى فى كتاب كتبه إليهم ذكر فى فصل منه وقد بلغنى أنه نبغ بناحيتهم قوم يقولون كذا وكذا وتوسوس فى هذا أيضا جماعة من أصحاب الصبحى وذلك لما كثرت مجاهدتهم وسهرهم وجوعهم وانفرادهم وخلوتهم وتفكرهم صحبهم الإعجاب فاصطادهم الشيطان وزين لهم ذلك فادعوا ما ليس لهم. وإنما أصابهم إبليس بذلك لأنهم لم يقفوا إلى شيخ ذى

---

(١) مع أن الذى يزول فى الحقيقة هو بعض صفات البشرية فيجب أن نفرق بين البشرية وبين أخلاق البشرية لأن البشرية لا تزول عن البشر كما أن لون السواد لايزول عن السواد ولا لون البياض عن الآبيض وأخلاق البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق وصفات البشرية ليست هى عين البشرية.

علم ومعرفة بمكايد الشيطان فيبين لهم خطأهم ويردهم إلى الصواب كما قال سهل بن عبد الله رحمه الله لبعض أصحابه لما وقع له ذلك فقال لسهل إنى أرى الله فى كل ليلة بعينى رأسى. فقال له سهل إذا رأيته الليلة فابصق عليه فلما رآه فى الليلة الثانية بصق عليه فلم يره بعد ذلك فرجع إلى طريقه وترك تلك الوسوسة. ورؤية القلوب إن صحت فبمشاهدة الإيمان وحقيقة التوحيد وصفاء اليقين كما كان لحارثة(١) حين قال لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وذلك تحقيق بل ذلك فى كل غلبة وجد وشكر وانبساط يرد على العبد، ولا يستوى الخبر والعيان بعد قول النبى صلى الله عليه وسلم ليس الخبر كالمعاينة.

---

(١) رؤية القلوب لله أو رؤية الله بالقلوب تكون بمشاهدة الإيمان وحقيقة اليقين. وهذا ما يدل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم. أعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك أما رؤية الله بعين الرأس فى الدنيا فغير واردة وغير جائز لأن العيون لا ترى إلا ما هو مخلوق. ولم تقع رؤية الله فى الدنيا إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم فى حادث المعراج مع اختلاف فيه.

أما رؤية الله فى الآخرة فمختلف فيها فجمهور المسلمين يرى وقوعها لقوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة، وقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقد فسرت الزيادة برؤية الله تعالى ولقوله صلى الله عليه وسلم إنكم لترون ربكم رؤية القمر ليلة تمامه. وأول المخالفون هذه النصوص، ومما قالوا فى التأويل أن «إلى» ليست حرف جر وإنما هى بمعنى الآلاء أى النعم إلى غير ذلك مما هو مفصل فى كتب علم الكلام.

أما الرؤيا المنامية فجائزة وقد روى أن الإمام أحمد بن حنبل قال رأيت ربى فى المنام تسعا وتسعين مرة ولو رأيته تمام المائة لسألته عن أحب شئ يتقرب به العبد إليه. فلما رآه وسأله. قال: بتلاوة كتابى يا أحمد وكذلك رؤيا النبى فى المنام جائزة ايضا لما روى عنه: من رآنى فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يمثل بى.

ومنهم من غلط فى حالة الصفا والطهارة فزعموا لأنفسهم الصفا والطهارة على الكمال وإن ذلك لا يزول عنهم وزعموا أن العبد يصفو من جميع الكدورات والعلل يعنى البينونة منها والعبد لا يصفو على الدوام وإنما يصفو له وقت دون وقت. والطهارة تكون لقلب العبد من الحقد والغل والغش وغير ذلك وأما النفس فإنها محل العلل ولا يخلو محل العلل منها. كيف وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة وقال إنما أسهو لأسن، وقال إنما أنا بشر مثلكم.

وطبقة غلطت فى الجمع والتفرقة فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله إليهم ولم يصفوا أنفسهم بالحركة وظنوا أن ذلك احتراز حتى لا يكون مع الله شئ سواه فأداهم ذلك إلى الخروج عن الملة وترك الحدود وخرق الشريعة وأسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود وهذا لقلة معرفتهم بالأصول والفروع فلم يفرقوا بينهما وأضافوا إلى الأصل ما هو مضاف إلى الفرع، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضاف إلى التفرقة ولم يحسنوا أن يضعوا الأشياء مواضعها ولا يتكلم فى حقيقة الجمع والتفرقة إلا صديق أو زنديق. فأما الصديق فيرجع إلى الله تعالى فى كل شئ بعد معرفة ما يحتاج إليه من الأصول والفروع والحقوق والحظوظ ومنزلة الفرق بين الحق والباطل ومتابعة الأمر والنهى، ويقوم بشروط الآداب على حدود الاستقامة، والزنديق لا ينزجر عن شئ من ركوب المعاصى لأن جهله وخسرانه أداه إلى اضافة أفعاله كلها إلى الله حتى أزال بزعمه عنه اللائمة فى ركوب المآثم بالتأويل الباطل نعوذ بالله من الخذلان.

وطائفة غلطت فى القرب والانبساط فتوهمت أن بينهم وبين الله حالة من القرب والدنو فاحتشمهم عند ذلك التوهم بالرجوع إلى الآداب التى كانوا يراعونها والحدود التى كانوا يحافظـــون عليهـــا،

وانبسطوا إلى ما كانوا عليه محتشمين وتوهموا أن ذلك من قربهم ودنوهم(١)، وغلطوا فإن الآداب والأحكام خلع من الله على عبيده فمن زاد عليها حفظا ولها حرصا فهو من الله سبحانه فى عين الرعاية والقرب، ومن زال عنه شئ من ذلك بما يظنه قربا إلى الحق فهو بعد منه والعياذ بالله(٢).

وطبقة غلطت فى فناء الأوصاف وهم جماعة من البغداديين عندهم أن عند فنائهم من أوصافهم دخلوا فى أوصاف الحق وأضافوا أنفسهم إلى معنى يؤديهم بجهلهم إلى القول بالحلول وإلى شبيه من مقالة النصارى فى المسيح. والمعنى الصحيح فى فناء أوصاف العبد والدخول فى أوصاف الحق فناؤه من ارادته أجمع ودخوله فى مراد الحق فلا يكون له مراد مع مراده فيه فما أراد الله به أراده لنفسه فهو فناء أوصافه وإتصافه بالحق. وغلطوا فى أنهم ظنوا أن أوصاف الحق هو الحق وليس كذلك لأنه تعالى وتقدس لا يحل فى القلوب ولكن يحل فيها توحيده وتعظيمه وهيبته.

---

(١) حكى عن ذى النون أنه قال ينبغى للعارف ألا يطفئ نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا تحمله كثرة الكرامات من الله تعالى على هتك أستار محارم الله تعالى. كما كان بعض الحكماء يقول: «اللهم لا تشغلنى بك عنك واشغلنى بطلبك بعد ما كنت لى من غير طلبى. وقال الجنيد الذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول بإسقاط الاعمال ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها.

(٢) يقول صاحب اللمع: هؤلاء قد نكصوا على اعقابهم وسلبوا الخلع التى أكرموا بها من الطاعات وقد طردوا من الباب وصارت سمتهم سمة المطرودين وهم عندهم أنهم من المقبولين وكلما توهموا أن الذى عليه قرب ودنو أزدادوا من الله سحقا وبعدا (اللمع ٥٥١).

وطبقة غلطت فى فقد الإحساس فزعمت أنها تفقد الإحساس عند المواجيد والأذكار القوية ويخرجون عن أوصاف المحسوسين مع أن فقد الحس لا يعلمه صاحبه إلا بالحس. والحس صفة البشرية وقد يغلب عليه الواردات التى ترد على الأسرار بقهر سلطانها فتغيبه عن حسه لحظة كالشمس تطلع على الكواكب فتطمس نورها ولا تزول عن أماكنها كذلك الحس لا يزول ولكن يقهره عليه سلطان الوارد عليه وإنما يغيب الإنسان عن حسه بحسه عند المواجيد الحادة.

وطبقة غلطت فى الأرواح فقالوا الروح[1] نور من الله

---

(١) وردت مادة الروح فى القرآن الكريم حوالى ٢٤ مرة بعضها مقصود بها جبريل عليه السلام «قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا» -النحل ١٠٢- وقول: «نزل به الروح الأمين» -الشعراء ١٩٢ وقد يراد به القرآن الكريم كما فى قوله تعالى «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا» (الشورى ٥٢) وأحيانا بمعنى الرحمة كما فى قوله تعالى: «ولا تيأسوا من روح الله. أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» (يوسف ٨٧).

واحيانا بمعنى الحياة. كما فى قوله تعالى: «ويسألونك عن الروح» وقد ورد فى هذه الاية أن اليهود قالوا لقريش اسألوا محمدا عن ثلاث فإن أخبركم باثنين وأمسك عن الثالثة فهو نبى. اسألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام غدا أخبركم ولم يقل: أن شاء الله. فانقطع عنه الوحى أربعين يوما. ثم نزل الوحى بعده بقوله تعالى ولا تقولون لشئ إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين وأبهم قصة الروح. ونزل فيه قوله تعالى. ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى. وبين أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال وما أوليتم من العلم إلا قليلا.

هذا وقد اختلف الفلاسفة فى حقيقة الروح. أهى عباره عن أجسام موجودة فى داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والأخلاط أو هى عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب أو هى عبارة عن عرض آخر قائم بهذه

وتوهموا أنه نور ذاته فزعموا أنه مخلوق وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة، وروح القدس غير مخلوق، وقوم قالوا أرواح العامة مخلوقة وأرواح الخاصة غير مخلوقة، وقوم قالوا للمؤمن ثلاثة أرواح وللكافر روح واحدة، وللصديقين خمسة أرواح. وكل هذا خطأ وباطل والصواب ما قاله الله تعالى: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى»(١) وهى مخلوقة ليس بينها وبين الله نسب ولا سبب إلا أنه خصها بلطافة الخلقة.

= الأجسام أو هى عبارة عن موجود يغاير هذه الأجسام والأعراض ويفهم من هذه الآية إنها موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأغراض وذلك لأن هذه الأجسام أشياء تحدث من امتزاج الاخلاط والعناصر أما الروح فإنها ليست كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله كن فيكون ولا يلزم من عدم العلم بحقيقة الروح المخصوصة نفيها فإن أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة ومع ذلك نؤمن بها. وهذا هو المراد بقوله وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

(١) الإسراء ٨٥ .

فصـــل

وعلم الشريعة(١) ينقسم على(٢) أربعة أقسام. الأول منها علم الرواية والأنساب، والثانى علم الدراية والأحكام، والثالث علم القياس والإجماع، والرابع علم الحقائق والاستبصار فمن غلط فى علم الرواية لم يسأل أحدا من أهل الدراية ومن غلط فى علم الدراية لم يسأل أحدا من أهل الرواية. ومن غلط فى علم القيـــاس لم يسأل أحدا من العلمين

---

(١) تنقسم العلوم الإسلامية الأساسية التى عرفت قديما بعلوم الغايات إلى خمسة علوم. اثنان منها لهما طبيعة نصية وهما مجموعتا علوم القرآن وعلوم السنة. واثنان لهما طبيعة موضوعية. وهما الفقه والكلام، والآخر له طبيعة منهجية وهو علم أصول الفقه.

ونقطة البدء فى هذا التقسيم هو الحكم الشرعى الذى يمكن أن يبحث من ناحيتين: مصدره، وطبيعته. ومصدرا الحكم الشرعى الأساسيان هما الكتاب والسنة ويبنى عليهما ما عدا ذلك من المصادر كالاجتهاد الجماعى والفردى بصوره المختلفة. والبحث فى الحكم الشرعى من حيث مصدره تنهض به علوم القرآن وعلوم الحديث.

أما البحث فى الأحكام الشرعية من حيث طبيعتها فينهض به علم الكلام وعلم الفقه فإن كان الحكم الشرعى اعتقادا بحتا فهو موضوع علم الكلام وإن كان عمليا أى المطلوب تنفيذه وتطبيقه فهو موضوع علم الفقه.

أما العلم الخامس والأخير من مجموعة العلوم الإسلامية الشرعية فهو علم أصول الفقه وهو همزة الوصل بين العلمين الأولين اللذين يدرسان مصادر الأحكام الشرعية، والعلمين الأخيرين اللذين يدرسان نوعى هذه الأحكام اعتقادية وعملية.. إذ هو يبين القواعد والقوانين التى تحكم كيفية استنباط الأحكام الشرعية أيا كانت طبيعتها من مصادرها الشرعية المعتمدة.

(٢) كذا... ولعل الأصوب إلى.

المذكورين. ومن غلط فى علم الحقائق لا يسأل عن غلطه إلا عالما منهم كاملا فى معناه يجوز أن يكون حجة ولا يكون عالما بالحقائق إلا بعد أن يكون يحكم(١) الأصول من هذه العلوم التى تقدم ذكرنا لها فإذا اجتمعت هذه الأقسام الأربعة التى ذكرناها فى شخص واحد فهو الإمام الكامل والحجة والقطب. كما قال على رضى الله عنه لكميل بن زياد: لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة كيلا تبطل آياته وتدحض حجته. وأولئك الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا.

(١) كذا... ولعله يريد قد أحكم.

فصل فى الشطح

وهو عبارة عن وصف ما يبدو فى القلب من الأنوار والفضائل والشطح فى لغة العرب هو الحركة يقال شطح إذا تحرك ويقال للبيت الذى تحرك فيه الدقيق مشطاح. قال الراجز:

قف بشط الفرات مشرعة الخيل قبيـــل الطريق بالمشطـاح(١)

وإنما سمى بذلك لكثرة ما تحرك فيه من الدقيق الذى ينخلونه فصح أن الشطح لفظة مأخوذة من الحركة لأنها حركة أسرار الواجدين(٢) إذا قوى وجدهم فيعبرون عن ذلك بعبارة يستغربها السامع فمنكر عليه ومفتون به هالك ومن سالم فيه ناج ويقال شطح الماء فى النهر إذا علا الماء حتى يفيض من حافتيه كذلك المريد الواجد إذا قوى وجده ولم يطق حمل ما يرده على قلبه من أنوار الحقائق شطح بذلك على لسانه فيبرزه بعبارة مستغربة مشكلة على الفهوم الجاهلة به، لا على فهوم أربابه فسمى الاصطلاح شطحا والأسلم لمن لا يعرف مراميهم ومقاصدهم ومصادرهم ومواردهم ترك الانكار عليهم ويكل أمورهم إلى الله عز وجل ويرجع بالغلط على نفسه فإنه أسلم وأحسن فى باب الرعاية والفتوة والحرية وبالله التوفيق.

---

(١) تكملة الأبيات من كتاب اللمع ص٤٥٢ هى:

بالطواحـين من حجـارة بطر يق بدير الغزلان ديـر المـلاح
وإذا لاح بالمنــاة ظبـى قـد كسـاه الإشراق ضوء الصباح
فأقر ذلك الغـزال منى سـلاما كما صـاح صـائح بفـلاح

(٢) الشطح: عبارة مستغربة فى وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته.

فصـــل

فيه الرد على القائلين بالحلول

قال صاحب الكتاب ما قال بالحلول أحد من أئمة القوم ومشايخهم ومن يرجع منهم إلى دين، وإنما أطلق هذا القول قوم من أهل الشام وليس لهم فى التصوف قدم ولا لهم مع مشايخهم ذكر. قال سيد القوم أبو القاسم الجنيد بن محمد: اعلموا رحمكم الله أن الحق سبحانه لا يوصف بالحلول(١) فى الأمكنة ولا ينعت بمرور الأزمنة، كان الحق تعالى ولا شيء موجود ولا شخص معبود فكيف يصير بحالة كان فى الأزل عنها غنيا وكيف ينتقل بانتقال الفناء جل وتعالى أن يوصف بشيء من هــذه العلل. وقال ذو النـــون المصرى:

---

(١) إذا كانت المشاهد الصوفية تكشف لصاحبها عن أمور وحقائق يعجز العقل عن أدراكها فإنه ينبغى دائما الرجوع إلى العقل ليكون حكما فاصلا فى قبول هذه الأمور أو رفضها فلا يجوز عقلا أن يدعى صوفى مشاهدة الذات الالهية. ومن باب أولى لا يجوز له عقلا أن يزعم أنه يتحد بها أو أنها تحل فيه. يقول الغزالى فى منقذه:

أن القول بالحلول أو الإتحاد غير مظنون بعاقل فضلا عن المميزين بخصائص المكاشفات فالله يتجلى ظاهرا من جهة أفعاله لكنه يظل باطنا لشدة ظهوره. والحلول لا يتصور بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب؟ أليس معنى الحلول الحقيقى هو انطباق جوهر على جوهر أو جسم على جسم أو عرض فى جوهر؟ وإذا كانت النفس حادثة ولا وجود لها إلا بارادة خالقها فكيف يتصور عقلا أن تكون هى هو؟ وإذا نحن سلمنا بامكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحدة فكيف لا نسلم به لجميع النفوس وعندئذ يصبح العالم كله آلهة. وإذا ظهر بطلان الحلول فإن بطلان الإتحاد أظهر لأن القول بأن العبد صار هو الرب كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغى أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحاولات. انظر دراسات فى الفلسفة الإسلامية ٦٣ للدكتور محمود قاسم.

الحلول لا يلحق الأغيار المخترعة والهياكل المبتدعة وكيف يحوى الحق مكان أو يضمه أوان. ولا مكان، ولا أوان ولا زمان جل وتعالى عن ذلك. وقال ابن عطاء تبطل ذلك الاستحالة. لأنه يستحيل أن يشاكل القديم المحدث أو يساويه أو يقترن به لأن الحلول لا يكون إلا بين الأشكال. وقال أبو عمرو الدمشقى كيف يجوز أن يحل الحق فى شخص هو أنشأه ملازما للنقص وكان عنه مستغنيا. وهو القاهر بجباريته البائن بصفاته عن صفات خليقته كان ولا مكان ولا زمان وهو الآن كما كان، وقال الحسين بن منصور الحلاج: الحق تعالى أوجد الهياكل على رسم العلل منوطة بالآفات فانية فى الحقيقة، وإنما الأرواح فيها إلى أجل معدود وقهرها بالموت وربطها فى وقت إتمامها بالعجز وصفاته تعالى بائنة عن هذه الأوصاف من كل الوجوه فكيف يجوز أن يظهر الحق فيما أوجده بهذا النقص والعلة. كلا وحاشا. وثبت أن الحق سبحانه وتعالى ألزم فى كتابه وصف العبودية للخلق أجمع فقال: «وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون»(١) وقال: إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا»(١) فكيف يجوز أن يحل فيما ألزمه وصف النقص وهو العبودية فيكون مستعبدا معبودا.

نجزت غلطات الصوفية. والحمد لله منشىء البرية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) الذاريات ٥٦.
(٢) مريم ٩٣.

الخاتمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعــــد ..

فقد نجز تحقيق كتاب أصول الملامتية بعد التقديم له بدراسة مستفيضة عن التصوف وبقيت بعد التعليق عليه عدة مسائل تتصل بالتصوف عامة وبمذهب الملامتية بوجه خاص برزت من ثنايا كتاب أصول الملامتية. وكان من الممكن أن تعرض وتطرح ضمن موضوعات الدراسة التى قدمناها بين يدى التحقيق. ولكنا آثرنا إرجاء بحثها إلى ما بعد التحقيق وطرحها فى الخاتمة لما عسى أن تقدمه الدراسة والتحليل من عون فى بحث هذه المسائل وإجابة عن تساؤلاتها.

من تلك المسائل مسألة التفاؤل والتشاؤم وهل الملامتية لمحاربتهم النفس يميلون إلى التشاؤم أو يتصفون به. والحق أن الملامتية والصوفية بوجه عام أبعد ما يكونون عن التشاؤم. من جهة أن الإسلام قد نهى عنه وعن التطير وهو ضرب من ضروب التشاؤم والصوفية -كما علمنا- من أشد الناس اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وعملا بسنته أو يجب أن يكونوا كذلك. لذا فليس للتشاؤم إليهم سبيل ومحاربتهم النفس وإذلالهم إياها لترويضها على الطاعة والإخلاص وليس لكراهية للدنيا أو حنق أو غضب أو تبرم بالقضاء والقدر.

ومن جهة أخرى أن من مقاماتهم مقام الرضا وهو يناقض التشاؤم. والمطلع على ما أثبته الصوفية فى هذا المقام يرى مدى بعدهم عن التشاؤم وتمسكهم بالتفاؤل دائما. ويظر تفاؤلهم واضحا فى الشدائد والمصائب. ويرون أن الرضا عن الله سبحانه وتعــالى من

أعلى مقامات اليقين بالله وقد قال تعالى: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»(١) فمن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا وهو قوله تعالى: «رضى الله عنهم ورضوا عنه»(٢) وكان عمر بن عبد العزيز - ويعدونه من رجالهم - يقول أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القضاء. ومما يروونه ويتمسكون به ويدل على تفاؤلهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لطائفة من المؤمنين ما أنتم؟ قالوا نحن المؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا نصبر عند البلاء ونشكر عند الرضا ونرضى بمواقع القضاء. فقال مؤمنون ورب الكعبة. وفى خبر آخر قال: حلماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء(٣) فشهد لهم بالإيمان بعد وصف الرضا ويروون عن النبى صلى الله عليه وسلم أيضا إذا أحب الله العبد ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضى اصطفاه ومن الرضا عند الصوفية ألا يقول العبد هذا يوم شديد الحر، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة. وقال سفيان الثورى يوما عند رابعة اللهم أرض عنا فقالت: أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت غير راض عنه. فقال: استغفر الله. قال جعفر: فقلت لها متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة، وقال فضيل بن عياض: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى. وروى عن أبى عثمان الحيرى أنه قال منذ أربعين سنة ما أقامنى الله عز وجل فى حال فكرهته وما نقلنى إلى غيره فسخطته ومما يروونه فى تمام الرضا أن رجلا غضب على عبد له فاستشفع العبد إلى سيده إنسانا فعفا عنه. فأخذ العبد يبكى فقال له الشفيع لم تبكى وقد عفا عنك سيدك فقال : إنه يطلب

(١) الرحمن ٦٠.
(٢) المائدة ١١٩.
(٣) قوت القلوب ٥٧/٢.

الرضا منى ولاسبيل إليه فأنا أبكى لأجله(١) وسئل ذو النون عن الرضا فقال: سرور القلب بمر القضاء(١).

أفبعد هذا -وهو قليل من كثير مماتحدث به الصوفية عن الرضا الذى يدل على التفاؤل- يقال إنهم متشائمون فهم مع الضراء فى رضا كما هم مع السراء والمتشائم لايعرف الرضا ولايعرف الرضاإليه سبيلا.

وشتان بين أسلوب الملامتية فى لوم النفس وتأنيبها بل ومحاربتها واذلالها وأسلوب واحد كأبى العلاء المعرى الذى عرف بالتشاؤم ووقف من النفس موقف العداوة والكراهية بل وقف من الحياة كلها هذا الموقف. عندمايراها طافحة بالشر مملوءة بالويلات والمصائب مترعة بالاحزان والمتاعب فى قوله:

نعم، ثم جزء من ألوف كثيرة   من الخير والأجزاء بعد شرور

ثم لا يلبث أن يستكثر على الحياة أن يكون فيها جزء من ألوف كثيرة من الخير فيقول:

لا أزعم الصفو مازجا كدرا   بل مزعمى أن كله كدر

والمتشائم لا يقتصر عند حد أن الحياة مليئة بالشرور وإنما يكاد لا يرى فيها إلا هذه الشرور.

تعب كلها الحياة فما أعجـ   ـب إلا لراغب فى ازدياد

وليته يقف من الشرور موقف الرضا أو التسليم الذى وقفه الصوفية ولكن المتشائم يتبرم ويعترض:

دعا لى بالبقاء أخو وداد   رويدك إنما تدعو علينا
وما كان البقاء لى اختيارا   لو أن الأمر موكول إلينا

---

(١) القشيرية ١٥٤.   (٢) اللمع ٨٠.

ويقول :

يســـمى : «سرورا» جاهل متخـــرص
-بفيه البرى- هـــل فى الزمان سرور ؟

والمتشائم يود أن تخلو الدنيا من ساكنيها ليخلصوا من شرورها والمعرى يقول إن الناس لو رأوا رأيه :

فعطلوا هــذه الدنيا فما ولدوا ولااقتنوا واستراحوا من رزاياها

ويرى أن الشر فى كل الناس بل فى كل الكائنات. لا فرق.

كادت تساوى نفوس الناس كلهم فى الشر مابين منبوذ ونبـــاز
ظلم الحمامة فى الدنيا -وإن حسبت فى الصالحات- كظلم الصقرللباز(١)

والصوفية أبعد ما يكون عن مثل هذا الخلق وكيف يظن بهم ذلك وقد يترك الواحد منهم الدعاء إلى الله أن يفرج عنه كربه خشيه أن يظن منه الاعتراض.

والملامتية لاموا أنفسهم لرؤيتهم تقصيرها عن طاعة الله أما المتشائمون فقد كرهوا نفوسهم لعجزها عن تحقيق مآربهم الدنيوية والملامتية لاموها وحاربوها ليصوغوها خلقا آخر أقدر على الطاعات وأخلص فيها وأصبر على الشدائد وأرضى (أشد رضاء) عند المكاره.

أما أولئك فليسوا كذلك.

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ذات يوم لامرأته عاتكة وقد غضب. والله لأسوأنك فقالت أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد أن هدانى الله له قال لا قالت: فأى شىء تسوءنى به إذن.

---

(١) انظر رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ٢٧١/٤ وما بعدها.

ومن المسائل التى أثارها موضوع الكتاب مسألة إظهار العبادة وإخفاؤها والإخلاص فيها وهى عماد مذهب الملامتية.

ونرى إن إخفاء العبادة جائز إن كان ذلك أصلح لحال العابد أما ترك العبادة خوف الرياء فهو عين الرياء - وجاء فى الخبر إذا دعى أحدكم إلى طعام فإن كان مفطرا فليجب وإن كان صائما فليقل أنى صائم. فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وجدا أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه. ويحكى عن بعض السلف أنه ربما كان فى الجماعة فيقرأ القرآن فى نفسه سرا لئلا يطلع على أعماله أحد فإذا مر بآية فيها سجدة سجد بين الملأ. ولم يكن له أن يترك السجود مخافة الرياء لأنه إذا فعل ذلك كان عين الرياء. إذ لا يصح أن يترك قربة إلى الله عز وجل من أجل الناس فالرياء هو ترك العمل لأجل الناس. أما العمل لأجل الناس فشرك ولذلك كان الصوفية يتحرون ذلك وينقبون عنه فى نفوسهم حتى يخلصوها من الرياء. روى أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال عزمت على الحج أفتأمرنى بشئ فقال بشر: كم أعددت للنفقة؟ قال: ألفى درهم. قال فأى شيء تبتغى بحجك نزهة أو إشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل قال ابتغاء مرضاة الله عز وجل. قال فإن أصبت رضا الله وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله عز وجل أتفعل ذلك؟ قال نعم. قال: أذهب فاعطها عشرة أنفس: مدين يقضى بها دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يحيى عياله، ومربى يتيم يفرحه. وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فأفعل فإن إدخالك السرور على قلب إمرىء مسلم وتغيث لهفان وتكشف ضر محتاج وتعين رجلا ضعيف اليقين أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما فى قلبك.

فقال سفرى أقوى فى قلبى فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات أقتضت النفس أن تقضى به وطرا يشرع إليه فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه ألا يقبل إلا عمل المتقين(١).

فالإخلاص الذى ينشده الملامتية ليس حتما إنما يكون فى إخفاء العبادة بل قد يتأتى فى إظهارها أيضا وقد يكون ذلك أحسن حالا لتمكين الغير من الاقتداء به ومن هنا جاء قوله تعالى: «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا»(٢).

ومن المسائل أيضا مسألة اشتراك الصوفية فى الحياة الاجتماعية وإسهامهم فيها أو دور الصوفية فى المجتمع وهل هو قاصر على العبادة فقط من صلاة طويلة وصيام متواصل ورضا بفقر وقعود عن كسب أم أن لهم دورا يفوق مجال العبادة بهذا المعنى

والحق أن دور الصوفية فى المجتمع لم يكن كما يتصوره بعض الناس مقتصرا على تلك العبادة وإنما تعداها إلى مجال العمل - الذى يعتبر فى الإسلام عبادة أيضا -والذى يعم جميع مجالات الحياة فكانوا يعملون ولا يقعدون عن الكسب والعمل. ولو تأملنا الألقاب التى لقبوا بها لوجدنا أن معظمها نسبة إلى ما كانوا يقومون به من عمل مثل حمدون القصار، أبو بكر الوراق، أبو سعيد الخراز، أبو إسحاق إبراهيم الخواص، بنان بن محمد الحمال، أبو حمزة البغدادى البزاز، خير النساج، أبو الحسين المزين، أبو الحسن على بن إبراهيم الحصرى، إلى غير ذلك من الألقاب والنسب التى تدل على مباشرتهم الأعمال والحرف فلم يقعدوا عن كسب وعابوا على من قعد عنه من رجالهم وأسهموا فى الحياة الاجتماعية فى كل مجالاتها التى كانت آنذاك غير أنهم طلبوا الدنيا بقدرها وضرورتها وأعطوا الآخرة

(١) قوت القلوب ١٢٨/١. (٢) الإسراء ١١٠.

نصيبها فلم ينسوا نصيبهم من الدنيا ولا نصيب الدنيا منهم «ولا تنس نصيبك من الدنيا»(١) من حيث العمل والعلم ومنهم من كان يأكل من عمل يده ومنهم من كان يتصدق بكل ما عنده ويتكفف قوته إذلالا للنفس وتهذيبا لها.

وقد اشترك الكثيرون منهم فى الجهاد وتقدموا صفوف القتال واستبسلوا فى الدفاع عن الدين أيما استبسال ويشار فى هذا المجال إلى ما قام به «السيد أحمد البدوى» وهو من كبار شيوخهم من قتال ضد الصليبين حتى لتروى عنه روايات أقرب إلى الخيال فى الشجاعة والتضحية فيروى أنه كان يتسلل إلى معسكرات العدو فيفك الأسرى المسلمين الذين أسرهم العدو ويرجع بهم سالمين. وإلى عهد قريب جدا كان يردد فى حلقات الصوفية وربما مازال الناس يرددون «الله الله يابدوى جاب اليسرى» والمقصود باليسرى هنا الأسرى الذين كان يفكهم السيد أحمد البدوى ويرجع بهم سالمين. ولئن كانت هذه القصة من المبالغات فإن أدنى ما تشير إليه هى مشاركة ومسارعة الصوفية إلى الجهاد.

فالتصوف الحقيقى والصوفية الحقيقيون هم رجال فى أمور الدنيا ورجال فى أمور الدين. «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وليس كما يظنهم بعض الناس أو ما يدعونه من أنهم كانوا عالة على المجتمع وربما عزوا السبب فى تأخر المسلمين إليهم. لأن الطاقات الروحية التى توجد عند الصادقين من رجال الصوفية كفيلة أن تدفع بالمجتمع أى مجتمع إن هى استغلت إلى غاية التحضر وقمة المجد. وليس كالطاقات الروحية دافعا وحافزا للإنسان على العمل. وكلنا يعرف ما قام به جماعة من الإخوان المسلمين مجردة من السلاح

(١) القصص ٧٧.

إلا سلاح الإيمان ماذا فعلوا بإسرائيل وكيف طاردوها ولقد قامت هذه الجماعة بما لم تستطع أن تقوم به الجيوش العربية المدججة بالسلاح بعد ذلك... حقا.. أنه الإيمان.

وهنا نأتى إلى نقطة مهمة وهى علاقة الصوفية بالطرق الموجودة بين ظهرانينا الآن وعلاقتهم بالجماعات الإسلامية.

أما الطرق الصوفية الموجودة بين ظهرانينا الآن كالشاذلية والرفاعية والخلوتية والبرهانية... الخ فهى الصورة أو الصور التى آل إليها التصوف الإسلامى الذى نتحدث عنه وهى صورة أو صور باهتة وطرق ابتعدت كثيرا عن جادة الطريق حتى لم يبق لها من سمات التصوف الحقيقى إلا بعض الشكليات. فتخلت عن جوهر التصوف فى المعرفة والعبادة والعمل وتمسكت منه بقشور أو أهداب.

فمن حيث المعرفة كنا نجد رجال الصوفية يأخذون منها بأكبر نصيب يأخذ بعضهم عن بعض ويسافر بعضهم إلى بعض فيما يعرف عندهم بالسياحة. نعم ربما كانوا يعتبرون علم الشريعة أو علم الورق فى مرتبة بعد علم الحقيقة الذى هو علمهم أو علم الخرق ولكنهم كانوا يحصلونه ويتعلمونه فكانوا فقهاء فى دينهم يعرفون أحكامه وآراء أعلامه إلى جانب ما كان يفتح الله عليهم به من الالهامات لاخلاصهم وصفاء أرواحهم. أما أهل الطرق الصوفية فى عصرنا فقد قعد معظمهم عن طلب العلم: علم الشريعة وحرموا علم الحقيقة لانعدام الآخلاص. وترى الواحد منهم يدعى قدما عاليه فى التصوف وقد لا يحفظ القرآن - ولا يعرف معناه من باب الأولى - بل قد لا يعرف فرائض الوضوء - إن أجاده - من سننه. وأركان صلاته - إن أقامها - من سننها.

ومن حيث العبادة ليسوا فيها على أقدام سابقيهم ولا طريقة مشايخهم. ولانستطيع أن نقول أنها أقل إخلاصا لأن ذلك أمر

لايعرفه إلا الله ولكننا نستطيع أن نقول إننا لا نرى أثرها عليهم أو على الكثيرين منهم والعبادة الصادقة يرى أثرها على العبد.

أما العمل فهم وإن قاموا به غير أنهم لم يتحروا فيه الإخلاص تحرى من قبلهم ولم يبتغ فيه - عند كثيرين منهم - وجه الله.

فالفرق بين هذه الطرق الصوفية وبين أسلافهم موجود ولم يبق لهؤلاء من طريقة بابقيهم إلا بعض الخرق يلبسونها عند المناسبات - مع أن بعض الصوفية شجبوا لبس الخرق حتى لا يعرفوا بها فيكرموا من أجلها - وحلقات السماع والذكر - وقد سبق أن عرفنا رأى الصوفية والملامتية فيهما - ثم القيام بحركات وأفعال لم نعهدها من شيوخ الطريق.

المهم أن هذه الطرق - وإن كانت من بقايا التصوف - غير أنها لا تعبر عنه ولا يمكن أن نعتبرها هى التصوف الإسلامى الذى يمثل من الإسلام روحه وجوهره.

والحق أن ذلك التدهور والضعف لم يصب الصوفية وحدهم بل أصاب المسلمين فى معظم مجالات علومهم ومعارفهم ولكن لومنا لرجال الطرق الصوفية أشد لأن التصوف ورجاله ينبغى أن يكون القدوة والمثل الذى يحتذى به الآخرون.

وكان من الممكن أن يكون للطرق الصوفية ورجالها بين ظهرانينا أثر كبير فى شتى مجالات الحياة لو قاموا بمراسم التصوف على حقيقته وأدوا تعاليمه كما يجب، لأن التصوف الحقيقى هو الإيمان غير أن الله - رحمة منه بعباده - لم يزل اسم الإيمان عنا عند الخروج عن جادته ببعض المعاصى والذنوب فاعتبر المؤمن مؤمنا مع إرتكابه للمحرمات أما الصوفية فيزيلون أو ينبغى أن يزيلوا اسم التصوف عمن لا يلتزم بكل مبـادئه وواجبـاته - لأنه ليس شرطا

على أمة الإسلام أن تكون كلها صوفية وإنما الشرط أن تكون كلها مؤمنة ولهذا لم يكن ثمة ضير من إسقاط اسم التصوف على من يخالف طريقته دون إسقاط اسم الإيمان على من يتجاوز حدود. عصيانا لا نكرانا رحمة من الله بعباده. والإيمان درجات يزيد وينقص على أصح الأقوال والتصوف درجة عالية منه، كما أن الإحسان درجة عالية فيه ولهذا نقول أنه يمكن - للطرق الصوفية المنتشرة أن يكون لها أثر - أى أثر - على جميع مجلات الحياة الدينية والدنيوية إذا هى عرفت طريقها الصحيح والتزمت بالكتاب والسنة أو بطريقة أسلافهم التى التزموا فيها بالكتاب والسنة فليس مثل الطاقة الروحية وقوة الإيمان قوة تدفع المرء إلى العمل والبناء.

وهنا نأتى إلى النقطة الثانية وهى علاقة التصوف بالجماعات الإسلامية. وأظنه ليس من الحاجة أن تقول أن أول علاقة وأقوى علاقة بينهما هو شدة التمسك بالكتاب والسنة غير أن الصوفية اهتموا فى هذا التمسك بإصلاح نفوسهم ومريديهم أكثر من اهتمامهم بإصلاح مجتمعهم وحكامهم. والجماعات أو الجماعة الإسلامية -فهى واحدة وإن تعددت- اهتمت فى هذا التمسك مع اصلاحها أنفسها بإصلاحها مجتمعها وأمر حكام المسلمين عملا بآية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»(١) وعملا بمطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم بتغيير هذا المنكر بما يمكن من وسائل التغيير وانطلاقا من أن قوة الإسلام والمسلمين التى تدهورت فى هذا العصر لن ترجع إلا بإحياء شرائع الإسلام والعمل بها. فما هان المسلمون على الناس إلا عندما هان الإسلام عليهم، وما ضعفنا إلا عندما ضعف الإسلام فينا.

---

(١) آل عمران ١٠٤.

فإذا كانت الطائفتان قد اجتمعتا على الكتاب والسنة فإن طائفة الصوفية اكتفت بأن تلزم نفسها ومريديها بهما وقدمت النصح والموعظة الحسنة للحكام والحكومات الإسلامية أما الجماعة الإسلامية فقد أخذت على نفسها مهمة إقامة الحكام والحكومات على جادة الإسلام. وربما لم نر مثل ذلك عند الصوفية لأن الحكام والحكومات كانت ملتزمة بتطبيق الشريعة االإسلامية -من حيث الشكل على الأقل- أما فى عصرنا فالشريعة مهدرة شكلا ومضمونا. ولهذا يمكن أن نقول أن الإختلاف بين الطريقتين اختلاف عصر وبيئة -لا اختلاف منهج ومبادئ.

أما الاختلاف الأظهر فهو أن الصوفية يدعون إلهاما وكشفا -أو أن لهم ذلك فعلا- ويلزمون أنفسهم بطقوس وعبادات، ويرون لهم أحوالا ومقامات، وغير ذلك من معالم طريقهم مما ليس للجماعة الإسلامية منه شئ. فليس للجماعة الإسلامية مثلا فهما خاصا أو باطنا للإسلام كما يدعى بعض الصوفية وكل مبتغاهم هو إقامة الفهم الذى فهمه علماء المسلمين للكتاب والسنة وتطبيقه. ثم هم يتمتعون بعد ذلك بشدة تمسك والتزام بما يطالبون به.

فالدور الاجتماعى للجماعة الإسلامية أظهر منه عند الصوفية.

وهو دور مشروع ومطلوب ينبغى أن نتقبله ونقابله بالرضا والتأييد لأنه الطريق الوحيد الذى يعيد للإسلام عزته ولكن ينبغى -قبل ذلك- أن نهمس فى أذن أصحابه أنه ينقص دعوتهم المنهج الكامل للإصلاح الذى ينشدونه، والتصور الشامل لجميع مناشط الحياة، والتخطيط العلمى المدروس الذى يمكن تنفيذه.

أما أن تكون الدعوة... هكذا.. إلى الرجوع إلى الإسلام عامة دون تحديد فإن عمومها يقلل من مناصرتها ونفعها لأن الجميع يدعى ذلك الإسلام وبعضهم عنه بعيد.

وقديما دعا العباسيون فى إقامة دولتهم إلى «الرضا من آل محمد» لتضليل الناس عن انتقال الدعوة من البيت العلوى إلى البيت العباسى، فمثل هذا التعميم يمكن أن ينحرف بالدعوة عن جادتها وبالطريق عن استقامته كما أن الدعوة إلى سبيل الله بالحكمه والموعظة الحسنة خير وأجدى من العنف والقوة، «ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك»(١) وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعنف أو يقسر أحدا على قبول دعوته وغاية ما كان يملكه أن يضيق صدره ذرعا بهؤلاء أو يحزن عليهم «فلعلك باخع نفسك على أثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»(٢)، «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين»(٢) «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»(٤).

والخطأ الذى قد يرتكبه الداعية فى عنفه وقسوته أو حتى فى شدة غيرته على الدين أضر على الدين من الخطأ الذى يريد أن يصلحه ودعوة بالحسنى تؤتى ثمرتها وإن طال مداها خير من قوة قد تقصف بالداعى وتزج به فى غياهب السجون على أيدى أناس لا يرحمون.

كما نهمس فى أذن الأخرين بأن دعوة هؤلاء على حق وهم أن أخطأوا الطريق أو التعبير أحيانا فليس معنى ذلك خطأ دعوتهم ولا ينبغى أن يؤدى ذلك إلى القصف أو العسف بهم لأن كل قسوة عليهم تزيد من قوة دعوتهم وكل عسف بهم يؤيد إلى مزيد اصرار عندهم. وخير من ذلك أن ننظر فى دعوتهم وأن نراجع أنفسنا وتاريخنا ونواجه الحقائق بصدق وننظر ماذا يعنى الرجوع إلى الإسلام!! ولنحاول التغلب على أنفسنا وعلى ماران على قلوبنا من بعد ومخالفة

---

(١) آل عمران ١٥٩.
(٢) الكهف ٦.
(٢) الشعراء ٢.
(٤) فاطر ٨.

لشريعة الإسلام. ولنعط فرصة لشريعة الإسلام أن تعود ولننظر إلى حالنا بعدها. لا شك أننا سنكون خلقا آخر أفضل مما نحن عليه. ولنعرف أن حماية النفوس والمناصب بالإسلام أفضل وأعز من حمايتها من الإسلام وأن بقاءها بالإسلام أطول من بقائها بقوتها وآمن: وقديما قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر» وخير لنا أن ندل هذه الجماعة ونرشدها على الطريق الأسلم للدعوة ونأخذ بيدها ونبصرها بسماحة الإسلام وصريفته فى الهداية والإرشاد والنصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أن نحاكمهم على كل كلمة وهمسة وكل حركة وجلسه وقد رأينا نتيجة ذلك وعاقبته!!

وليس ببعيد بعد ذلك أن يلتقى الطرفان ويلتئم الشمل وتسير القافلة على بساط الشريعة ونور الحقيقة ونهج الكتاب والسنة وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين(١).

صدق الله العضيم

---

(١) النحل ٩.

ثبت بأهم المراجع

- **القرآن الكريم** .
- **كتب الصحاح والمسانيد** .
- **الابريز** : سيدى عبد العزيز الدباغ / مكتبة ومطبعة محمد على صبيح - القاهرة وبهامشه كتابان : درر الغواص ثم الجوهر والدرر.
- **الأغانى** : ابو الفرج الأصفهانى .
- **ابن سبعين وفلسفة الصوفية** : د/ ابو الوفا التفتازانى /الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٣.
- **ابو الحسن الشاذلى** : د/ عبد الحليم محمود / دار الاسلام القاهرة، والمكتبة العصرية بيروت ١٣٨٧ ، ١٩٦٧ .
- **احياء علوم الدين** : الغزالى / ٤ مجلدات / وبهامشه ثلاثة كتب :تعريف الأحياء بفضائل الأحياء ثم الإملاء فى أشكالات الأحياء ثم عوارف المعارف /دمشق بدون تاريخ.
- **أخبار الحلاج** : (ومعه الطواسين ومجموعة من شعره)الطبعة الثانية / الأسكندرية ١٣٩٠ ، ١٩٧٠.
- **الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية** :للشيخ الصاوى الخلوتى.
- **اسلام بلا مذاهب** : د/ مصطفى الشكعة .
- **اصطلاحات الصوفية** : عبد الرازق القاشانى تحقيق د/ عبد اللطيف العبد الطبعة الأولى ١٣٩٧ ، ١٩٧٧.
- **الاعلام** : خير الدين الزركلى .
- **الأغانى** : أبو الفرج الأصبهانى .
- **الإمامة والسياسة** : لابن قتيبة .
- **الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل** : الشيخ عبد الكريم الجيلى/ الطبعة الرابعة / ١٣٩٥ ، ١٩٧٥ .

- **الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية** :عبد الوهاب الشعرانى/ تحقيق طه عبد الباقى سرور الطبعة الأولى .
- **الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية** : عبد الوهاب الشعرانى / على هامش الطبقات الكبرى للشعرانى.
- **بد العارف** : ابن سبعين / تحقيق د/ جورج كنورة / الطبعة الأولى ١٩٧٨ دار الأندلس ودار الكندى بيروت.
- **بداية الطريق إلى مناهج التحقيق** :السيد محمود ابو الفيض المنوفى الدار القومية للطباعة والنشر.
- **البداية والنهاية** : ابن كثير .
- **التصوف الإسلامى بين الأصالة والمعاصرة** : عبد الكريم الخطيب.
- **التصوف الإسلامى** : زكى مبارك .
- **التصوف الإسلامى فى مدرسة بغداد** : د/ جلال شرف / دار المطبوعات الجامعية ١٩٧٢ .
- **التصوف بين الحق والخلق** : محمد فهر الشقفة.
- **التصوف الثورة الروحية فى الإسلام** : أبو العلا عفيفى الطبعة الأولى دار المعارف ١٩٦٣ مصر.
- **التصوف فى الإسلام** : د/ عمر فروخ دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨١.
- **التصوف منشؤه ومصطلحه** : أحمد سعيد السحمرانى - الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٧.
- **التعرف لمذهب أهل التصوف** : الكلاباذى تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى / مكتبة عيسى البابى الحلبى ١٣٨٠ ، ١٩٦٠.
- **التفسير الكبير** : الفخر الرازى / الطبعة الثالثة / دار أحياء التراث العربى بدون تاريخ.

- **تلبيس إبليس** : ابن الجوزى /إدارةالمطبع المنيرية الطبعة الأولى.
- **التنوير فى اسقاط التدبير** : ابن عطاء الله السكندرى / تحقيق موسى محمد على وعبد العال أحمد العرابى / دار التراث العربى ، ميدان المشهد الحسينى.
- **تنوير القلوب فى معاملة علام الغيوب** : الشيخ محمد أمين الكردى الطبعة التاسعة ١٣٧٢.
- **جامع كرامات الأولياء** : يوسف بن إسماعيل النبهانى / تحقيق إبراهيم عطوة عوض الطبعة الثانية ١٣٩٤ ، ١٩٧٤ مصطفى البابى الحلبى مصر.
- **جمهورية الأولياء وأعلام أهل التصوف** : السيد محمود أبو الفيض المنوفى الطبعة الأولى ١٣٨٧ ، ١٩٦٧.
- **الجواهر والدرر على هامش الابريز** : عبد الوهاب الشعرانى.
- **الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامى** : محمود البهلى النبال. مكتبة النجاح تونس ١٣٨٤.
- **حلية الأولياء** : أبو نعيم / مطبعة السعادة / القاهرة ١٩٣٢.
- **الحلاج شهيد التصوف الإسلامى** : طه عبد الباقى سرور / نهضة مصر الطبعة الثانية ١٩٦٩.
- **ختم الأولياء** : الحكيم الترمذى/ تحقيق عثمان إسماعيل يحيى، المطبعة الكاثوليكية / بيروت ١٩٦٥.
- **خزانة الأدب** : البغدادى .
- **دائرة معارف القرن العشرين** .
- **ديوان الحلاج** : جمع د/ كامل مصطفى الشيبى.
- **ديوان ترجمان الأشواق** : ابن عربى .
- **الرسالة القشيرية** : عبد الكريم القشيرى / دار الكتاب العربى / بيروت.

- **رسائل ابن سبعين** : تحقيق د/ عبد الرحمن بدوى / سلسلة تراثنا / نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- **السعادة الابدية فيما جاء به النقشبندية** : عبد المجيد بن محمد النقشبندى استانبول ١٤٠١ ، ١٩٨١ .
- **سير أعلام النبلاء** : الذهبى .
- **سيرة الغزالى** : عبد الكريم عثمان / دار الفكر دمشق.
- **شرح العقيدة الطحاوية** : ابن أبى العز الحنفى ونسخة أخرى تحقيق / عبد الرحمن عميرة الطبعة الثانية / الرياض ١٩٨٦.
- **شرح كلمات الصوفية** : الرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى جمع وتأليف محمود محمد الغراب ١٤٠٢ ، ١٩٨١ .
- **شطحات الصوفية** : د/عبد الرحمن بدوى/طبعة ثالثة ١٩٧٦.
- **شرح القاشانى على الفصوص** : انظر فصوص الحكم.
- **صفوة الصفوة** : ابن الجوزى / دار الوعى بحلب ٤ اجزاء ١٩٦٩ - ١٩٧٣ .
- **طبقات الأولياء** : ابن الملقن تحقيق نور الدين شربيه / مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر / الطبعة الأولى ١٣٩٣ ، ١٩٧٣.
- **طبقات الصوفية** : أبو عبد الرحمن السلمى / تحقيق نور الدين شربيه / الطبعة الثالثة ١٣٨٩ ، ١٩٦٩ الخانجى .
- **الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوارفى طبقات الأخيار** : الشعرانى جزءان فى مجلدين وبهامشه الأنوار القدسية .
- **طريق الهجرتين وباب السعادتين : ابن القيم / دار الكتاب العربى اللبانى.**
- **الطواسين** : الحلاج/ مكتبة الجندى ١٩٧٠ القاهرة.

- **العقد الفريد** : ابن عبد ربه .

- **عوارف المعارف** : شهاب الدين السهردى / بهامش إحياء علوم الدين للغزالى / القاهرة ١٢١٦ هـ .

- **الغنية لطالبى طريق الحق** : الشيخ عبد القادر الجيلانى / لبنان / المكتبة الشعبية .

- **الفتاوى** : ابن تيمية .

- **الفتح الربانى** : الشيخ عبد القادر الجيلانى / دار الكتاب العربى بيروت.

- **الفتوحات الربانية فى الطريقة الأحمدية التجانية** : الشنقيطى الطبعة الثالثة ١٢٧٧ ، ١٩٨٥ .

- **الفتوحات المكية** : ابن عربى / تحيق د/ عثمان يحيى / الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- **فتوح الغيب** : عبد القادر الجيلانى / الطبعة الثانية ١٩٣٢ ، ١٩٧٣ / مصطفى البابى الحلبى .

- **الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** : ابن تيمية .

- **فصوص الحكم** : محيى الدين بن عربى / الطبعة الثانية ١٤٠٠ ، ١٩٨٠ دار الكتاب العربى بيروت لبنان .

  وطبعة أخرى عليها شرح الشيخ عبد الرازق القاشانى المطبعة المنيرية بمصر .

- **الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة** : عبد الرحمن عبد الخالق / الطبعة الأولى ١٣٩٥ ، ١٩٧٥ .

- **فى التصوف الإسلامى وتاريخه** : نيكلسون نقلها إلى العربية أبو العلا عفيفى ١٣٨٨ ، ١٩٦٩ .

- **فى الفلسفة الإسلامية** : إبراهيم مدكور .

- **قطر الولى على حديث المولى** : الشوكانى / تحقيق د / إبراهيم هلال .
- **قلائد الجواهر** : الشيخ محمد بن يحيى الحنبلى وبهامشه كتاب فتح الغيوب للجيلانى / مطبعة مصر / ويطلب من مكتبة مصطفى البابى الحلبى .
- **قوت القلوب** : أبو طالب المكى / الطبعة الأولى / المطبعة المصرية ١٣٥١ ، ١٩٣٢ .
- **الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر** : بهامش اليواقيت والجواهر دار المعرفة بيروت .
- **كشف الظنون** : حاجى خليفة .
- **الكشف عن حقيقة التصوف لأول مرة فى التاريخ** : محمود عبد الرءوف القاسم / الطبعة الأولى ١٩٨٧ .
- **كشف المحجوب** : تحقيق د/ اسعاد عبد الهادى قنديل / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤ .
- **اللمع** : الطوسى / تحقيق د/ عبد الحليم محمود / لجنة نشر التراث الصوفى / ١٣٨٠ ، ١٩٦٠ .
- **مجموعة الرسائل والمسائل** : ابن تيمية .
- **مدارج السالكين** : ابن القيم .
- **مدخل إلى التصوف الإسلامى** : أبو الوفا التفتازانى .
- **المدرسة الشاذلية الحديثة** : د/ عبد الحليم محمود .
- **مروج الذهب** : المسعودى .
- **المضنون به على غير أهله (الكبير ، والصغير)**: الغزالى .
- **معارج القدس فى مدارج معرفة النفس** : الغزالى الطبعة الرابعة ١٩٨٠ .

- **معالم الطريق إلى الله** : محمود أبو الفيض المنوفى / دائرة المعارف الصوفية دار نهضة مصر .
- **مقارنة الغزالى وابن تيمية** : د/ محمد رشاد سالم .
- **مقدمة ابن خلدون** : ابن خلدون / تحقيق د/ على عبد الواحد وافى / لجنة البيان العربى / الطبعة الأولى ١٩٦٠ .
- **مناهل العرفان** : للشيخ عبد العظيم الزرقانى .
- **المناظر الإلهية** : عبد الكريم الجيلى / الطبعة الأولى ١٣٨٢ ، ١٩٦٠ .
- **المنقذ من الضلال** : الغزالى تحقيق د/ عبد الحليم محمود / دار الكتب الحديثة / الطبعة الخامسة ١٣٨٥ .
- **نشأة التصوف الإسلامى** : د/ إبراهيم بسيونى / دار المعارف ١٩٦٩ القاهرة .
- **نشأة التصوف** : **عبد الكريم الخطيب** .
- **النجوم الزاهرة** : ابن تغرى بردى .
- **نشر المحاسن الغالية** : أبو محمد بن أسعد اليافعى / الطبعة الأولى ١٣٨١ ، ١٩٦١ .
- **النفحات القدسية** : محمد بهاء الدين البيطار / بيروت .
- **هذه هى الصوفية** : عبد الرحمن الوكيل / الطبعة الثالثة ١٣٩٩ ، ١٩٧٩ دار الكتب العلمية .
- **وفيات الأعيان** : ابن خلكان .
- **ولاية الله والطريق إليها** : إبراهيم هلال / دار الكتب الحديثة.

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف

* أسهل طريق فى النحو والتطبيق: مطبعة راشد: القاهرة ١٩٧١.
* الألوهية فى الفلسفة: مكتبة الشباب: القاهرة ١٩٨٣.
* عقيدة المعاد بين الدين والفلسفة. دار العروبة : الكويت ١٩٨٤.
* البعث والنشور للبيهقى (تحقيق) دار العروبة. الكويت ١٩٨٤.
* أصالة التفكير الإسلامى. مكتبة دار العلوم. القاهرة ١٩٨٤.
* فى العقيدة. مكتبة دار العلوم - القاهرة ١٩٨٥.
* أصول الملامتية وغلطات الصوفية للسلمى (تحقيق) القاهرة ١٩٨٥.
* الفلسفة أعلامها ومعالمها - مكتبة دار العلوم - القاهرة ١٩٨٥.
* الأخلاق : دارسة فلسفية دينية. القاهرة ١٩٩٠.
* العقيدة دراسة مقارنة . القاهرة١٩٩١.
* المنطق عرض ونقد حـ١ ، ٢ القاهرة ١٩٩١.
* التصوف عقيدة وسلوكا. مكتبة الزهراء ١٩٩٢.
* المسيحية بين النقل والعقل. القاهرة ١٩٩٢.
* تقويم النظر لابن الدهان (تحقيق) القاهرة ١٩٩٢.
* دراسات فى الفلسفة. القاهرة ١٩٩٢.
* المقالات العشر فى منهج علم الكلام وقضاياه. القاهرة ١٩٩٣.
* سياسة النفوس لسنان بن ثابت - المطبعة الإسلامية الحديثة -

رقم الايداع ٢٢/١١٥ /٩٤
I.S.B.N. 977-00-8177-9